T.C.
BİNGÖL ÜNİVERSİTESİ
SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ
TEMEL İSLAM BİLİMLERİ ANABİLİM DALI
TEFSİR BİLİM DALI

KUR'ÂN PERSPEKTİFİNDE İMTİHAN OLGUSUNUN HİKMETİ

Hazırlayan
ABDULRAZAK MOHAMAD

YÜKSEK LİSANS TEZİ

Danışman

Yrd. Doç. Dr. Emrullah ÜLGEN

Bingöl-2017

الجمهورية التركية

جامعة بنغول

معهد العلوم الاجتماعية

قسم العلوم الإسلامية قسم التفسير

الحكمة من الابتلاء في بيان القرآن

رسالة ماجستير

إعداد: عبد الرزاق محمد

المشرف: د. أمر الله أولكن

بنغول 2017

المحتويات

المحتويات I

BİLİMSEL ETİK BİLDİRİMİ III

المقدمة IV

الملخص V

ÖZET VI

ABSTRACT VII

الاختصارات VIII

المدخل 1

الفصل الأول

تعريف الحكمة والابتلاء وألفاظهما في القرآن الكريم

المبحث الأول: تعريف الحكمة، وألفاظها في القرآن الكريم 6

المطلب الأول: تعريف الحكمة لغة واصطلاحاً 6

المطلب الثاني: ألفاظ الحكمة ومعانيها في القرآن الكريم.....7

المبحث الثاني: تعريف الابتلاء، وألفاظه في القرآن الكريم..... 10

المطلب الأول: تعريف الابتلاء لغة واصطلاحاً..... 10

المطلب الثاني: ألفاظ الابتلاء ومعانيها في القرآن الكريم 12

المبحث الثالث: الابتلاء سنة من سنن الله تعالى..... 13

المطلب الأول: من سنة الله تعالى الابتلاء بالشر والخير، (الحسنات والسيئات)..... 13

المطلب الثاني: من سنة الله تعالى الابتلاء بزينة الأرض 14

المطلب الثالث: من سنة الله تعالى الابتلاء بتفاوت الناس فيما بينهم..... 14

المطلب الرابع: من سنة الله تعالى أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل 16
المطلب الخامس: من سنة الله تعالى ابتلاء الأمم السابقة 18

الفصل الثاني

أنواع حكم الابتلاءات في القرآن الكريم

المبحث الأول: الحكمة من ابتلاء الكافرين بالسراء والضراء 21
المطلب الأول: الحكمة من ابتلاء الكافرين بالسراء..... 21
المطلب الثاني: الحكمة من ابتلاء الكافرين بالضراء 28
المبحث الثاني: الحكمة من ابتلاء المؤمنين بالسراء والضراء 37
المطلب الأول: الحكمة من ابتلاء المؤمنين بالسراء 37
المطلب الثاني: الحكمة من ابتلاء المؤمنين بالضراء..... 55
المبحث الثالث: الحكمة من الابتلاء بالتكاليف الشرعية 117
المطلب الأول: الحكمة من الابتلاء بالشرائع السماوية..... 117
المطلب الثاني: الحكمة من ابتلاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالكلمات..... 118
المطلب الثالث: الحكمة من الابتلاء بتحويل القبلة..... 119
المطلب الرابع: الحكمة من ابتلاء المحْرِمِين بصيد البَر 120
المطلب الخامس: الحكمة من الابتلاء بالجهاد 121
المطلب السادس: الحكمة من الابتلاء بالنفس والشيطان 126
الخاتمة..... 130
المصادر والمراجع 131
ÖZGEÇMİŞ 137
السيرة الذاتية..... 138

BİLİMSEL ETİK BİLDİRİMİ

Yüksek Lisans tezi olarak hazırladığım "**Kur'an Perspektifinde İmtihan Olgusunun Hikmeti"** adlı çalışmanın öneri aşamasından sonuçlanmasına kadar geçen süreçte bilimsel etiğe ve akademik kurallara özenle uyduğumu, tez içindeki tüm bilgileri bilimsel ahlak ve gelenek çerçevesinde elde ettiğimi, tez yazım kurallarına uygun olarak hazırladığım bu çalışmamda doğrudan veya dolaylı olarak yaptığım her alıntıya kaynak gösterdiğimi ve yararlandığım eserlerin kaynakçada gösterilenlerden oluştuğunu beyan ederim.

...../..... / 2017

İmza

Abdulrazak MOHAMAD

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن لله تعالى سنناً في خلقه، ومن سننه سبحانه أنه يبتلي عباده بالخير والشر، والحسنات والسيئات، والسراء والضراء، ومن سنته سبحانه وتعالى أيضاً ابتلاء عباده بتكاليف الأوامر والنواهي. ثم إن سنة الابتلاء عمَّت جميع العباد، ابتداءً بالأنبياء، ثم الصالحين، فالمؤمنين، فالكافرين.

ومن وراء تلك الابتلاءات التي سنها الله وقضاها على خلقه حكمٌ جليلة، لا يحيط بها إلا الله العليم الحكيم، إلا أنه سبحانه وتعالى أوضح بعضاً من تلك الحكم في محكم تبيانه، موعظةً وذكرى لأولي الألباب.

ومن خلال الآيات القرآنية الكريمة نجد أن الله تعالى ابتلى الكافرين والمؤمنين، بالسراء والضراء، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض الحكم من تلك الابتلاءات. وأجاب القرآن الكريم عن كثير من التساؤلات التي تدور في أذهان كثيرٍ من الناس، وهم يقولون: ما لنا نرى بعض الكافرين يتقلبون في نعيم الدنيا، ونرى بعضهم الآخر تنزل بهم الشدائد والمحن. ويتساءلون تارة أخرى: ما الحكمة من ابتلاء المؤمنين، فتارة يعيشون في رخاء ونعمة، وتارة يعيشون في شدة ونقمة، بل ونجد أن الابتلاء ينزل بشدة على المؤمنين اليوم، فنرى منهم الخائف الذي ألجأه الخوف إلى الهجرة من وطنه، أو نراه يعيش في حالةٍ من البؤس والجوع والفقر، ومنهم من فقد ولده أو أسرته، ومنهم من يعيش في ظلام الظلم والسجون، إلى ما هنالك من ابتلاءات معلومة وظاهرة.

ولابد من العلم بأن الله تعالى "عليم" بحال عباده، "حكيم" فيما قضاه وقدره عليهم من سراء وضراء، حتى إننا نرى كثيراً من الآيات القرآنية الكريمة خُتِمَتْ بذكر اسم الله تعالى" الحكيم " ليتأمل العباد معاني هذا الاسم الكريم، فينجلي بتأملهم شيء من بؤسهم وحزنهم.

ولذا قمت في هذا البحث بدراسة الآيات القرآنية الكريمة التي ذكرت أنواع الابتلاء، وبحثت من خلالها عن الحكمة من تلك الابتلاءات، أومن خلال ما ذكره المفسرون الأجلاء، بحسب ما أُتيح لي من بحثٍ، ودراسة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الملخص

إن من سنة الله تعالى الابتلاء بالخير والشر. وأن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

فإن الله تعالى ابتلى عباده المؤمنين بابتلاءات كثيرة، فمنها الابتلاء بالخوف، والجوع، ونقص من الأموال، والأنفس، والثمرات، والجوائح السماوية، والابتلاء بجور الحكام وظلمهم، والابتلاء بالهجرة، والابتلاء بموت الأنبياء والعلماء، وابتلاءات متعلقة بالزوجين-من نشوز الزوجة، وظلم الزوج، أو فسق أحدهما، أو عقوق الأبناء-والابتلاء بالسجن، والهم والحزن، وغيرها.

وأما الحكمة من هذه الابتلاءات فهي كثيرة ومن أهمها: اختبار إيمان العبد وصبره، ورضاه بالقضاء والقدر، وتكفير ذنوبه، وإكرامه بالثواب والمغفرة والأجر العظيم، ودليل على محبة الله تعالى له، وتذكير للعبد بضعفه وعجزه، فيكون دافعاً لالتجاء العبد وتضرعه إلى الله تعالى، وتمييزاً للصادق من المنافق.

وقد يكون الابتلاء عقوبة من الله تعالى للعبد بسبب ترك الشكر، أو ارتكاب المعاصي، فيكون الابتلاء سبباً ليرجع العبد إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة والاستغفار.

الكلمات المفتاحية: القران، التفسير، الامتحان، الحكمة من الامتحان، التوبة.

ÖZET

İnsanların hayır ve şerle imtihanı sünnetullahtandır. İmtihanın en şiddetlisini önce peygamberler daha sonra diğerleri yaşamaktadır. Allah (cc), kullarını korku ve açlıkla; mallar, canlar ve ürünlerden eksiltme; semavî musibetlerle sınamaktadır. Ayrıca kullar zalim yöneticilerle, hicretle, peygamberlerin ve âlimlerin ölümüyle; kadının itaat etmemesi, erkeğin zulmetmesi ve günah gibi karı-koca arasındaki şeylerle; hapishane, hüzün, keder vs. ile imtihan edilmektedir. Kulların imtihanlarındaki hikmet Allah'a şükür ve tevhid konusunda sınamaktır.

Bu imtihanlardaki hikmete gelince bunlar oldukça fazladır. En önemlilerinden bazıları şunlardır: Kulun imanını, sabrını, kaza ve kadere rızasını ölçmek; günahlarını örtmek; sevap, mağfiret ve büyük mükâfatla ikramda bulunmak; Allah'ın muhabbetine vesile kılmak; kulun acizliğini ve zayıflığını hatırlatarak Allah'a yönelmesini ve dua etmesini sağlamak; doğru kişiyle münafıkı birbirinden ayırmak.

Bazen de imtihan, kulun şükür etmemesi ve günah işlemesi nedeniyle Allah (cc) tarafından cezalandırmak suretiyle olmaktadır. Böylece imtihan Kulun Allah'a dönmesine, tevbe ve istiğfar etmesine sebep olmaktadır.

Anahtar Kelimeler: Kur'ân, Tefsir, İmtihan, Hikmet, Tevbe

ABSTRACT

It is Allah's Sunnh to test (trial) all people by good and evil, fort that prophets had faced many troubles and there real follwers as well, trials come to Muslim according to his beliefs.

Allah has trialled His worshippers by many trials: fear, starvation, lack of money, souls and fruits, sky's troubles (heavy rain and tornadoes), the injustice of rulers, migration, death of prophets and scholars, the couple's complaints, wives recalcitrance or husbands injustice, disobedience of children, trials by prison and sorrow.

With the shifting to the wisdom of all these tribulations: Test from God His worshippers faiths and patients; test the acceptance of fate and destiny, atonement for sins, Allah rewards and forgives his believers, as a sign that Allah loves that worshipper, reminds all worshippers that they are weak so worshippers will come back to their God, distinguish sincere and hypocritical. Trials may come as a punishment from Allah to His worshippers because of their sins, therefore Allah gave them all tribulations to lead him to make them return to His side and leave devil side by repentance and forgiveness.

Key words: Quran, Explanation, test, Repentance, the wisdom of the tribulations.

الاختصارات

هـ: هجري.

م: ميلادي.

ج: الجزء.

ص: الصفحة.

(... الآية) للبيان بأن الآية لم تذكر كاملة، والمذكور جزء منها.

ت ح: تحقيق.

المدخل

إن الله سبحانه وتعالى منزه عن فعل الشرور والظلم، تقدس سبحانه وتعالى عن ظلمِ أحد من عباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيئًا ولَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهم يَظلمُونَ﴾ [1]. قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية الكريمة بعد أن ذكر الآيات التي تتحدث عن موقف المشركين من النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى، وبصَّر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً، وأضلَّ به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيئًا ولَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُم يَظلِمونَ﴾ وفي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل:" يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا – إلى أن قال يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه". رواه مسلم[2].

ومن أسمائه سبحانه وتعالى (العليم الحكيم). وقد ورد ذكر هذين الاسمين الكريمين في القرآن الكريم كثيراً، ومنه قوله تعالى:﴿ قَد فَرَضَ اللَّهُ لَكُم تَحِلَّةَ أَيمَانِكُم وَاللَّهُ مَولاكُمْ وَهُوَ العَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[3]. قال الطبري رحمه الله في بيان معنى هذين الاسمين: (وَهُوَ الْعَلِيمُ) بمصالحكم (الْحَكِيمُ) في تدبيره إياكم، وصرفكم فيما هو أعلم به[4].

فابتلاء الله لعباده إنما هو محض اختبار وامتحان وتمحيص لهم، ولم يكن ابتلاء الله تعالى إلا عن كمال علم، وكمال حكمة لا يحيط بها إلا هو سبحانه وتعالى، يفعل ما يشاء هو ربنا ونحن عباده،

---

[1] يونس، 10/ 44.

[2] ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (المتوفى: 774هـ)، ***تفسير القرآن العظيم***، ت ح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة: الثانية 1420هـ -1999 م ج:4، ص: 271.

[3] التحريم، 66/ 2.

[4] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي (المتوفى: 310هـ)، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ت ح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ -2000 م ج: 23، ص:481.

قال الله تعالى ﴿لَا يُسأَلُ عمَّا يَفعَلُ وَهُم يُسأَلُونَ﴾[5]. ولا رادَّ لقضائه قال الله تعالى: ﴿إِنَّما أَمرُهُ إِذا أَرادَ شَيئًا أَن يَقُولَ لهُ كُن فَيَكونُ (82) فَسُبحَانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكوتُ كُلِّ شَيءٍ وإِلَيهِ تُرجَعونَ (83)﴾[6].

وقال شداد بن أوس رضي الله عنه: يا أيها الناس، لا تتهموا الله في قضائه، فإنه -سبحانه-لا يبغي على مؤمن، فإذا نزل بأحدكم شيء مما يحب فليحمد الله، وإذا أنزل به شيء مما يكره فليصبر وليحتسب، فإن الله عز وجل عنده حسن الثواب[7].

فالله تعالى يبتلي عباده مؤمنهم وكافرهم بالسراء والضراء ليختبرهم، وابتلاؤه لحكمة لا يحيط بعلمها إلا هو سبحانه هو الحكيم العليم. ولا يعلم العباد من حكمته -سبحانه-إلا ما ذكره لهم في كتابه، أو أخبر به رسله عليهم الصلاة والسلام، أو ما أشرق على قلوب أوليائه من أنوار معاني كلامه. وفي طيات البحث سنرى بعض تلك الابتلاءات التي اشتملت على حكمٍ إلهية عظيمة.

الهدف من كتابة البحث: إن الأهداف التي يُسعى إلى تحقيقها من خلال كتابة البحث تتلخص فيما يلي:

الهدف الأول: تقوية الإيمان بالله تعالى، وقضائه وقدره، وخاصة عند أهل الابتلاء.

الهدف الثاني: التذكير بأن الابتلاء كما يكون بالضراء والنقم؛ يكون بالسراء والنعم، ويكون بالتكاليف الربانية، من أوامر ونواهي وتشريعات، وانَّ لكل ابتلاء حكمة خاصة به.

الهدف الثالث: التنبيه إلى أهمية الشكر لله تعالى على النعم، وأهمية الصبر عند نزول المصائب والمكاره والمحن.

الهدف الرابع: عدم حسد الكافرين على ما بهم من نِعَمٍ، والحذر من غضب الله وما أنزله بالكافرين من نقم.

الهدف الخامس: التذكير بأن الرخاء والغنى ليس دليلاً على التكريم، كما أن الشدة والفقر ليس دليلاً على الإهانة، وإنما الحكمة من ذلك الابتلاء للأغنياء في غناهم، وللفقراء في فقرهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذا ما ابتَلاهُ ربُّهُ فَأَكرمَهُ ونَعَّمهُ فَيقولُ رَبّي أَكرَمَنِ (15) وأَمَّا إِذا ما ابتَلاهُ فَقَدَرَ عَليهِ رِزقَهُ فَيقولُ ربّي أَهانَنِ (16) كلَّا بَل لَّا تُكْرِمونَ اليَتيمَ (17)﴾[8].

---

[5] الأنبياء، 21/ 23.

[6] يس، 36/ 82-83.

[7] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج:2، ص:191.

[8] الفجر، 89/ 15-16-17.

الهدف السادس: مواساة أهل الابتلاء في زماننا اليوم؛ لأنه ما من ابتلاء نزل بالمؤمنين اليوم-من فقر، وخوف، وتشريد، وتقتيل، وتهجير-إلا لحكمة بالغةٍ أرادها الله العليم الحكيم سبحانه وتعالى.

الهدف السابع: التحقق بالعبودية الكاملة لله تعالى، والاعتراف له بالضعف والذلِّ والعجز والمملوكية، والاعتراف لله تعالى -المتصف بصفات الكمال-بالملك والربوبية والعلم والحكمة.

منهجية البحث: إن المنهج الذي اتبعته في هذا البحث هو المنهج الاستقرائي، وهو تتبع الآيات القرآنية الكريمة التي ذكرت أنواع الابتلاءات، التي ابتُلي بها المؤمنون، والكافرون، ومن ثَمَّ ذِكْرُ أشهر آيات الابتلاء بالتكليف.

وقد اعتمدت بالدرجة الأولى البحث عن الآيات التي ذكرت الابتلاء، مثل: ليبلوكم، ولنبلونكم، بلوناهم، ابتلى. ثم بحثت عن أشهر الابتلاءات التي تصيب المسلمين اليوم، وإن لم تكن واردة بلفظ الابتلاء، مثل: ابتلاء المؤمنين بظلم الحكام وجورهم، والابتلاءات المتعلقة بالزوجين، والابتلاء بالهجرة. ثم بحثت عن أشهر الابتلاءات المتعلقة بالتكاليف والتي أوضح القرآن الكريم أنها ابتلاءات، مثل الابتلاء بالشرائع السماوية، وابتلاء المحْرمين بصيد البَر، والابتلاء بالجهاد. ومن ثَمَّ بحثت عن الحكمة الإلهية من كل ابتلاءٍ، وذلك من خلال ما صرحت به الآيات القرآنية الكريمة، أومن خلال تفسيرها، أو ما نصَّ عليه المفسرون من حكم لبعض تلك الابتلاءات في مواطن متفرقة من تفاسيرهم، وذكرت بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تبين بعض الحكم أيضاً.

دراسات حول الموضوع: لقد كتب الكثير حول" الابتلاء" ولكن لم أجد من أفرد مؤلَّفا عن " الحكمة من الابتلاء". إلا ما تم الإعلان عنه من وجود كتابٍ للإمام ابن قيم الجوزية، بعنوان "حكمة الابتلاء" إلا أنه لم يتيسر لي الحصول عليه.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه "طريق الهجرتين وباب السعادتين" في الفصل السادس: بعض حكم وقوع الإنسان في الذنب، وقد ذكرت شيئاً من ذلك في المطلب الأخير من هذا البحث، عند الحديث عن حكمة الابتلاء بالنفس والشيطان. وكتب الدكتور عبد الكريم زيدان في كتابه" السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد" بعض الفقرات حول سنة الابتلاء، وخاصة في الفصل الرابع: "سنة الله في الفتنة والابتلاء قانون الابتلاء". وما سوى ذلك كانت أكثر الكتابات عبارة عن فتاوى ومقالات قصيرة منشورة عبر مواقع الإنترنت[9]. وقد نشرت مجلة البحوث الإسلامية في العدد

[9] مثال ذلك مقال: ***وفي الابتلاء حكمة***، لمحمد بن شاكر الشريف. 2017/4/25
http://www.saaid.net/doat/alsharef/010.htm

الخامس والأربعين، الإصدار من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة 1416 هـ. بحثاً بعنوان الفتنة والابتلاء، وكان المبحث الثاني بعنوان الحكمة من الفتنة والابتلاء.

نظرة عامة للموضوع: لقد تناولت في هذا البحث الحديث عن الحكمة من الابتلاء، فبينت معنى الحكمة والابتلاء، وأن الابتلاء سنة من سنن الله تعالى، فكل عباد الله تعالى ستجري عليه سنة الابتلاء، نبياً كان أو صِدِّيقاً، أو ولياً، أو مؤمناً، أو كافراً. وتناولت البحث عن الحكمة من الابتلاءات، من خلال القرآن الكريم والتفاسير، والأحاديث النبوية الشريفة.

فذكرتُ أولاً: الحكمة من ابتلاء الكافرين بالسراء والضراء، كالحكمة من ابتلائهم بالنعم والرخاء والحكمة من ابتلاء آل فرعون بالسنين وغيرها.

وذكرت ثانياً: الحكمة من ابتلاء المؤمنين بالسراء والضراء، كالحكمة من ابتلاء المؤمنين بالعلم والغنى والصحة والعافية، والحكمة من ابتلائهم بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، والحكمة من ابتلائهم بالهجرة والحكمة من الابتلاء بعقوق الأبناء وغيرها.

وذكرت ثالثاً: الحكمة من الابتلاء بالتكاليف، كالحكمة من الابتلاء بالشرائع السماوية، والحكمة من ابتلاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالكلمات، والحكمة من الابتلاء بتحويل القبلة، والحكمة من ابتلاء المحرمين بصيد البَرّ، والحكمة من الابتلاء بالجهاد، والحكمة من الابتلاء بالنفس والشيطان.

الفصل الأول

تعريف الحكمة والابتلاء وألفاظهما في القرآن الكريم

المبحث الأول: تعريف الحكمة، وألفاظها في القرآن الكريم

المطلب الأول: تعريف الحكمة لغة واصطلاحاً

الحكمة لغة: حَكَمَ: «الحَكم والْحَكيمُ» من أسمائه سبحانه وتعالى، وهما بِمعنَى الحَاكِم، أي الْقَاضِي، والحكيم الذي يحكم، أو المتصف بالحكمة، والحكيم: الذي يصنع الأشياء بدقة وإتقان[10]. فالحكيم هو العالم المتصف بالحكمة وإتقان الأمور[11].

فالحِكْمَةُ من الله: العلم بالأشياء وإيجادها على غاية من الإتقان والإحكام[12].

الحكمة اصطلاحاً: الإصابة في جميع الأقوال والأفعال[13].

وأوضح الطبري رحمه الله معنى اسم الله تعالى "الحكيم" بأنه الذي لا يتخلل فعله نقص، ولا عيب، ولا خلل، ولا خطأ؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم نتائج الأمور وعواقبها، فلا يدخل تدبيره ذمٌّ ولا نقص، ولا عيب، كما يدخل أفعال العباد، لأنهم اتصفوا بالجهل، وسوء الاختيار في أمورهم[14]. وقال ابن كثير رحمه الله: فالحكيم هو المتصف بالحكمة، في جميع أفعاله، وأقواله-سبحانه وتعالى-فيضع كل شيء في محله[15]. والحكمة عند ابن القيم رحمه الله: هي فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي[16]. وأوضح رحمه الله تعالى الحكمة عند أهل السنة: بأنها الغايات المحمودة، المطلوبة له سبحانه

---

[10] ابن الأثير الجزري، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (المتوفى: 606هـ)، ***النهاية في غريب الحديث***، ت ح: طاهر أحمد الزاوى -محمود محمد الطناحي المكتبة العلمية -بيروت، 1399هـ -1979م ج:1، ص: 418-419

[11] الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ)، ***مختار الصحاح***، ت ح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية -الدار النموذجية، بيروت –، صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420هـ / 1999م، ص: 78.

[12] الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني (المتوفى: 1205هـ)، ***تاج العروس من جواهر القاموس***، ت ح: مجموعة من المحققين، دار الهداية ج: 31، ص: 513.

[13] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:5، ص:576.

[14] الطبري، ***المصدر نفسه***، ج:4، ص:361.

[15] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج:1، ص: 445.

[16] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن أيوب بن سعد (المتوفى: 751هـ)، ***مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين***، ت ح: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة، 1416 هـ - 1996م ج:2، ص:449.

وتعالى، بخلقه وأمره، والتي أمر لأجلها، وخلق لأجلها، وقدر لأجلها[17]. والحكمة عند الهروي رحمه الله: اسم لإحكام الأشياء في مواضعها[18].

المطلب الثاني: ألفاظ الحكمة ومعانيها في القرآن الكريم

وردت كلمة "الحكمة" في القرآن الكريم عشرين مرة، بعدة معانٍ:

جاءت بمعنى النبوة[19]: قال الله عز وجل:﴿ ولَمَّا جاءَ عِيسى بِالبَيِّناتِ قالَ قَد جئتُكم بالحِكمةِ ولأُبيِّنَ لَكُم بعضَ الَّذي تَختَلِفونَ فيهِ فَاتَّقوا اللَّهَ وأَطيعُوا﴾[20].

وجاءت بمعنى المقالة المحكَمَة الصحيحة، أو بمعنى القرآن الكريم[21]، قال الله تعالى:﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحكْمةِ وَالموعِظَةِ الحسَنَةِ وجادِلهُم بِالَّتي هِيَ أَحسنُ إِنَّ ربَّكَ هوَ أَعلمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبيلِهِ وهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهتَدينَ﴾[22].

وجاءت بمعنى القرآن الكريم، والعلم، والفقه، أو بمعنى الإصابة[23]. قال الله تعالى:﴿ يُؤْتِي الْحِكْمةَ مَن يَّشاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكمَةَ فَقد أُوتِيَ خيرًا كثيرًا وما يذَّكَّرُ إلَّا أولُو الأَلْبابِ﴾[24].

وجاءت بمعنى السنة[25]: قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعثْ فيهِم رسولًا مِنهُمْ يَتلو عَلَيهِم آياتِك وَيُعَلِّمُهمُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ ويُزكِّيهم إِنَّك أَنتَ العَزِيزُ الحَكيمُ﴾[26].

---

[17] ابن قيم الجوزية، ***المصدر نفسه***، ج:2، ص:451.

[18] الهروي، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (المتوفى: 481هـ)، ***منازل السائرين***، دار الكتب العلمية – بيروت، ص: 78.

[19] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:21، ص: 634.

[20] الزخرف، 43/ 63.

[21] الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (المتوفى: 538هـ)، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة -1407 هـ ج:2، ص: 644.

[22] النحل، 16/ 125.

[23] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:5، ص: 577.

[24] البقرة، 2/ 269.

[25] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:3، ص: 86.

[26] البقرة، 2/ 129.

والمقصود من الحكمة في البحث ما يتضمنه اسم الله تعالى الحكيم من معانٍ، وقد تقدم ذكرها في تعريف الحكمة.

ثم إن الحكمة من الابتلاء إما أن تكون صريحة، وإما أن تكون مستنبطة. فالصريحة: فهي الحكمة الجلية الواضحة من ابتلاء الله تعالى لعباده، ومن ذلك قوله سبحانه تعالى: ﴿وَلَقَد أَرسَلْنا إِلَى أُممٍ مِن قَبلِكَ فَأَخَذناهُم بِالبَأْساءِ وَالضَّراءِ لَعلَّهُم يَتضَرَّعونَ﴾[27]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنا في قَريَةٍ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالبَأْساءِ والضَّرَّاءِ لَعَلَّهُم يضَّرَّعُونَ﴾[28]. وقوله سبحانه وتعالى:﴿ وَلَقَد أَخَذنَا آلَ فِرعَونَ بِالسّنِينَ وَنَقصٍ مِّن الثَّمَراتِ لَعَلَّهُم يذَّكَّرونَ﴾[29]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَطّعناهُم فِي الأَرضِ أُمماً مِّنْهمُ الصَّالِحونَ وَمِنهُم دُونَ ذَلكَ وَبَلَوناهُم بِالحَسَناتِ وَالسَّيّئاتِ لَعَلَّهُم يَرجِعونَ﴾[30]. وقوله سبحانه وتعالى:﴿ ظَهَرَ الفَسادُ فِي الْبرّ وَالبَحرِ بِمَا كَسَبتْ أَيدِي النَّاسِ لِيُذِيقهُم بَعضَ الَّذِي عَمِلوا لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ﴾[31]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ العذَابِ الأَدنَى دُونَ الْعذَابِ الْأَكبَرِ لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ﴾[32]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِن آيةٍ إِلَّا هيَ أَكبَرُ مِن أُختهَا وَأَخَذنَاهُم بِالعَذَابِ لَعلَّهُم يَرجِعُون﴾[33]. فيلاحظ أن لله تعالى حكمة صريحة من الابتلاء مذكورة في نهاية كل آية.

وأما الحكمة المستنبطة: فهي ما استنبطه العلماء والمفسرون من الآيات الكريمة. ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلمَّا فَصلَ طالُوتُ بِالْجُنودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبتَلِيكُم بِنهَرٍ فَمَن شَربَ مِنهُ فَلَيسَ مِنّي وَمَن لَّم يَطعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنّي إِلَّا منِ اغتَرَفَ غُرفَةً بِيَدِهِ فَشَربُوا مِنهُ إِلَّا قَليلًا مِنهُمْ...الآية﴾[34]. فالحكمة المستنبطة من ابتلاء هؤلاء بالنهَر فيها وجهان: الوجه الأول: أن بني إسرائيل اشتهروا بمخالفة أنبيائهم وملوكهم وقادتهم، مع ما ظهر لأنبيائهم من المعجزات الخارقات، فأراد الله جل وعلا امتحانهم واختبارهم بالنهر، قبل مواجهة الأعداء في الحرب، وذلك ليظهر من يصبر على شدائد الحرب وبأسها، ممن لا يصبر، لأن التولي وترك المعركة قبل بدئها، لا يؤثر كتأثيره عند بدئها والتحام الجيشين فيها،

---

[27] الأنعام، 6/ 42.

[28] الأعراف، 7/ 94.

[29] الأعراف، 7/ 130.

[30] الأعراف، 7/ 168.

[31] الروم، 41/30.

[32] السجدة، 21/32.

[33] الزخرف، 43/ 48.

[34] البقرة، 2/ 249.

لذا ابتلاهم الله تعالى بالنَّهَر. والوجه الثاني: أن الله تعالى أراد من الغزاة والمجاهدين أن يتمرنوا ويتدربوا على الصبر وتحمل الشدائد[35].

ومن ذلك ما استنبطه ابن القيم رحمه الله، حيث استنبط أن من حكم الابتلاء بالمحن والشدائد والكروب، منع الإنسان من الطغيان في الأرض، ومنعه من الفساد والبغي فيها، فكان الابتلاء بمثابة دواء يطهّر الإنسان من أمراض البغي والطغيان والإفساد، حتى إذا طهُرَ الإنسان من طغيانه وبغيه وإفساده، تهيأ لأعلى الدرجات في الدنيا، وذلك بالوصول إلى مرتبة العبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى، ورفع له مقامه في الآخرة والشرف بالقرب منه، والنظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى[36].

وقبل البدء في معرفة الحكمة من الابتلاء لابد أن نتطرق إلى قوله تعالى:﴿ لَا يُسأَلُ عمَّا يَفعَلُ وَهُم يُسْأَلُونَ﴾[37]. فالآية أوضحت أن الله سبحانه وتعالى هو الحاكم المطلق، له الحكم في ملكه وخلقه، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، ولا يعترض على حكمه أحد من خلقه، لأنه تعالى ذو العظمة والكبرياء، والعلم والحكمة، والعدل واللطف، وأما عباده فإنهم مسؤولون عن أعمالهم وتصرفاتهم[38]. وبيان ذلك أن ملوك الدنيا وجبابرتها يتصرفون في ممالكهم، ولا يسألهم أحد من الرعية عن تصرفهم، بل لا يجرأ أحد على الاعتراض عليهم خوفاً وهيبةً، مع العلم بأنهم غير معصومين من الوقوع في الأخطاء والفساد، فمن الأولى عدم الاعتراض على فعل الله تعالى وتصرفه في خلقه، لأنه تعالى مالك الملوك، وربهم، المنزه عما يقع فيه العباد من الأخطاء، المتصف بصفات العلم والحكمة سبحانه وتعالى، فالله تعالى لا يُعترضُ على فعله[39]. سواء ابتلى عباده بالسراء أم بالضراء، فما على الإنسان إلا أن يؤمن بأنه تعالى له الحكمة البالغة في كل شيء.

---

[35] الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (المتوفى: 606هـ)، ***التفسير الكبير***، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة -1420 هـ ج: 6، ص 509.

[36] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (المتوفى: 751هـ)، ***زاد المعاد في هدي خير العباد***، مؤسسة الرسالة، بيروت -مكتبة المنار الإسلامية، الكويت الطبعة: السابعة والعشرون ، 1415هـ /1994م

[37] الأنبياء: 23.

[38] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج: 5، ص:337.

[39] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 3، ص 110-111.

المبحث الثاني: تعريف الابتلاء، وألفاظه في القرآن الكريم

المطلب الأول: تعريف الابتلاء لغة واصطلاحاً

الابتلاء لغة: بلا: بَلَوْتُ الرجلَ وابتَلَيْته: اخْتَبَرته، وبَلاهُ: جَرَّبَه واخْتَبَره. وابتَلاه اللَّهُ: امْتَحَنَه. والاسم: البَلْوَى، والبَلاءُ، والبَلِيَّةُ. والبلاء قد يكون في الخير وقد يكون في الشر. يقال: ابْتَلَيته بَلَاءً حسنا، وبلاء سيئاً. والله عز وجل يُبْلي العبد بلاء حسناً، وبلاء سيئاً. وَيُقالُ: أَبلاه اللَّه يُبْلِيه إبْلاءً حسنًا، إِذَا صنع به صنعا جميلاً. وبَلاه اللهُ وابْتَلاه أَي اخْتَبره. والبَلاء: الاختبار بالخير والشر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيرِ فِتْنَةً﴾[40].

وفي المعجم الوسيط: ابتلاه: أي جرَّبَه. والْبَلَاء: المحنة التي تنزل بِالْمَرْءِ ليختبر بهَا[41].

وفي النهاية[42]: يكون الابتلاء في الخير والشر معاً من غير فَرقٍ، ومن ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَبلُوكُم بِالشَّرِّ والْخَيرِ فِتنَةً﴾[43].

وقال الأصفهاني: بَلَوتُهُ: اختبرته، قال الله تعالى: ﴿هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ﴾[44]. أي: تعرف النفس حقيقة ما قدمت من عمل، وسمّي الغمُّ بلاءً لأنه يبلي الجسم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَفي ذلِكُم بَلاءٌ مِن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[45]. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيءٍ مِنَ الْخَوفِ... الآية﴾ [46]. وقال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ هذا لَهُو الْبلاءُ الْمُبِينُ﴾[47]. وسمي التكليف بلاء من عدة جوانب: الجانب الأول: أن في التكاليف مشقة على البدن. والجانب الثاني: أنّ التكاليف اختبارات، وامتحانات للعبد، ولذا قال الله جل وعلا: ﴿وَلَنَبلُوَنَّكُم حَتَّى نَعلَمَ الْمُجاهِدين مِنكُم وَالصَّابِرينَ وَنَبلُوَ أَخبارَكُم﴾[48]. والجانب الثالث: أنّ الله سبحانه

---

[40] ابن منظور الإفريقي، محمد بن مكرم بن علي (المتوفى: 711هـ)، ***لسان العرب***، دار، صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة -1414هـ، ج 14، ص: 83-84.

[41] إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار، ***المعجم الوسيط***، دار الدعوة، ج: 1، ص: 71.

[42] الخراط، أحمد بن محمد، ***منهج ابن الأثير الجزري في مصنفه «النهاية في غريب الحديث والأثر»***، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ص: 63.

[43] الأنبياء، 21/ 35

[44] يونس، 10/ 30.

[45] البقرة، 2/ 49.

[46] البقرة، 2/ 155.

[47] الصافات، 106/37.

[48] محمد، 31/47.

وتعالى يختبر العباد، بالسراء ليشكروا، ويختبرهم بالضراء ليصبروا، فصارت المنح والمحن بلاء، فالمحن تقتضي الصبر، والمنح تقتضي الشكر.

والقيام لله تعالى بحقوق الشكر، أشقُّ وأشدُّ من القيام له سبحانه بحقوق الصبر، فصارت المنحُ والعطايا أعظم البلاءين، ولهذا السبب قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نشكر.

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ والْخَيرِ فِتنَةً﴾[49]. وقوله عز وجل: ﴿وَلِيُبلِيَ الْمُؤمِنينَ مِنهُ بَلاءً حَسناً﴾[50]. وقوله عزّ وجل: ﴿وَفِي ذلِكُم بَلاءٌ مِن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[51]. راجع إلى كلا الأمرين، إلى محنة ذبح الأولاد، واستحْياء النساء، التي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُذَبّحُونَ أَبناءَكُم وَيَستَحْيُونَ نِساءكُم﴾[52]. وإلى منحة إنجائهم. وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَآتَيْناهُم مِنَ الآياتِ ما فيهِ بلاءٌ مُبين﴾[53]. فإنه راجع إلى كلا الأمرين، المنحة والمحنة[54].

الابتلاء اصطلاحاً: هو الامتحان والتجربة والاختبار، حتى يُعْلم هل يطيع الممتَحَن والمُخْتبَرُ، أم يعصي، وهذا محال في حق الله تعالى لاتصافه بصفات الكمال والجلال من العلم والحكمة والقدرة وغيرها، وحاصل الأمر: أن الابتلاء من الله هو معاملة العبد، معاملة تشبه ابتلاء المختَبِر[55]. وعند البيضاوي رحمه الله: الابتلاء التكليف بالأمور الشاقة[56].

---

[49] الأنبياء، 21/ 35.

[50] الأنفال، 8/ 17.

[51] البقرة، 2/ 49.

[52] البقرة، 2/ 49.

[53] الدخان، 44/ 33.

[54] الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: 502هـ)، ***المفردات في غريب القرآن***، ت ح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية -دمشق بيروت، الطبعة: الأولى -1412 هـ، ص: 145-146.

[55] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج:30، ص: 580.

[56] البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (المتوفى: 685هـ)، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ت ح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى-1418 هـ ج 1، ص: 104.

المطلب الثاني: ألفاظ الابتلاء ومعانيها في القرآن الكريم

ورد لفظ الابتلاء في القرآن الكريم بألفاظ عدة منها: البلاء والفتنة والابتلاء والامتحان، وكلها تدل على معنى الاختبار.

أما البلاء، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُم مِنَ الآياتِ ما فيهِ بَلاءٌ مُبينٌ﴾[57]. أي: وأعطيناهم من العِظات، والعِبر، ما فيه اختبار يظهر للمتأمل؛ أنه اختبار اختبرهم الله سبحانه وتعالى به[58]. وقد يكون الاختبار بالخير، وقد يكون بالشر، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفسٍ ذَائقَةُ الْمَوتِ وَنَبلُوكُم بِالشَّرِّ وَالخَيرِ فِتنَةً وَإِلَيْنَا تُرجَعُونَ﴾[59]. وجاء معنى الابتلاء بلفظ الذوق، كقوله تعالى:﴿ وَضَربَ اللَّهُ مثَلًا قَريَةً كَانت آمنَةً مُّطمَئنَّةً يَأْتيهَا رِزقُها رَغدًا مِن كلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَها اللَّهُ لِباسَ الجُوعِ وَالخَوفِ بِمَا كانُوا يَصنَعُونَ﴾[60]. فمعنى الذوق هنا الابتلاء، جاء في الآية على سبيل الاستعارة، لأن الذوق يكون بالفم، واستعير للابتلاء[61].

والابتلاء بمعنى الاختبار، قال الله سبحانه وتعالى:﴿ وَإِذِ ابتَلَى إِبْرَاهيمَ ربُّهُ بِكَلِماتٍ... الآية﴾[62]. فمعنى قوله تعالى وإذ ابتلى أي: وإذا اختبر[63]. والفتنة اختبار وامتحان، كقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُم لَا يُفْتَنُونَ﴾[64].أي أظنَّ الناس أن يتركوا من غير امتحان واختبار[65].

---

[57] الدخان، 44/ 33.

[58] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:22، ص:38.

[59] الأنبياء، 21/ 35.

[60] النحل، 16/ 112.

[61] القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي (المتوفى: 671هـ)، ***الجامع لأحكام القرآن***، ت ح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ -1964 م ج: 10، ص: 194.

[62] البقرة، 2/ 124.

[63] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:2، ص:7

[64] العنكبوت، 2/29.

[65] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:19، ص: 7.

وأما لفظ الامتحان كقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جاءَكُمُ المُؤْمِنَاتُ مُهاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ...﴾ الآية[66]. أي ابتلوهن بالحلف، والنظر في علامات الإيمان، حتى يغلب على ظنكم أنهن صادقات في الإيمان[67].

المبحث الثالث: الابتلاء سنة من سنن الله تعالى[68]

المطلب الأول: من سنة الله تعالى الابتلاء بالشر والخير، (الحسنات والسيئات)

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفسٍ ذائقَةُ المَوتِ وَنَبلُوكُم بِالشّرّ والْخَيرِ فِتنةً وَإِلَينا تُرجَعونَ﴾[69]. قال الطبري رحمه الله في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَنَبلُوكُم بِالشرّ وَالْخَيرِ فِتنَةً﴾ ونختبركم بالشدة، والرخاء، والسعة، والعافية، فنفتنكم به[70]. وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَطَّعناهُمْ فِي الأرضِ أُمماً مِّنهُمُ الصَّالحُونَ وَمِنهُم دُونَ ذَلِك وَبَلَوناهُم بِالْحسَناتِ وَالسَّيئَاتِ لَعَلَّهم يَرجِعونَ﴾[71]. أي: وفرّقنا بني إسرائيل في الأرض، جماعات شتى، متفرّقين، فمنهم الصالحون، الذين يؤمنون بالله تعالى، ورسله عليهم الصلاة والسلام، ومنهم دون الصالح. وذلك قبل بعثة عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام. فامتحنهم الله تعالى بالرخاء، ورغد العيش، والسعة في الأرزاق، وابتلاهم وامتحنهم أيضاً، بالشدة في العيش والفقر، وكثرة المصائب، في الأموال؛ لعلهم يرجعون إلى طاعة ربهم، وينيبوا إليه، ويتوبوا إيه من معاصيهم[72].

---

[66] الممتحنة، 10/60.

[67] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج:4، ص: 517.

[68] اقتبست بعض تقسيمات هذا المبحث من كتاب ***السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية***: للدكتور عبد الكريم الزيدان، الطبعة الأولى،1413/ 1993 مؤسسة الرسالة، بيروت.

[69] الأنبياء، 21/ 35.

[70] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج 18، ص: 439.

[71] الأعراف،7/ 168.

[72] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج: 13، ص:208-209.

المطلب الثاني: من سنة الله تعالى الابتلاء بزينة الأرض

قال الله تعالى:﴿ إِنَّا جَعلْنَا مَا عَلَى الأَرضِ زِينةً لَها لِنَبلُوَهُم أَيُّهُم أَحسَنُ عَملًا﴾[73].

والمراد من الزينة، كل ما يوجد على وجه الأرض، من مخلوقات لدلالته على وجود الله تعالى. وعن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الزينة أقوال: القول الأول: أن المراد بالزينة الرجال، والثاني: الزينة هي الخلفاء، والأمراء. والثالث: العلماء. وقيل: الزينة هي النعم، والملابس، والمياه والخضرة، والثمار، ونحو ذلك، ولا يدخل في الزينة الجبال، وكل ما لا زينة فيه كالحيات، والعقارب، والمؤذيات. ولكن القول بالعموم أولى، وذلك لأن كل ما على وجه الأرض، فيه زينة من حيث خلقته، ودقة صنعه، وإحكامه، وإتقانه. وفي الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، أي لا تهتم يا محمد، ولا تكترث للدنيا وأهلها، فإنما جعلنا ذلك امتحانا، واختبارا لأهلها، فمنهم من يتدبر، ويؤمن، ومنهم من يجحد ويكفر، ويوم القيامة قادم وقريب، ففيه يكون الجزاء والحساب[74]. وقال ابن كثير رحمه الله: أخبر الله سبحانه وتعالى، أنه جعل الدنيا الفانية، داراً مزينة بزينة زائلة، للاختبار والامتحان، ولم يجعلها داراً للمُكْث والاستقرار[75].

المطلب الثالث: من سنة الله تعالى الابتلاء بتفاوت الناس فيما بينهم

إن الله تعالى ابتلى عباده، واقتضت حكمته تعالى أن يكون منهم الغني ومنهم الفقير، ومنهم القوي ومنهم الضعيف، ومنهم الصحيح ومنهم السقيم، ومنهم السيد ومنهم العبد، ومنهم العالم ومنهم الجاهل، إلى ما هنالك من أحوال يختلف فيها الخلق فيما بينهم، ولله تعالى في كلٍّ حكمة قد تبدو لنا وقد لا تبدو، وإذا قرأنا الآيات القرآنية الكريمة بتدبر وتمعن، وما قاله المفسرون في تلك الآيات فإننا بفضل منه تعالى سنقف على بعض حِكَمِهِ في ذلك، ومن تلك الآيات قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وهُوَ الَّذي جَعلَكُم خَلَائفَ الْأَرضِ وَرَفعَ بَعضَكم فَوقَ بَعضٍ دَرجَاتٍ لِيَبلُوَكُم في ما آتَاكُم إنَّ ربَّكَ سرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[76]. ففي الآية بيان لتفاوت الناس فيما بينهم، في الرزق، والخلق، والفضل، والقوة، والبسطة، والعلم. امتحاناً من الله تعالى واختباراً، ليظهر الناس بأعمالهم في هذا التفاوت، بما يستوجبونه

---

[73] الكهف، 7/18.

[74] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج:10، ص:345.

[75] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج:5، ص:137.

[76] الأنعام، 6/ 165.

من الثواب أو العقاب، فابتلى الله تعالى الموسر بالمال والغنى، وطلب منه أن يشكر، وابتلى المعسر بالفاقة والفقر، وطلب منه أن يصبر[77]. وعند الرازي رحمه الله أن التفاوت، ورفع درجات الناس يكون، في العقل، والشرف، والجاه، والمال، والرزق، ولم يكن هذا التفاوت لعجز منه سبحانه وتعالى أو لبخل، تعالى الله عن ذلك، وإنما هو لأجل الابتلاء، والامتحان والاختبار[78].

وقال الله سبحانه وتعالى في موضع آخر: ﴿أَهُم يَقسمُونَ رَحمَتَ ربِّكَ نَحنُ قَسَمنَا بَينَهُم مَعِيشَتَهُم فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَرَفَعنَا بَعضَهُم فَوقَ بَعضٍ دَرجَاتٍ لِّيَتَّخذَ بَعضُهُم بَعضًا سُخْرِيًّا وَرَحمَتُ ربِّكَ خيْرٌ ممَّا يَجمَعُونَ﴾[79]. عَن قَتَادة رَضِي الله عَنهُ قَالَ: قسم بالله تعالى َينهم معيشتهم فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا، كَمَا قسم بَينهم صورهم، وأخلاقهم، فتجد الإنسان، ضَعِيف الحيلَة، ضعيف اللّسَان، وَتراه مَبسُوط لَهُ فِي الرزق، وتجده شَدِيد الْحِيلَة، سليط اللِّسَان، وَتراه مقتَّر عَلَيهِ في الرزق، ليسخِّر بعضهم بعضاً، ويخدم بعضهم بعضاً[80]. فالله تعالى بيده كل شيء، فهو الذي يقسم الكرامة، والرحمة بين عباده، فيجعل من يشاء نبياً، ويجعل من يشاء رسولاً، ويجعل من يشاء صدِّيقا، ويتخذ من يشاء خليلاً مقرباً، كما قسم أرزاق العباد، وأقواتهم، ومعايشهم، فجعل بعضهم أغنياء، وجعل بعضهم فقراء، وجعل بعضهم ملوكاً، وجعل بعضهم عبيداً مملوكين، ليستسخر بعضهم بعضاً في الخدمة، ويعطي الغنيُّ الفقير، ويتصدق الثريُّ على المعدوم، فكان بعضهم سبباً لرزق بعض، وبعضهم مالكاً لبعض[81].

وقال الله تعالى أيضاً:﴿ وَجَعَلنَا بَعضَكُم لِبَعضٍ فِتنَةً أَتَصبِرونَ وكانَ ربُّكَ بَصيرًا﴾[82]. فالدنيا دار ابتلاء وامتحان واختبار، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل بعض الناس فتنة لبعض، وهذا في جميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، فالصحيح المعافى فتنة للمريض المبتلى، والغني الثريُّ فتنة للفقير، والفقير الصابر على فقره فتنة للغني، فجعل الله تعالى كل واحد من هؤلاء سبباً من أسباب الامتحان والاختبار، فالغني ممتحَن ومفتتن، وفتنته وامتحانه بالفقير، وذلك بأن يواسيه، ولا يسخر منه، والفقير ممتحَن بالغني، وعليه ألا يحسده على ما آتاه الله تعالى من فضله. ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، وأن يصبر كل واحد منهما على التزام طريق الحق، ويبتعد عن طريق الباطل. ففتنة أصحاب

---

[77] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج:7، ص: 158.

[78] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج:14، ص: 192-193.

[79] الزخرف، 43/ 32.

[80] السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى: 911هـ)، ***الدر المنثور***، دار الفكر – بيروت، ج:7، ص: 375.

[81] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:21، ص:595-596.

[82] الفرقان، 25/ 20.

البلاء بقولهم: لماذا ابتُلينا؟ والضرير يقول: لماذا لم يجعلني الله تعالى مبصراً؟ وهكذا كل صاحب آفة وعاهة، والرسول الذي اختصه الله تعالى بالنبوة والرسالة، فتنة لوجهاء الناس من المشركين في عصر ذلك الرسول. والعلماء، والحكام والقضاة، فتنة لغيرهم، فالفتنة أن يحسد أهل الابتلاء، أهل العافية، والواجب على الجميع أن يصبر، ويحبس نفسه فيما يرضي الله تعالى، من الرضا بالقضاء والقدر، والتسليم والشكر له سبحانه وتعالى[83].

المطلب الرابع: من سنة الله تعالى أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل

إن الله تعالى خلق العباد في هذه الدنيا ليتحققوا بكامل العبودية له سبحانه وتعالى، وأولى الناس وأكملهم عبودية هم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وقد جبل الله تعالى هذه الحياة الدنيا بالابتلاءات والمحن والفتن والشدائد، ولم يسلم أحد من الابتلاء، ولو سلم أحد من الابتلاء لسلم منه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلا أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا أشد الناس بلاء. فابتلي سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام بقومه، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قوم نوح عليه الصلاة والسلام كانوا يضربون نوحا عليه الصلاة والسلام حتى يسقط فيلقونه[84]. وابتلي أيضاً بالزجر والسب والشتم، قال الله تعالى:﴿ كَذَّبَت قَبلَهُم قومُ نُوحٍ فكَذّبوا عَبدَنا وَقَالوا مَجنونٌ وَازدُجِرَ﴾[85]. أي: أنهم كانوا يزجرون نوحاً عليه الصلاة والسلام، ويتوعدونه بالرجم، والشتم بالقول القبيح[86].

وابتلي سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بابتلاءات كثيرة، ذكرها القرآن الكريم في مواطن عدة، منها ابتلاؤه بأمانة التكاليف، والأوامر الإلهية، قال الله تعالى:﴿ وَإِذِ ابتَلَى إبرَاهِيمَ ربُّهُ بِكلماتٍ فأتَمَّهنَّ قَال إني جاعِلُكَ للنَّاسِ إمامًا قَال وَمِن ذُريَّتي قَال لا ينَالُ عَهدِي الظَّالمِينَ﴾[87].

---

[83] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج: 13، ص: 18.

[84] البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي (المتوفى: 510هـ)، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ت ح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ، الجزء 2 الصفحة 446.

[85] القمر، 54/ 9.

[86] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، الجزء 22، الصفحة: 577.

[87] البقرة، 2/ 124.

والابتلاءات التي ابتلي بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام أشهر من أن تذكر، فمنها: ابتلاؤه بالإلقاء في النار، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُم إِن كُنتُم فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يا نارُ كُوني بَرداً وَسلَاماً على إبراهِيمَ (69) وأَرادُوا بهِ كَيدًا فَجعَلْنَاهمُ الْأَخسَرِينَ (70)﴾[88]. وابتلاؤه هو وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بأمر الذبح، قال الله تعالى:﴿ فَلمَّا بَلغَ مَعهُ السَّعيَ قالَ يَا بُنيَّ إنّي أَرى فِي الْمنَامِ أنّي أَذْبحُكَ فَانظُر ماذَا تَرى قَال يَا أَبَت افعَل مَا تُؤمَرُ سَتَجِدُني إن شَاء اللَّهُ منَ الصَّابرينَ (102) فلمَّا أَسلَمَا وَتَلَّه لِلجَبينِ (103) ونَادَيناهُ أَن يَا إبرَاهِيمُ (104) قَد صَدَّقتَ الرُّؤيَا إنا كَذلِكَ نَجزِي الْمُحسِنِينَ (105) إنَّ هذَا لهُوَ البَلَاءُ الْمُبينُ (106) وَفَدَينَاهُ بِذِبحٍ عَظيمٍ (107)﴾[89].

وابتلي سيدنا يعقوب عليه الصلاة والسلام هو وأبناؤه – يوسف وإخوته – ابتلاءات كثيرة تحدثت عنها سورة يوسف عليه الصلاة والسلام. فجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ابتلوا بأشد أنواع الابتلاءات؛ فصبروا على ذلك فكانوا قدوةً لمن يأتي من بعدهم، قال الله تعالى:﴿ وَلَقَد كُذِّبَت رُسلٌ مِن قَبلِكَ فَصبَرُوا علَى ما كذِّبُوا وأُوذُوا حتَّى أَتَاهُم نَصرُنَا وَلا مبدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَلَقَد جاءَكَ منْ نَبأ الْمُرسَلِينَ﴾[90].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَم حَسِبتُم أَن تَدخُلُواْ الْجنَّةَ ولمَّا يَأْتكُم مَّثلُ الَّذينَ خلَوا مِن قَبلِكُم مَّسَّتهمُ البأْسَاء وَالضّرَّاءُ وَزُلزِلُوا حَتَّى يقُولَ الرَّسولُ والَّذينَ آمنُوا معَهُ مَتى نَصرُ اللهِ أَلا إنَّ نَصرَ اللهِ قَريبٌ﴾[91]. يقول الله تعالى في هذه الآية: أتظنون أن تدخلوا الجنة من دون اختبار وابتلاء وامتحان، بل إنكم ستتعرضون للابتلاء والامتحان، كما تعرض من قبلكم من الأمم، فإنهم أصابتهم الشدائد والمصائب، من مرض، وألم، وسقم، وابتُلوا بالخوف من الأعداء ابتلاء عظيما، وقد ابتلى الصحابة رضي الله عنهم بمثل ذلك في غزوة الأحزاب ابتلاء شديداً، كما قال الله تعالى:﴿ إذ جَاءُوكُم مِن فَوْقِكُم وَمِن أَسفَلَ مِنكُم وَإذ زَاغَت الْأَبصَارُ وَبَلَغتِ القُلُوبُ الحَنَاجرَ وَتَظنُّونَ باللَّهِ الظُّنونَا (10) هُنَالكَ ابتُلِيَ الْمُؤمِنُونَ وَزُلزِلُوا زِلْزَالًا شدِيدًا (11) وإذ يقولُ الْمُنافِقُونَ والَّذِينَ فِي قُلُوبِهم مَرضٌ ما وعدَنَا اللَّهُ ورَسُولُه إلَّا غُرورًا (12)﴾[92]. قال هرقل لأبي سفيان: هل قاتلتم محمداً-صلى الله عليه وآله وسلم-؟ فقال أبو سفيان: نعم،

---

[88] الأنبياء، 21/ 68-70.

[89] الصافات، 37/ 102 -107.

[90] الأنعام، 6/ 34.

[91] البقرة، 2/ 114.

[92] الأحزاب، 33/ 10 -12.

فقال هرقل: كيف كانت الحرب؟ قال: الحرب سجال بيننا، قال: كذلك تُبتلى الرسل-عليهم الصلاة والسلام-ثم تكون العاقبة لها. فكل الأمم ابتليت، لأن هذه سنة الله تعالى في عباده، وقوله تعالى:﴿ وَزُلْزِلُوا حتَّى يَقُول الرَّسولُ والَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتى نَصرُ اللّهِ﴾ أي أنهم كانوا عند الكرب والضيق، يدعون الله تعالى، بالفرج والنصر، فالنصر يكون مع الكرب، ولذا قال الله تعالى: ﴿أَلا إنَّ نَصرَ اللّهِ قريبٌ﴾[93].

وقد ابتلي سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام، حتى اشتهر بالصبر على البلاء، قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى ربَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الضرُّ وَأَنتَ أَرحَمُ الرَّاحمِينَ (83) فَاستَجَبنَا لهُ فَكَشَفنا مَا بهِ مِن ضرٍّ وَآتَينَاهُ أَهلَهُ وَمثْلَهُم مَعَهُم رَحمةً مِن عِندِنا وَذِكرى لِلعَابِدين (84)﴾[94]. فسيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام، مثل مشهور في الصبر على البلاء والمحنة، حتى أصبح الناس يقولون: صبر أيوب عليه الصلاة والسلام، ومعنى الآية السابقة: اذكر يا محمد للعبرة، والاتعاظ، والتأسي والاقتداء، خبر أيوب عليه الصلاة والسلام، الذي أصابه الضر والبلاء، في جسده، وولده، وماله، فدعا ربه سبحانه وتعالى، قائلا: رب إني مسني الضر والبلاء، وأنت أرحم الراحمين، فوصف نفسه بوصف يقتضي نزول رحمة الله تعالى، ووصف ربه عز وجل بغاية اللطف والرحمة، ولم يصرح عليه الصلاة والسلام في دعائه بمطلوبه، بل تلطف في الدعاء والسؤال، لإيمانه بأن الله عليم بحاله، وكان مرضه عليه الصلاة والسلام، طويل الزمن؛ ولكنه غير منفر، ولا مشوه لشيء من جسده، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الأمراض المنفرة للطباع، وحنت عليه زوجته تلك الفترة، ولازمته بالخدمة والرعاية، إلى أن شفاه الله تعالى، وعوضه ما فقد من أموال وأولاد. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه الإمام أحمد، والبخاري، وغيرهما: «أشد الناس بلاء: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبا، اشتد بلاؤه»[95].

المطلب الخامس: من سنة الله تعالى ابتلاء الأمم السابقة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَما أَرسَلْنَا في قَريَةٍ مِن نَبيٍّ إِلَّا أَخَذنَا أَهلَهَا بِالبَأْساءِ والضرَّاءِ لَعَلَّهُم يَضرَّعُونَ (94) ثُم بَدَّلْنا مَكانَ السَّيئَةِ الحسَنَةَ حَتَى عَفَوا وقَالُوا قَد مسَّ آبَاءنَا الضرَّاءُ وَالسرَّاءُ فَأخذنَاهُم

---

[93] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج:1، ص: 571-572.

[94] الأنبياء، 21/ 83-84.

[95] الزحيلي، ***التفسير المنير***، دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة: الثانية، 1418 هـ ج:17، ص: 110.

بَغتَةً وَهُم لَا يشعُرُونَ (95)﴾[96]. فالبأساء: الفقر، والضراء: المرض، وهذا معنى قول من قال البأساء في المال والضراء في النفس، وقيل: البأساء من البؤس وضيق العيش، والضراء من الضر وسوء الحال، وقيل: البأساء في الحرب، والضراء في الجدب، ابتلاهم الله تعالى بتلك الابتلاءات لكي يتضرعوا إليه، ويتوبوا عن فعل المعاصي[97].

وفي الآية خبر من الله سبحانه وتعالى، بأنه ما بعث نبيا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، في مدينة، أو بلد، إلا أخذ المكذبين من أهلها بِالمصائب في الأموال، والهموم، وشدائد الزمن، وَأخذهم بالمصائب في أبدانهم، كالأمراض والأسقام، ونحوها[98]. فكما أنَّ الله تعالى ابتلى الأمم السابقة، فإنه سيبتلي الأمم الأخرى إلى قيام الساعة، وهذه سنة الله تعالى في عباده.

---

[96] الأعراف،7/ 94-95.

[97] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج:2، ص: 216.

[98] ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام (المتوفى: 542هـ)، ***المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز***، ت ح: عبد السلام عبد الشافي محمد الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى -1422 هـ ج:2، ص:431.

الفصل الثاني

أنواع حكم الابتلاءات في القرآن الكريم

المبحث الأول: الحكمة من ابتلاء الكافرين بالسراء والضراء

لقد تحدث القرآن الكريم عن ابتلاءات الكافرين المختلفة، فبين الله تعالى أنه ابتلاهم بالبأساء والضراء، وابتلاهم بالنعم والخيرات، وابتلاهم بالخير والشر، وابتلاهم بالحسنات والسيئات، ولله تعالى حكمة بالغة في تلك الابتلاءات.

فالواجب على المؤمن أن ينظر إلى تلك الحكم، وأن يكون له منها نصيب من النفع والفائدة، وألا يقول هذا في الكافرين، وهذا في قوم فرعون، وهذا في قوم كذا وكذا، ثم يقوم عن القرآن، من غير فائدة في توجيه لسلوك، أو تقويم لخلق.

وقد بين البقاعي رحمه الله تعالى في نظم الدرر أن سبب عدم فهم كثير من الناس للقرآن الكريم، ظنهم أن المقصود من قصص الأولين، وأخبار المعاقبين والمثابين، من أهل الأديان والأمم السابقة، هو القصص والأخبار فقط، وليس الأمر كذلك! إنما المقصود منه التنبيه والاعتبار، والاتعاظ عند سماع أخبار أولئك السابقين وقصصهم، حتى لا يمر مشهد من المشاهد، أو حدث من الأحداث في قصص السابقين وأخبارهم، من عقاب أو ثواب، إلا ويجده منطبقاً عليه وعلى أفراد هذه الأمة، حتى يسمع المسلم القرآن الكريم، من أوله إلى آخره، فيراه منطبقاً على جميع الأمة، أئمتها، وهداتها، وضلالها؛ فحينئذ يفتح الله تعالى له باب فهم القرآن الكريم، ويضيء له النور والعلم، فيرزقه الله تعالى الخوف والخشية منه جل وعلا، فينطبق عليه المثل المشهور: "إياك أعني، واسمعي يَا جارة" ويفتح له أيضاً أبواب الترقي، في مدارج السالكين، والعارفين، فيترقى سمعه إلى أن يشعر بأن آيات القرآن الكريم تخاطبه، فيعتبر بكل آية يسمعها، ترغيباً كانت الآية أو ترهيباً، فيصبح حينئذ عارفاً بالله سبحانه وتعالى[99].

المطلب الأول: الحكمة من ابتلاء الكافرين بالسراء

إن الله تعالى لا يمنع أحداً من نعمه ورزقه، بل إنه تعالى يعطي الكافرين في الدنيا النعم الكثيرة، ويبسط لهم من الأرزاق والخيرات الكثير، كما هو الحال المشاهد، فكم نرى من الكافرين ممن يتقلب في نعم الله تعالى بالصحة والعافية، والأموال، والأولاد، والعقارات، والعلوم، وغير ذلك، كما قال الله

---

[99] البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط (المتوفى: 885هـ)، ***نظم الدرر في تناسب الآيات والسور***، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ج: 8، ص: 524-525.

تعالى:﴿ كلًّا نُمدُّ هَؤُلَاء وَهَؤلَاءِ مِن عَطاءِ ربِّكَ ومَا كانَ عَطاءُ رَبّكَ مَحظُورًا﴾[100]. فالله تعالى يمد بعطائه كلاً من الفريقين، الفريق الذي يريد الدنيا، والفريق الذي يريد الآخرة، ولا يمنع أحداً من عطائه ورزقه، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن أحوالهم تختلف، فالكافرون لا حظ لهم عند الله تعالى[101].

ولله تعالى في إنعامه على الكافرين بأنواع النعم حكم عديدة منها: الحكمة الأولى: الاستدراج ثم الاستئصال: إن الله تعالى يبتلي عباده المؤمنين والكافرين بما شاء، وقد يبتلي الكافرين بالرخاء والنعماء بعد الشدة والضيق، وما ذاك إلا لحكمة جليلة، وقد تقدم الحديث عن ابتلاء الكافرين بالشدائد، وذكرت طرفا من حكمته تعالى من خلال النصوص القرآنية، وتفسيرها، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَد أَرسَلنَا إِلَى أُممٍ مِن قَبلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأساءِ وَالضرَّاءِ لَعَلَّهُم يَتضَرّعُونَ (42) فَلَولَا إذ جَاءَهُم بَأسُنَا تَضَرعُوا وَلَكِن قَسَت قُلُوبُهُم وَزيَّنَ لَهمُ الشَّيطَانُ مَا كانُوا يَعمَلُونَ (43) فلَمَّا نسُوا مَا ذُكّرُوا بِهِ فَتَحنَا عَلَيهِمْ أَبوَابَ كلِّ شَيءٍ حَتى إذا فَرحُوا بِما أُوتوا أَخَذنَاهُم بَغتةً فإذَا هُم مُبلِسُونَ (44)﴾[102]. فالحكمة من ابتلائهم بالضراء-كما نصت عليها الآية الكريمة-ليتضرعوا إلى الله تعالى، ولكنَّهم لم يتضرعوا لقسوة قلوبهم، ولأنَّ الشيطان زين لهم أعمالهم، وبعد ذلك ابتلاهم الله تعالى بالنِّعم كما قال تعالى: ﴿فَلَما نَسُوا مَا ذُكِّروا بِه فَتَحنَا عَلَيهِم أَبوَابَ كلِّ شَيءٍ حَتى إذَا فَرحُوا بِما أُوتوا أَخَذنَاهُم بَغتَةً فَإذَا هُم مُبلِسُونَ﴾. ولنذكر أقوال المفسرين لنرى من خلالها الحكمة الإلهية في ابتلاء أولئك الكافرين بالنعم.

بين الله تعالى أنه ابتلى أولئك القوم، فأخذهم بالشدائد والنقم، ليتوجهوا إليه بالتضرع والتذلل والانكسار، إلا أنهم لم يتضرعوا، فنقلهم الله تعالى بعد الشدة والبأساء إلى السراء والنعيم، ففتح عليهم أبواب الخير والمسرَّة والسعادة، فظنوا أنهم فتح عليهم بها لاستحقاقهم، وكرامتهم عند الله تعالى، فلم ينفعهم حال السراء والنعيم أيضاً، فبان الأمر بأنهم قساة القلوب، لا يُرجى منهم خير، ولا رجوع إلى طريق الحق والهداية، فعندما لم ينفعهم حال الشدة، ولا حال الرخاء، أخذهم الله تعالى بأشد العذاب فجأة من حيث لا يشعرون، وإنما أخذهم الله تعالى في حالة النعيم والرخاء، ليزدادوا تحسراً وألماً على ما فاتهم[103]. وبين البيضاوي رحمه الله أنهم عندما نسوا ما ذكروا به، من البأساء، والضراء، ولم يتعظوا

---

[100] الإسراء، 17/ 20.

[101] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج:3، ص: 126.

[102] الأنعام، 6/ 42-44.

[103] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج:12، ص: 534-535.

بذلك، فتح الله تعالى عليهم أبواب النعيم، فامتحنهم بالشدة تارة، وبالرخاء تارة أخرى، لإلزامهم بالحجة، ومكراً بهم، حتى إذا أُعجبوا، وبطروا وسكروا بنعيمهم، أخذهم الله تعالى بغتة فإذا هم متحسرون[104].

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: من وسع الله عليه، فلم ير أنه يُمكر به، فلا رأيَ له، ومن قتر عليه، فلم ير أنه يُنظر له-يُمْهل-فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فلما نسُوا ما ذكِّروا به فتَحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء ...الآية﴾ وقال الحسن البصري رحمه الله: "مُكر بالقوم ورب الكعبة؛ أُعْطُوا حاجتهم، ثم أُخِذوا".

وذكر الإمام أحمد بسنده: عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا؛ على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فلما نسُوا ما ذكِّروا به فتحْنا عليهمْ أبوابَ كلِّ شيءٍ ...الآية﴾[105].

والآيات التي تتحدث عن استدراج الكفار والفاسقين كثيرة جداً، وقد حصل المقصود ببيان الحكمة من ابتلاء الكافرين بالنعم الكثيرة، والمتنوعة، من الأموال الأولاد، ورغد العيش، وغير ذلك.

ومنه قوله تعالى أيضاً: ﴿فَذَرْنِي ومَن يُكَذّبُ بِهَذا الْحديثِ سَنَستَدرِجُهُم من حَيث لَا يَعلَمونَ (44) وأُملِي لَهم إنَّ كيدِي متينٌ (45)﴾[106]. والاستدراج استنزال العاصي، بالنعم نحو الهلاك درجة فدرجة، إلى أن يتورط فيه. فمعنى استدراج الله تعالى، الكافرين والعصاة: أن يرزقهم النعمة والصحة، فيستخدمون نعم الله تعالى ورزقه وسيلةً للازدياد من المعاصي والكفر، وهم لا يعلمون أن هذا الإنعام استدراج لهم إلى ما فيه هلاكهم، واستئصالهم، لأنهم يظنون أنهم أفضل من المؤمنين، وهذا هو سبب هلاكهم، وإنما يملي الله تعالى للكافرين والعصاة، وينعم عليهم، بالصحة، والسعة في الرزق، وإطالة العمر، والإحسان الذي يستوجب الشكر لله والطاعة، إلا أنهم جعلوه سببا من أسباب التوغل في الكفر بإرادتهم واختيارهم، فيأخذهم الله تعالى بعد ذلك بأشد أنواع العذاب والاستئصال[107].

وقد بين الله تعالى ذلك في غير موضع من القرآن الكريم، فمنه قوله سبحانه: ﴿أَيَحسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُم بِه مِن مالٍ وبَنِينَ (55) نُسارِعُ لَهُم في الْخَيرَات بَل لَا يَشعُرُون (56)﴾[108]. يعني: أيظن أولئك المغرورون، أن عطاءنا لهم من أموال وأولاد ونعيمٍ، تكريماً منَّا لهم، وبياناً لمعزتهم عندنا، كلا بل إن

---

[104] البيضاوي، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ج 2، ص 162.

[105] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج: 3، ص:256.

[106] القلم، 68/ 44-45.

[107] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 4، ص: 595-596.

[108] المؤمنون، 23/ 55-56.

الأمر ليس كذلك، إنهم مخطئون وخائبون في رجائهم، لأننا نستدرجهم، ونملي لهم؛ ولكنهم لا يشعرون بذلك[109]. كما قال تعالى: ﴿فَلا تُعجبْكَ أَموالُهُم وَلا أَولادُهُم إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا في الحَيَاةِ الدُّنيَا وَتَزهَقَ أَنفُسُهُم وَهُم كَافِرون﴾[110]. وقال تعالى: ﴿إِنَّما نُملِي لَهُم لِيَزدَادُوا إِثمًا وَلَهُم عذَابٌ مُهينٌ﴾[111].والآيات كثيرة في هذا الشأن.

وقال قتادة رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (56)﴾[112]. مكر والله بالقوم، في أموالهم، وأولادهم. يا ابن آدم: فلا تعتبر الناس بأموالهم، وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان، والعمل الصالح. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه...الحديث"[113].

وذكر الله تعالى في آية أخرى أن العطاء قد يكون فتنة للإنسان واستدراجاً، فقال جل وعلا: ﴿فَإِذا مسَّ الْإِنسانَ ضُرٌّ دعانا ثمَّ إِذا خَوَّلناهُ نِعمَةً منَّا قالَ إِنَّما أُوتيتُهُ على عِلمٍ بَل هيَ فِتنَةٌ وَلكنَّ أَكثَرَهُم لا يَعلَمُونَ (49) قَد قالَها الَّذينَ مِن قَبلِهِم فَما أَغنى عَنهُم ما كانوا يَكسِبُونَ (50) فأَصَابَهُم سَيِّئَاتُ مَا كَسبُوا والَّذينَ ظلَمُوا مِن هَؤلَاءِ سيُصِيبُهُم سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعجِزِينَ (51)﴾[114]. معنى هذه الآيات: أن الإنسان إذا مسته شدة، أو ضر، دعانا لنكشف عنه تلك الشدة وذلك الضُّر، وإذا أعطيناه نعمة، قال هذا عطاء من الله لي لاستحقاقي وتكريمي. أو لأن الله تعالى يعلم ما عندي من خير فلذلك أعطاني، وليس كما يتوهم ويظن ذلك المفتون، إنما ذلك العطاء، وتلك النعمة فتنة واستدراج وامتحان واختبار، من الله سبحانه وتعالى، ولكن هؤلاء المفتونون لا يعلمون أن ذلك استدراج واختبار.

---

[109] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج:5، ص: 479.

[110] التوبة، 9/ 55.

[111] آل عمران، 3/ 178.

[112] المؤمنون، 23/ 55-56.

[113] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج: 5، ص: 479-480.

[114] الزمر، 39/ 49-51

وقارون أيضاً قال تلك المقالة المشهورة ﴿إِنَّما أُوتيتُهُ علَى عِلمٍ عِندِي﴾[115]. فما أغنى عنهم كفرهم من عذاب الله تعالى شيئا، فأصابهم عذاب الله، وسيصيب أمثالهم أيضاً، وما هم بفائتين، لأن مصيرهم ومرجعهم إلى الله سبحانه وتعالى[116].

فالمؤمن الصادق يأخذ مما سبق عبرة وموعظة بأن يقابل نعم الله تعالى بالحمد والشكر، فكل نعمة جديدة من الله تعالى يقابلها العبد الصالح بطاعة وعبادة جديدة، والاعتراف بالفضل لله تعالى، وأما أهل الغفلة فإنهم بعيدون عن هذا المنهج، لأنهم ينشغلون بالنعمة عن منعمها، ويقصرون عن شكر الله تعالى، وإذا زادت الغفلة وعصوا ربهم بتلك النعم، فلا بد أنهم مستدرَجون من حيث لا يعلمون، ولخطر هذا السلوك خشي العارفون والصالحون على أنفسهم-لكمال إيمانهم وخوفهم من الله تعالى-من الاستدراج عند توالي نعم الله تعالى عليهم، ومن أولئك الصحابة رضي الله عنهم، حتى إنَّ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال عندما وصلت إليه كنوز كسرى:" اللهم إني أعوذ بك، أن أكون مستدرَجاً". فإني أسمعك تقول: ﴿سَنَستَدرِجُهُم مِّن حَيثُ لَا يَعلَمُونَ﴾. وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: كم مستدرَج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالستر عليه[117].

وشكر الله سبحانه وتعالى على نعمه يكون بالعمل واللسان والقلب، قال الله تعالى: ﴿يَعمَلُونَ لهُ مَا يَشاءُ مِن مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وجِفانٍ كالجَوابِ وقُدُورٍ راسِياتٍ اعمَلُوا آلَ دَاوودَ شُكرًا وَقَلِيلٌ مِن عِبادِيَ الشَّكورُ (13)﴾[118]. أي اعملوا يا آل داوود، على ما أنعم به عليكم من النعم الدينية، والدنيوية، وفي هذه الآية دلالة على أنَّ شكر الله تعالى يكون بالأفعال، ويكون بالأقوال، ويكون بالنية. فأداء الصلوات شكر، والصيام فرضاً أو نفلاً شكر، وأفعال الخير شكر. وقول الإنسان الحمد لله شكر.

وعن القرظي رحمه الله تعالى أنه قال في الشكر: هو تقوى الله تعالى، والعمل الصالح، وكان آل داود عليه الصلاة والسلام قائمين بالشكر لله تعالى قولاً وفعلاً. وقال البناني رحمه الله تعالى: كان داود عليه الصلاة والسلام، قد جزأ الصلاة على أهله، وولده ونسائه، فلا تأتي ساعة من ليل ونهار؛ إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، فغمرهم قوله تعالى: ﴿اعمَلُوا آلَ دَاوودَ شُكرًا وَقَلِيلٌ مِن عِبادِيَ

---

[115] القصص، 28/ 78.

[116] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج :4، ص: 93.

[117] زيدان، عبد الكريم، ***السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد***، مؤسسة الرسالة بيروت: الطبعة الأولى، 1413هـ-1993م، ص: 265.

[118] سبأ، 34/ 13.

الشَّكورُ﴾. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود-عليه الصلاة والسلام-كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه. وأحب الصيام إلى الله، صيام داود، كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً...الحديث" وقد روى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قالت أم سليمان بن داود لسليمان عليهما الصلاة والسلام: يا بني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرا يوم القيامة. وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِن عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. بيان لما عليه واقع الناس، من قلة الشاكرين لله تعالى[119] فإن الكثير يغفلون عن حقيقة الشكر لله تعالى، فينشغلون بالنعمة عن المنعم سبحانه وتعالى. فالشكر إذاً يكون بالقول والفعل، ويكون بالقلب بالرضا عن الله تعالى، والشعور بالتقصير الدائم، أمام نعم الله سبحانه تعالى.

الحكمة الثانية: النعيم الدنيوي للكافرين جزاء عاجل على أعمالهم البارَّة: إن الله سبحانه وتعالى لا يضيع من عمل الإنسان مثقال ذرة، وسيجازيه على ما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، لأنه تعالى هو العدل، لا يظلم الناس شيئاً، وبما أن الكافرين لا يؤمنون بالله تعالى ولا يؤمنون بيوم القيامة، ويجحدون البعث والنشور، ليس لهم في الآخرة نصيب وجزاء، ولكن الله تعالى يجازيهم على حسن أعمالهم الحسنة في الدنيا؛ كأن يكون لهم أعمال حسنة من صلة للرحم، والإحسان إلى الفقراء والأيتام، وحسنِ الجوار وحسنِ معاملتهم للآخرين، وغير ذلك من الأعمال الطيبة والأخلاق الحسنة. فالله تعالى يجازي هؤلاء الكفار بالعطاء الدنيوي، من صحة وعافية، ومال، وأولاد، وغنى، وغير ذلك، جزاء على أعمالهم.

وقال الله تعالى: ﴿مَن كانَ يُريدُ الحَياةَ الدُّنيا وَزينَتها نُوفِّ إِلَيهِم أَعمَالَهُم فِيها وَهُم فِيها لَا يُبخَسونَ﴾[120]. عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: ثوابَ ما عملوا في الدنيا، من خير أعطوه في الدنيا؛ وليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صَنَعوا فيها[121]. وقال الضحاك رحمه الله تعالى: من عمل عملاً صالحًا، في غير تقوى -يعني وهو من أهل الشرك -أعطي على ذلك أجراً في الدنيا، يصل رحماً؛ يعطي سائلاً، يرحم مضطرًّا. في نحو هذا من أعمال البرّ؛ يعجل الله له ثواب عمله في الدنيا، ويُوسّع عليه في المعيشة، والرزق، ويقرُّ عينه فيما خَوَّلَه-أعطاه-ويدفع عنه من مكاره الدنيا. في نحو

---

[119] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج:6، ص: 500 -501.

[120] هود، 11/ 15.

[121] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج: 15، ص: 263.

هذا، وليس له في الآخرة من نصيب[122]، وهذا على قول من قال بأنَّ الآية خاصة بالكافرين، ولا مانع أن يكون المراد بها الكافرين والمؤمنين الذين لا يبتغون بأعمالهم وجه الله تعالى-فعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة، يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يجزى بها»[123]. قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث: أجمع العلماء على أن الكافر الذي مات على كفره، لا ثواب له في الآخرة، ولا يجازى في الآخرة بشيء من عمله في الدنيا؛ إن كان متقرباً بها إلى الله تعالى، وصرح في هذا الحديث؛ بأنَّ الكافر يُطْعَم في الدنيا، بما عمله من حسنات، أي بما فعله متقربا به إلى الله تعالى، ولكن لا تفتقر صحة هذا العمل إلى نية، كصلة الرحم، والعتق والصدقة والضيافة، وتسهيل الخيرات، ونحوها[124]. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن يَّعمَل مثْقَالَ ذرَّةٍ خَيرًا يَرهُ (7) وَمَن يَّعمَلْ مِثقالَ ذرَّةٍ شرًّا يرَهُ (8)﴾[125]. كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: من يعمل من الكفار، مثقال ذرة خيراً يره في الدنيا، ولا يثاب عليه في الآخرة[126]. وقال محمد بن كعب رحمه الله تعالى: في هذه الآية: ﴿فَمَن يَّعمَل مِثْقالَ ذرَّةٍ خَيرًا يّرَهُ﴾ من كافر: يرى ثوابه في الدنيا، في نفسه، وأهله وماله، وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير ﴿وَمَن يَّعمَلْ مِثقَالَ ذرَّةٍ شرًّا يرَهُ﴾ من مؤمن: يرى عقوبته في الدنيا، في نفسه، وماله، وأهله، وولده، حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله شر[127].

---

[122] الطبري، ***المصدر نفسه***، ج: 15، ص: 265.

[123] مسلم بن الحجاج النيسابوري، أبو الحسين القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، ***المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم***، ت ح: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ج 4، ص: 2162، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا الحديث، رقم الحديث 56/ 2808.

[124] النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، ***المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج***، دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثانية، 1392 ج: 17، ص: 150.

[125] الزلزلة، 99/ 7-8.

[126] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج: 20. ص: 150.

[127] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج: 5. ص: 293-294.

المطلب الثاني: الحكمة من ابتلاء الكافرين بالضراء

الحكمة الأولى: الشدائد والضراء عقوبة للكافرين، على الكفر وجحود النعمة: إن الله تعالى يعاقب الكافرين في الحياة الدنيا، إذا تمادوا بالكفر والعناد، ويزيل نعمهم ويبدلها إذا جحد أولئك الكفار نعم الله تعالى عليهم، والآيات في كتاب الله تعالى كثيرة ومنها الآيات التي تحدثت عن آل فرعون، والآيات التي تحدثت عن قوم سبأ، وبدراسة هذين الموقفين نقف على حكمة الله تعالى في ابتلاءاتهم:

أما الآيات التي تحدثت عن آل فرعون قال الله تعالى: ﴿وَلَقَد أَخَذنَا آلَ فِرعَونَ بِالسِّنينَ وَنَقصٍ مِنَ الثَّمراتِ لَعلَّهُم يَذَّكَّرونَ (130) فَإِذا جَاءَتهُمُ الحسَنَةُ قالُوا لَنَا هَذهِ وَإِن تُصِبهُم سَيِّئَةٌ يطَّيَّروا بِموسى وَمَن مَعهُ أَلَا إِنَّما طَائِرُهُم عِندَ اللَّه وَلَكنَّ أَكثَرَهُم لَا يَعلَمُونَ (131) وقَالُوا مَهمَا تَأتِنَا بِهِ مِن آيةٍ لِتَسحَرَنَا بهَا فَما نَحنُ لَكَ بِمُؤمِنينَ (132) فَأَرسَلْنَا عَلَيهِمُ الطُّوفانَ وَالجَرَادَ وَالقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ والدَّمَ آياتٍ مُفصَّلَاتٍ فَاستَكبَرُوا وكَانُوا قَومًا مُجرِمِينَ (133) ولَمَّا وَقعَ عَلَيهِمُ الرِّجزُ قالُوا يَا مُوسَى ادعُ لَنا ربَّكَ بِما عَهدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفتَ عنَّا الرِّجزَ لَنُؤمِنَنَّ لَك وَلَنُرسِلَنَّ معَكَ بَنِي إِسرَائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفنَا عَنهُمُ الرِّجزَ إِلَى أَجلٍ هُم بَالِغوهُ إِذَا هُم يَنكُثُونَ (135) فَانتَقَمنَا مِنهُم فَأَغرَقْنَاهُم فِي اليَمِّ بِأَنَّهُم كَذَّبوا بآيَاتِنَا وكَانُوا عَنهَا غَافِلِينَ (136)﴾[128]. فهذه الآيات توضح ابتلاء آل فرعون واختبارهم وامتحناهم، بالجوع وقلة الثمار والزروع، فكانت شجرة النخل لا تحمل إلا تمرة واحدة[129].

وكان من شأن هذا الابتلاء أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام دعا على فرعون، فأرسل الله تعالى عليهم مطراً من السماء، حتى ملأ بيوتهم، فطلبوا من موسى عليه الصلاة والسلام أن يدعو لهم لكشف هذا البلاء، فدعا لهم، فكشف الله تعالى عنهم ذلك البلاء، وأنعم الله تعالى عليهم بالخير والزروع والثمار، إلا أنهم جحدوا نعم الله تعالى عليهم، فبعث الله تعالى عليهم الجراد، فأكل زروعهم وثمارهم، فلجأوا إلى موسى عليه الصلاة والسلام ليكشف الله تعالى عنهم البلاء، فدعا لهم فكُشِف البلاء عنهم، لكنهم أصروا على جحودهم، فبعث الله تعالى عليهم القُمَّل فلجأوا إلى موسى عليه الصلاة والسلام، فدعا الله تعالى لهم فكشفه عنهم، ولكنهم أصرُّوا بعد ذلك كعادتهم، فأرسل الله تعالى عليهم الضفادع فأفسدت عليهمْ عيشَهم، وملأتْ بيوتهم وقدور أطعمتهم، فلجأوا إلى موسى عليه الصلاة والسلام فدعا الله تعالى لهم فكشف عنهم بلاء الضفادع، ولكنهم أصروا أيضا على كفرهم وعنادهم، فبعث الله تعالى عليهم الدم، فصار النيل دماً، فقالوا لموسى ادع الله تعالى ليكشف عنا عذا البلاء، ونعدك بالإيمان، ونعدك بأن

---

[128] الأعراف،7/ 130-136.

[129] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج: 3، ص: 460.

نرسل معك بني إسرائيل، فكشف الله تعالى عنهم ذلك البلاء؛ إلا أنهم لم يؤمنوا[130]. فالله تعالى ينعم على الكافرين بأنواع كثيرة من النعم، ليس استحقاقاً، وإنما ابتلاء واختباراً لهم، وقد يكون تذكيراً للكافرين بأن المنعم والرَّازق هو الله رب العالمين، وهذا الإله العظيم، والمنعم الكريم حريٌّ بأن يوحِّده عبادُه ويؤمنوا به، ويشكروه على نعمائه.

فإذا لم يشكر النَّاس ربهم فإن الله تعالى سيعذبهم، ويزيل نعمه عنهم، ولنا مثل عظيم من كتاب الله تعالى كيف أنه سبحانه وتعالى ابتلى قوم سبأ بما أنعمه عليهم من الخيرات والبركات، ودعاهم لتوحيده وعبادته وشكره إلا أنهم لم ينجحوا في هذا الامتحان الإلهي على نعمه، فقابلوا ربهم بالكفر والطغيان، وقابلوا نعمه بالجحود والكفران. قال الله تعالى واصفاً حالهم، وضارباً بهم مثلا لمن بعدهم: ﴿لَقَد كانَ لِسَبإٍ في مَسكَنِهِم آيةٌ جنَّتانِ عَن يَمينٍ وَشِمالٍ كُلوا مِن رِزقِ ربِّكُم وَاشكُروا لهُ بَلدَةٌ طَيِّبةٌ وَربٌّ غفُورٌ (15) فأَعرَضُوا فَأَرسَلنَا عَلَيهِم سَيلَ العَرِمِ وبدَّلْناهُم بِجَنَّتَيهِم جَنَّتَينِ ذَواتَي أُكلٍ خَمطٍ وَأَثلٍ وَشَيءٍ مِن سِدرٍ قَليلٍ (16) ذَلكَ جَزَينَاهُم بِما كَفَروا وَهَل نُجازِي إِلَّا الكَفُورَ (17) وَجعَلنَا بَينَهُم وَبَينَ القُرَى الَّتِي بَارَكنَا فِيها قُرًى ظَاهرةً وَقَدَّرنَا فِيها السَّيرَ سِيروا فِيها لَيالِي وَأَيَّاما آمنِينَ (18) فَقالُوا رَبَّنا بَاعِد بَينَ أَسفَارِنَا وَظلَمُوا أَنفُسَهُم فَجَعَلناهُم أَحَاديثَ وَمَزَّقنَاهُم كُلَّ مُمزَّقٍ إنَّ في ذَلكَ لَآياتٍ لكُلِّ صبَّارٍ شكُورٍ (19)﴾[131]. ففي هذه الآيات تحذير من أمرين خطيرين، الأمر الأول: الشرك بالله تعالى، والثاني: جحود النعمة، لذا حذر الله تعالى أهل مكة من جحود نعمة الوحي، ووعظهم وذكرهم بقوم سبأ، وتوعد أهل مكة بعذاب مثل عذاب قوم سبأ، وقوم سبأ هم أهل المدينة اليمنيَّة، التي كانت تسكنُ في أرضٍ ميَّتة، فأحياها الله سبحانه وتعالى بالبساتين، عن يمين الوادي وشماله، ورزقهم من جميع الثمار، وجمال الطبيعة، والهواء والمناخ، وهو سبحانه وتعالى غفور لجميع الذنوب، إلا أنهم أعرضوا وجحدوا نعمه، فكفروا بالله تعالى وعبدوا الشمس، فأرسل الله تعالى عليهم سيلاً عظيماً؛ حطَّم سدهم وأغرق بساتينهم، ودمَّرَ بيوتهم، وأبدلهم بها بساتين لا خير فيها ذات ثمرٍ مرٍّ، وطرفاء، وأشجار ذات شوك كثير، فكان هذا البلاء جزاء على جحودهم وكفرهم، وليس هذا فقط؛ بل إن الله سبحانه وتعالى أنعم عليهم نعمة تقَارُبِ القرى من بعضها البعض، فكان المسافر من اليمن إلى الشام لا يشعر بطول سفر، ولا خوف

---

[130] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج 2، ص 223-226.

[131] سبأ، 15/34-19.

في طريق، فجحدوا هذه النعمة، وتمنوا طول الأسفار وتباعد الديار، تكبراً برواحلهم على الفقراء والمساكين، وبطراً، فعاقبهم الله تعالى على ذلك فباعد ديارهم عن بعضها وفرقهم في البلاد [132].

فقوم سبأ ابتلاهم الله تعالى واختبرهم بما أنعم عليهم من الجنتين، والقرى المتقاربة من بعضها، ليشكروا المنعم جل وعلا، ويوحدوه ويؤمنوا به؛ ولكنهم بطروا النعمة وجحدوها وكفروا بالله تعالى، وكذبوا أنبياءه، فكانوا أمام هذا الابتلاء في خسارة عظيمة.

الحكمة الثانية: الشدائد والضراء تذكر بنعم الله تعالى: قال الله تعالى:﴿ وَلَقَد أَخَذنَا آل فِرعَونَ بِالسّنِينَ وَنَقصٍ منَ الثَّمراتِ لَعلَّهُم يَذَّكَّرونَ﴾[133]. بين الله تعالى في الآية أن الحكمة من البلاء الذي أنزله الله تعالى بآل فرعون هي تذكُّر فضل الله تعالى، وإنعامه عليهم، فيرجعوا عن كفرهم إلى التوحيد والإيمان، فهذه سنة الله تعالى في عباده، فإنه يبتليهم بالمصائب، والنقم ليزدجروا عن غيهم ويتذكروا نعم الله تعالى عليهم، لأن الشدائد والمصائب تدفع الإنسان إلى الخوف من الله تعالى، والإنابة إليه، وطلب الرحمة منه سبحانه وتعالى، فيكون ذلك الابتلاء سبباً من أسباب رجوعهم إلى خالقهم سبحانه وتعالى[134]. وقال النسفي رحمه الله: ليتعظوا بهذا البلاء، وينتبهوا أنه كان بسبب إصرارهم على الكفر بالله سبحانه وتعالى، فالناس في حال الابتلاء والشدة يكونون أرقّ قلوباً[135]. وقال الزمخشريُّ رحمه الله: ليتنبهوا على أن ذلك البلاء؛ كان لإصرارهم على الكفر، وتكذيبهم لآيات الله سبحانه وتعالى، ولأن الناس في حال الشدة والكرب، يكونون أكثر خشوعاً، وأرق قلوباً، وأكثر تضرعاً إلى الله تعالى[136].

الحكمة الثالثة: أن الشدائد والضراء تردُّ المعرضين إلى الله تعالى: إن الله تعالى يبتلي الكافرين بالضراء ليرجعوا إلى الله تعالى بالتوبة من الكفر والرجوع إليه بالتوحيد والإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِن آيةٍ إِلَّا هِيَ أَكبَرُ مِن أُختِهَا وَأَخَذنَاهُم بِالعَذابِ لَعَلَّهُم يَرجِعونَ﴾[137]. يذكر الله سبحانه وتعالى

---

[132] الزحيلي، وهبة بن مصطفى، ***التفسير الوسيط***، دار الفكر – دمشق الطبعة: الأولى -1422 هـ، ج: 3، ص: 2104.

[133] الأعراف،7/ 130.

[134] ابن حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان (المتوفى: 745هـ)، ***البحر المحيط في التفسير***، ت ح: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: 1420 هـ ج 5، ص: 147.

[135] النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (المتوفى: 710هـ)، ***مدارك التنزيل وحقائق التأويل***، ت ح: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1998 م ج: 1، ص: 597.

[136] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 2، ص 144.

[137] الزخرف، 43/ 48.

الابتلاءات الكثيرة التي أنزلها بفرعون وقومه، من نقص الثمرات، والجراد، وغيرها، وأنه سبحانه وتعالى لم ينزل هذه الابتلاءات إلا ليرجعوا عن كفرهم إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وتوحيده وعبادته وطاعته، وليتوبوا عن معاصيهم وكفرهم[138]. وقال الله تعالى أيضاً: ﴿وأَمَّا الَّذينَ فسَقُوا فمَأْوَاهمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَن يَخرُجُوا مِنهَا أُعيدُوا فيهَا وَقيلَ لَهُم ذُوقوا عذَابَ النَّار الَّذي كُنتُم بهِ تُكَذّبُونَ (20) وَلَنُذيقَنَّهُم منَ الْعذَابِ الأَدنَى دُونَ العَذَابِ الأَكبَرِ لَعَلَّهُم يَرجِعونَ (21)﴾[139]. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: العذاب الأدنى، مصائب الدنيا، وأسقامها[140]. فالعذاب الأدنى ما يصيب المستحقين، من مصائب وابتلاءات، في الأنفس والأموال والأولاد وما يصيبه من مرض وسقم ووجع وغير ذلك[141]. والحكمة من نزول العذاب بهم، جلية في قوله تعالى "لعلهم يرجعون"، أي ليرجعوا عن الكفر بالله تعالى، ومعصيته، إلى التوحيد والإيمان والطاعة. وعن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى " ولنذيقنهم من العذاب الأدنى" قال: سنون اصابتهم، لعلهم يتوبون. وعن أبي إدريس الخوْلاني رضي الله عنه قال: سألت عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن قول الله تعالى "ولنذيقنَّهم من العذاب الأدنى، دون العذاب الأكبر" فقال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها، فقال: هي المصائب، والاسقام والانصاب، عذاب للمسرف في الدنيا، دون عذاب الآخرة، قلتُ: يا رسول الله فما هي لنا؟ قال: زكاة وطهور. وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ولنذيقنهم من العذاب الأدنى قال: مصائب الدنيا وأسقامها وبلاياها يبتلي الله بها العباد كي يتوبوا. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن إبراهيم رضي الله عنه "ولنذيقنَّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر" قال: أشياء يصابون بها في الدنيا ليتوبوا[142].

الحكمة الرابعة: الابتلاء بالشدة ليتضرع أهل الابتلاء إلى الله تعالى: لقد ابتلى الله تعالى الكافرين، بالنعماء والسراء، وابتلاهم أيضاً بالبأساء والضراء، ولكل ابتلاء حكمة، وبينت بعض آيات

---

[138] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج: 21، ص: 614-615

[139] السجدة، 32/20-21.

[140] الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي المعروف بالخازن (المتوفى: 741هـ)، ***لباب التأويل في معاني التنزيل***، ت ح وتصحيح، محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى -1415 هـ ج:2، ص: 406.

[141] ابن جزي الكلبي، أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله (المتوفى: 741هـ)، ***التسهيل لعلوم التنزيل***، ت ح: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى -1416 هـ ج:2، ص: 143.

[142] السيوطي، الدر المنثور، ج:6، ص: 554.

القرآن الكريم أنَّ الحكمة من ابتلاء الكافرين بالبأساء والضراء لكي يرجعوا إلى الله تعالى بالتضرع والإنابة، وجاء اللفظ القرآني مبيناً هذه الحكمة بلفظين هما (يضَّرَّعون) و(يَتَضَرَّعُون) وسأتناول هذين اللفظين بالحديث، وفق ما قاله المفسرون. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَد أَرسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُم يَتَضرَّعونَ (42) فَلَولَا إِذ جَاءهُم بَأسُنَا تَضرَّعُوا وَلَكِنْ قَستْ قُلُوبُهُم وَزَيَّن لَهمُ الشَّيطَانُ ما كَانوا يَعمَلُونَ (43) فلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحنَا عَلَيهِمْ أَبوَابَ كلِّ شَيءٍ حتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوْتُوا أَخَذنَاهُم بَغتَةً فإِذَا هُم مُبلِسُونَ (44)﴾[143]. يذكر الله سبحانه وتعالى للرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم سنته سبحانه في الأمم السابقة التي كذبت الرسل عليهم الصلاة والسلام، حين ابتلاهم بالشدائد والمصائب، من ضيق المعايش، والجوع والفقر، والأمراض والعلل. وأنه سبحانه وتعالى ابتلاهم بذلك ليتضرعوا وينيبوا إليه، ويخشعوا ويستكينوا، وكأن الله تعالى يقول للكافرين عند ابتلائهم، اذهبوا إلى من تؤمنون به من دوني، فليكشف عنكم ما نزل بكم من الشدة والضر، فإنه لا يستطيع ذلك، ولو رجعتم إلينا بالذل والافتقار والعبودية لكشفنا عنكم ما نزل بكم[144].

فبعد أن ابتلى الله سبحانه وتعالى الأمم الكافرة بالبأساء والضراء وكانت حكمة الابتلاء أن يتضرَّعوا، ويرجعوا إلى الله تعالى بالإيمان والذلِّ والانكسار؛ ولكن هل انزجروا بتلك الابتلاءات ورجعوا إلى الله تعالى، وذلت قلوبهم له عز وجل، أم لم يرجعوا؟ وجواب ذلك ما ذكرته الآية الكريمة الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَولَا إِذ جَاءهُم بَأسُنَا تَضرَّعُوا وَلَكِنْ قَستْ قُلُوبُهُم وَزَيَّن لَهمُ الشَّيطَانُ ما كَانوا يَعمَلُونَ﴾[145]. فقد بينت الآية الكريمة، أن هؤلاء الكفار لم يتضرعوا عند نزول البلاء، ولم يذلوا وينكسروا إلى الله تعالى، لأن قلوبهم قست، فأصبحت كالحجارة، أو أشد قسوة، فلم تتأثر بالشدائد والابتلاءات والمصائب، ولم تتعظ بالبلايا والمحن، بل زين لهم الشيطان أعمالهم، فزادهم غيَّاً إلى غيهم[146]. ففي الآية عتاب لمن ترك الدعاء، ولم يتضرَّع. أو أنها تصف الذين تضرعوا من دون إخلاص لله عز وجل، أو أنهم تضرعوا لحظة نزول العذاب فقط، والتضرع في هذه الأحوال غير نافع. لأن الدعاء مأمور به في كل حال، في الرخاء والشدة، ولكن قلوب أولئك بالكفر تصلبت، وأصروا على

---

[143] الأنعام، 6/ 42-44.

[144] الشعراوي، محمد متولي، ***تفسير الشعراوي***، مطابع أخبار اليوم (ليس على الكتاب الأصل -المطبوع -أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام 1997 م) ج: 6، ص: 3614

[145] الأنعام، 6/ 43.

[146] الحجازي، محمد محمود، ***التفسير الواضح***، دار الجيل الجديد – بيروت الطبعة: العاشرة، 1413 هـ، ج: 1، ص: 610.

معصية ربِّهم. وأغواهم الشيطان بالمعاصي، وحملهم على فعلها[147]. فلو أن هؤلاء الكفار لجأوا إلى الله تعالى بالتضرع والابتهال، والتملق والإنابة، لكشف عنهم البلاء والمحن، وأكرمهم بمننه وفضله، ولكن منعهم الخذلان عن ذلك فأصروا على كفرهم وتمردهم، فقست قلوبهم فأوصلتهم إلى أسباب الشقاء[148]. وليس لهم عذر، على ترك الدعاء، والتضرع، إلا أنهم عاندوا وقست قلوبهم، فأعجبوا بما زين لهم الشيطان من أعمال فكانوا من الخاسرين[149].

ثم إن بعض الآيات القرآنية تثبت دعاء الأقوام وتضرعهم عند نزول البلاء، كما قال الله تعالى: ﴿قُل أَرَأَيتَكُم إِن أَتَاكُم عَذابُ اللَّهِ أَو أَتَتكُمُ السَّاعةُ أَغَيرَ اللَّه تَدعُونَ إِن كُنْتُم صَادقِينَ (40) بَل إِيَّاهُ تَدعُونَ فَيَكشِفُ مَا تَدعُونَ إِلَيهِ إِن شَاءَ وَتَنسَونَ مَا تُشرِكُونَ (41)﴾[150]. وبعضها ينفيه، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَد أَرسلْنَا إِلَى أُممٍ مِن قَبلِكَ فَأَخَذناهُم بِالْبَأسَاءِ وَالضَّراءِ لَعلَّهُم يَتضَرَّعونَ (42) فَلَولَا إِذ جَاءَهُم بَأسُنا تَضرَّعوا وَلَكِن قسَت قُلُوبُهُم وَزيَّنَ لَهمُ الشَّيطَانُ ما كانُوا يَعمَلونَ (43) فَلَما نَسوا مَا ذُكِّروا بِهِ فَتَحنَا عَلَيهِم أَبوَاب كلِّ شَيءٍ حَتّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتوا أَخَذنَاهُم بَغتَةً فإِذَا هُم مُبلِسونَ (44)﴾[151]. فالآية الأولى تدل على أن الكفار تضرعوا، والآية الثانية تدل على أنهم لم يتضرعوا، فكيف التوفيق بين هاتين الآيتين؟ والجواب على هذا التساؤل هو ما قاله الرازي رحمه الله في تفسيره، وخلاصة ما قاله جوابين: الجواب الأول: أن الأقوام في الآية الأولى هم غير الأقوام في الآية الثانية. والجواب الثاني: أن أولئك تضرعوا لإزالة البلاء، ولم يتضرعوا بإخلاص لله سبحانه وتعالى، ولهذا الفرق أثبتت الآية الأولى التضرع، ونفته الآية الثانية[152].

وقد جاء مثل هذا في غير موضع من كتاب الله تعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿وإِذَا مسَّكُمُ الضُّرُّ في الْبَحرِ ضلَّ مَن تَدعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فلَمّا نَجَّاكُم إِلَى البَرِّ أَعرَضتُم وكَانَ الإِنسَانُ كفُورًا (67) أَفأَمِنتُم أَن يَخسِفَ بِكُم جانِبَ البَرِّ أَو يُرسِلَ عَلَيكُم حَاصبًا ثمَّ لَا تجِدُوا لَكُم وَكِيلًا (68) أَم أَمِنْتُم أَن يُعِيدَكُم فِيه تَارةً

---

[147] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج 6، ص: 425.

[148] القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465هـ)، ***لطائف الإشارات***، ت ح: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة، ج 1، ص 472.

[149] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 2، ص:23.

[150] الأنعام، 6/ 40-41.

[151] الأنعام، 6/ 42-44.

[152] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج: 12، ص:534

أُخرَى فَيُرسِلَ عَلَيكُم قَاصِفًا منَ الريحِ فَيُغرِقَكُم بِمَا كَفَرتُم ثمَّ لا تجِدُوا لَكُم عَلَينَا بهِ تبيعًا (69)﴾[153]. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[154]. أي ما أرسل الله تعالى في قرية من نبي؛ إلا ابتلى أهلها بالفقر والبؤس، والمرض، والضر، لأنهم استكبروا عن اتباع نبيهم، لعلهم يضَّرعون، أي: ليتضرعوا لله، ويتذللوا إلى جنابه، ويحطوا أردية الفخر والاستكبار[155]. ويخشعوا له سبحانه، ويتوجهوا إليه بالدعاء لكشف ما نزل بهم[156]. ويخضعوا وينقادوا لأمره عز وجل[157]. فالابتلاءات بالشدائد وخاصة الجوع، تزيل قسوة القلوب واستكبارها، وتورثها التواضع والذل والانكسار، والانقياد إلى الله جل وعلا وهذا في حق أكثر العباد[158].

فما ابتلى الله عز وجل به الغافلين العصاة من الشدائد، ليس تسلية، ولا تشفياً من الله تعالى-تعالى الله عن ذلك-وإنما من أجل أن ترق القلوب القاسية الجامدة، وتعتبر المشاعر المتحجِّرة، ويتوجه العباد الضعفاء إلى خالقهم سبحانه وتعالى، ويتضرعوا إليه، ويستغفرونه عما بدر منهم من خطايا[159].

فائدة: جاء اللفظ القرآني في بيان الحكمة من ابتلاء الكافرين بالبأساء والضراء وسائر الشدائد بقوله تعالى: (لعلهم) فمرة يقول سبحانه وتعالى: "لعلهم يرجعون" ومرة يقول: "لعلهم يضرعون" ومرة يقول: "لعلهم يتضرعون" فما المقصود من قوله تعالى: لعلهم؟ والجواب: لا يمكن أن يحمل هذا اللفظ على الشك في حق الله سبحانه وتعالى، وإنما المراد أنه سبحانه وتعالى ابتلاهم لكي يتضرعوا[160]. فلعل بمعنى اللام، أي: ليضرعوا[161]. وقال الرازي رحمه الله: لا يمكن حمله على الشك في حق الله

---

[153] الإسراء، 17/ 67-69.

[154] الأعراف،7/ 94.

[155] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 2، ص: 132.

[156] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج:3، ص:449.

[157] الخازن، ***لباب التأويل في معاني التنزيل***، ج:2، ص: 230.

[158] أبو الفداء، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي (المتوفى: 1127هـ)، ***روح البيان***، دار الفكر – بيروت ج 3، ص 205.

[159] طنطاوي، محمد سيد، ***التفسير الوسيط للقرآن الكريم***، دار نهضة مصر– القاهرة 1997. الطبعة: الأولى ج 5، ص 333.

[160] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج: 9، ص: 13.

[161] أبو القاسم النيسابوري، محمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري (المتوفى: 550هـ)، ***إيجاز البيان عن معاني القرآن***، ت ح: الدكتور حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى -1415 هـ ج: 1، ص:337.

تعالى، والواجب حمله على أن المراد أنه سبحانه وتعالى ابتلاهم لكي يتضرعوا. وقالت المعتزلة، وهذا يدل على أن الله سبحانه وتعالى أراد من جميع المكلفين الإيمان به وطاعته. وقال أهل السنة: عندما ثبت بالدليل القاطع، أن تعليل أفعاله الله سبحانه وتعالى، وتعليل أحكامه محال، وجب أن تُحمل الآية على أنه سبحانه تعالى فعل، ما لو فعله غيره من العباد لكان ذلك شبيها بالغرض والعلة[162]. ومعنى كلام المفسرين: أن قوله سبحانه وتعالى "لعلهم يضرعون" لا يحمل على معناه المتبادر إلى الأذهان كأن يرجو من عباده بعد الابتلاء غرضاً أو غاية يحصلها لم تكن معلومة قبل الابتلاء ، فليس الأمر كذلك، تنزه الله تعالى عن ذلك وتعالى، فهو سبحانه وتعالى علام الغيوب، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وإنما المراد من قوله "لعلهم" أي ليتضرعوا، وفي ذلك من إقامة الحجة البالغة على الكافرين من أنه تعالى ابتلاهم بأنواع من البليات، ما يجعل العاقل يعود إلى رشده وصوابه، ويدفعه إلى التضرع إلى خالقه ومولاه، ليكشف عنهم ما ابتلاهم به من الضيق والشدة، إلا أنهم استكبروا وعاندوا، فحقت عليهم كلمة العذاب.

من خلال ما تقدم من الآيات الكريمة، نعلم أن الله تعالى كان يبتلي الكافرين بالفقر، وضيق العيش، والبأساء، والضراء، والجدب، وسائر أنواع الشدائد، ليرجع الكفار عن كفرهم بالله تعالى إلى توحيده والإيمان به سبحانه وتعالى، وليذلوا إليه بالتواضع والعبودية، وليتضرعوا إليه بكل فقر وحاجة، فتوحيد الله تعالى فطرة موجودة في قلوب الناس جميعاً، مؤمنهم وكافرهم، والقلوب في المحن والابتلاءات والشدائد تتوجه إلى ما فُطِرَتْ عليه، من التوجه إلى الله مدبر الأمور، ومسبب الأسباب.
ولكن هل رَدَعت تلك الابتلاءات والمصائب أهل الكفر عن كفرهم واستكبارهم؟ أم استمروا سالكين طريق الاستكبار والعناد؟ تجيبنا آيات كثيرة من القرآن الكريم عن حال المشركين عند نزول المحن بهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَو رَحِمنَاهُم وَكَشَفنَا مَا بِهِم مِن ضُرٍّ لَلجُّوا في طُغيَانِهِم يَعمَهُونَ (75) وَلَقَد أَخَذنَاهُم بِالعَذَابِ فَما استَكَانُوا لِرَبِّهِم وَمَا يتَضَرَّعونَ (76)﴾[163]. يبين الله تعالى في هاتين الآيتين أن الله تعالى إذا كشف البلايا والشدائد والمضار عن أهل الشرك؛ عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والطغيان، واستمروا في تحيرهم وترددهم، لا يعرفون ما يصنعون، ولا ينزجرون عن كفرهم وغيهم. وجاء في سبب نزول الآية الثانية: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا محمد-صلى الله عليه وآله وسلم-أنشدك الله والرحم، لقد أكلنا العِلْهِزَ

---

[162] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج:14، ص: 320.

[163] المؤمنون، 23/75-76.

فأنزل الله سبحانه وتعالى: "ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون". وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أتى ثمامة بن أثال الحنفي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأسلم وهو أسير، فخلى سبيله، فلحق باليمامة فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة، وأخذ الله سبحانه وتعالى قريشا بسني الجدب، حتى أكلوا العلهز، فجاء أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أنشدك الله والرحم أليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع. فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية[164].

فالآية نزلت في قريش عندما أصابها الجوع والسنون الجدبة بدعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "اللهم سبعاً كسني يوسف". أخبر الله سيحانه وتعالى عن المشركين، بأنهم لا يرهبهم التهديد بالعذاب، فلقد ابتليناهم بالشدائد والمصائب، ونالهم من القحط والجوع والشدة، فظلوا مستكبرين، فما تركوا الكفر والمعاصي، وما تراجعوا عن كفرهم وضلالهم وغيهم، وما خشعوا لربهم، ولا تواضعوا لجنابه، ولا خضعوا لعظمته، وما دعوا ولا تذللوا، بل قست قلوبهم كما جاء في آية أخرى: ﴿فَلَولا إِذ جاءَهُم بَأسُنا تَضرَّعوا وَلكِن قَسَت قُلُوبُهُم﴾[165].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَد أَخَذْناهُم بِالْعذابِ﴾هو الجوع والجدب الذي أصابهم، حتى أكلوا الجلود، وقوله سبحانه: ﴿فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِم﴾ معناه: ما تواضعوا، ولا تذللوا، ولم يرغبوا أن يكونوا من أهل الطاعة. وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: «إذا أصاب الناس من قبل الشيطان بلاء، فإنما هي نعمة، فلا تستقبلوا نعمة الله بالحميّة، ولكن استقبلوها بالاستغفار، واستكينوا وتضرعوا إلى الله تعالى» وقرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَد أَخَذناهُم بِالْعذابِ فَما استَكانُوا لِربِّهِم وَما يَتَضرَّعونَ﴾[166].

فائدة: من خلال ما تقدم من الآيات القرآنية الكريمة نرى أن الله تعالى ابتلي الكافرين بالضراء في أموالهم وأولادهم، وزروعهم، فأصابهم الفقر والحاجة، والجدب والجوع وغير ذلك، ومن ثَمَّ ابتلاهم بالسراء وفتح لهم أبواب العطاء ورزقهم الأموال والأولاد، والثمار. فما الحكمة الإلهية في تناوب تلك الابتلاءات وتعاقبها عليهم ما بين السراء والضراء؟ والجواب عن هذا التساؤل باختصار: أن الله سبحانه وتعالى ابتلى الكافرين بالضراء، وابتلاهم بالخيرات، ليستقصي لهم أسباب التذكر والخوف، لأن

---

[164] الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي (المتوفى: 468هـ)، ***أسباب نزول القرآن***، ت ح: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام الطبعة: الثانية، 1412 هـ -1992 م، ص: 314.

[165] الأنعام، 6/ 43.

[166] الزحيلي، ***التفسير الوسيط***، ج: 2، ص: 1707-1708.

النفوس مختلفة فمنها من تقودها الشدة والضر إلى الله تعالى، ومنها من يقودها الخير واللين[167]. فقد سلط الله عز وجل على أولئك الكافرين المكاره والشدائد والمضار، فلم يعتبروا ولم ينتفعوا بها، وبعد ذلك فتح عليهم أبواب الخير، وسهل لهم موجبات السعادة، فلم ينتفعوا بها أيضا. وهذا كما يفعل الأب المشفق بولده، فتارة يُخَاشنه ويعامله بالشدة، وتارة يلاطفه ويعامله باللين، لعله ينصلح، ويعود إلى الحق الصواب[168].

إذاً ما كان تنوع تلك الابتلاءات إلا لإقامة الحجة واستقصاء جميع الأسباب التي تذكِّر الإنسان بخالقه سبحانه وتعالى-أسباب الشدة، وأسباب الرخاء-لأن النفوس مختلفة، منها ما يتأثر بالعطايا والنعم، ومنها ما يتأثر بالشدائد والنقم، ولا يبقى بعد ذلك إلا العذاب الأليم من الله تعالى، والاستئصال لأهل القلوب القاسية التي، لا تنتفع بخير ولا تنزجر بضر.

المبحث الثاني: الحكمة من ابتلاء المؤمنين بالسراء والضراء

المطلب الأول: الحكمة من ابتلاء المؤمنين بالسراء

الحكمة العامة من الابتلاء بالسراء والنعم: التوجه إلى الله تعالى بالتوحيد والشكر، قال الله تعالى ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُم إِيَّاهُ تَعبُدُونَ﴾[169]. أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأنْ يأكلوا من رزقه الحلال الطيب، ثم أمرهم بالشكر على تلك النعم، وهو سبحانه وتعالى المنعم على عباده، والمتفضل عليهم، المستحق للتوحيد والعبادة، لذا فأطيعوا أوامره، وانتهوا عن نواهيه، واثبتوا على طاعته، وداوموا عليها[170].

وحقيقة الشكر تكون بالطاعة، لأنه تعالى قال:﴿ فَاذكُرُونِي أَذْكُرْكُم وَاشكُرُوا لِي ولَا تَكفُرُونِ﴾[171]. أي: واشكروا لي على ما أنعمت عليكم بالطاعة، ولا تكفروني بالمعصية، فإن من أطاع

---

[167] ابن عاشور التونسي، محمد الطاهر بن محمد (المتوفى: 1393هـ)، ***التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»*** الدار التونسية للنشر – تونس، 1984 هـ ج: 7، ص: 231.

[168] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج:12، ص: 534-535.

[169] النحل، 16/ 68.

[170] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج: 14، ص: 255.

[171] البقرة، 2/ 152.

الله عز وجل فقد شكره، ومن عصاه فقد جحد النعمة وكفره[172]. وقال الله سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا كُلُوا مِن طَيِّباتِ ما رَزقْنَاكُم وَاشكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنْتُم إِيَّاهُ تَعبُدُونَ﴾173. ويكون الشكر أيضاً بطاعة الله سبحانه وتعالى بجميع الأعضاء والجوارح سراً وعلانية. قال الحسن رحمه الله تعالى: شكر النعمة بذكرها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعمَةِ رَبِّكَ فَحدِّثْ﴾[174]. وقال الفضيل رحمه الله تعالى: شكر كل نعمة؛ ألا يُعصى الله بعد تلك النعمة. وقيل أيضاً: حقيقة الشكر عجز العبد عن الشكر، كما حُكي أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام قال: "إلهي أنعمتَ عليَّ بالنعم السوابغ، وأمرتني بالشكر، وإنما شكري إياك نعمة منك" فقال الله سبحانه وتعالى: يا موسى تعلمت العلم الذي لا يفوقه علم، حسبي من عبدي أن يعلم أن ما به من نعمة فهو مني. وقال داود عليه الصلاة والسلام: سبحان من جعل اعتراف العبد بالعجز عن شكره شكراً، كما جعل اعترافه بالعجز عن معرفته معرفة[175].

وتمام الشكر عدم انشغال العبد بالنعمة عن منعمها سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمنُوا لا تُلْهِكُم أَموَالُكُم وَلا أَولَادُكُم عَن ذِكرِ اللَّهِ ومَن يَفعَلْ ذَلكَ فَأُولَئكَ هُمُ الخَاسِرونَ﴾ [176].عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما يمنع أحدكم إذا كان له مال يجب عليه فيه الزكاة أن يزكي، وإذا أطاق الحجّ أن يحج، من قبل أن يأتيه الموت، فيسأل ربه الكرّة- أي الرجوع إلى الدنيا- فلا يُعطاها، فقال رجل: أما تتقي الله تعالى! يسأل المؤمن الكرّة؟ قال: نعم، أقرأ عليكم قرآنًا، فقرأ قول الله سبحانه وتعالى:﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا لا تُلهِكُم أَموَالُكُم وَلا أَولادُكُم عَن ذِكرِ اللَّهِ﴾. فقال الرجل: فما الذي يوجب عليّ الحجّ، قال: راحلة تحمله، ونفقة تبلغه[177].

الحكمة من الابتلاءات المتعلقة بالعلم: إن العلم نعمة عظيمة من الله تعالى على عباده، وإن الله تعالى أعلى من شأن العلم وأهله في القرآن الكريم كما قال سبحانه:﴿ يَرفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمنُوا مِنكُم وَالَّذينَ

---

[172] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج:1، ص: 185.

[173] البقرة، 2/ 172.

[174] الضحى، 93/ 11.

[175] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج: 1، ص: 117.

[176] المنافقون، 63/ 9.

[177] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج: 23، ص: 411.

أُوتُوا العِلْمَ دَرجَاتٍ واللَّهُ بِما تَعمَلُونَ خَبيرٌ﴾[178]. وكما قال سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وأُولُو العِلْمِ قائِمًا بِالقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُو العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[179].

والعلم لا ينفك عن الابتلاء وذلك من عدة جوانب منها: الجانب الأول: من حيث مشاق طريق طلبه، فإن طالب العلم سيبتلى بالمشاقِّ والمصاعب في تحصيل العلوم النافعة، فكم من عالم ابتلي بالأسفار والرحلات، والصحبة الشاقة للمعلمين، وهذه سنة الله تعالى فيمن سلك طريق العلم، ولا بد من الصبر لينال طالب العلم بغيته، ومن تدبر الآيات التي تتحدث عن رحلة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مع الخضر في سورة الكهف يجد ما تعرض له سيدنا موسى صلى الله عليه وآله وسلم، من الجهد والتعب والمشقة، حيث أن الآيات الثلاث أتت بلفظ فانطلقا والتي تدل على أن موسى عليه السلام كان يصحب الخضر عليه السلام، ويتبعه من مكان إلى آخر في سبيل طلب العلم، قال الله تعالى واصفاً رحلة سيدنا موسى مع الخضر عليه الصلاة والسلام: ﴿فَانْطَلَقَا حتَّى إذا رَكبَا فِي السَّفينَةِ خرَقَها قالَ أَخَرَقتَهَا لِتُغرِقَ أَهلَهَا لَقَد جِئتَ شَيئًا إمرًا (71)[180] فَانطَلَقَا حتَّى إذا لَقِيَا غُلامًا فَقَتلهُ قَال أَقَتَلتَ نَفسًا زكِيَّةً بِغَيرِ نَفسٍ لَقَد جِئتَ شَيئًا نُكرًا (74)[181]. فَانطَلَقَا حتَّى إذا أَتَيا أَهلَ قَريَةٍ استَطعَمَا أَهلَهَا فَأَبَوا أَن يُضَيِّفوهُما فَوجَدا فِيها جدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامهُ قَال لَو شِئتَ لَاتَّخَذتَ عَلَيهِ أَجرًا (77)﴾[182].

الجانب الثاني: الابتلاء بنعمة العلم، ليظهر الشاكر على هذه النعمة من غير الشاكر، والله تعالى ذكَّر عباده بما كانوا عليه من الجهل عندما أخرجهم من بطون أمهاتهم، ثم أنعم عليهم بآلات العلم ووسائل تحصيله من السمع والبصر والفؤاد ليشكروه تعالى على ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿واللَّهُ أَخرَجَكُم مِن بُطُونِ أُمَّهاتِكُم لَا تَعلَمُونَ شَيئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبصَارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ﴾[183]. أي: عندما وُلد البشر وجاؤوا إلى الدنيا لا يعلمون حق الله سبحانه وتعالى عليهم، فهو الذي خلقهم في بطون أمهاتهم، وصورهم في أحسن الصور، وسواهم، وأخرجهم من ضيق الأرحام إلى السعة، وأنعم عليهم بنعم الجوارح ووسائل المعارف والعلوم، كالسمع والبصر والعقل، ليشكروه على ذلك ويعبدوه حق

---

[178] المجادلة، 58/ 11

[179] آل عمران، 3/ 18.

[180] الكهف، 18/ 71.

[181] الكهف، 18/ 74.

[182] الكهف، 18/ 77.

[183] النحل، 16/ 78.

العبادة[184]. فالغاية من آلات العلم من سمع وبصر وعقل؛ تحصيل العلم النافع، والغاية من تحصيل العلم، العمل به شكراً لله سبحانه وتعالى.

الجانب الثالث: أن الله ابتلى العلماء بالعلم، ليظهر العامل بعلمه من التارك للعمل، وليظهر المخلص في طلب العلم من غيره. والقرآن الكريم حثَّ على العلم والأخذ بأسبابه، ودعا أيضاً إلى العمل به، لأن العمل بالعلم هو سبيل السعادة الدنيوية والأخروية، فكم من الآيات القرآنية الكريمة التي أشارت إلى ضرورة العمل بالعلم، لذا كان الابتلاء في هذا الجانب شديداً لأن عاقبة ترك العمل بالعلم خطيرة جداً. قال الله تعالى: ﴿أَتَأمُرونَ النَّاسَ بالبِرِّ وَتَنسَونَ أَنفُسَكُم وَأَنْتُم تَتلُونَ الكِتابَ أَفلَا تَعقِلُونَ﴾[185]. نزلت هذه الآية الكريمة في علماء اليهود فقد كانوا يأمرون المسلمين بالثبات على اتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا يقولون إن ما جاء به حق وصدق، ولكنهم كانوا يعرضون عن اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم والإيمان به، ثم إن هذا التوبيخ وإن كان لأهل الكتاب إلا أنه عام من حيث المعنى، فعن محمد بن واسع رحمه الله تعالى أنه قال: بلغني أن ناسا من أهل الجنة، اطلعوا على ناس من أهل النار فقالوا لهم: قد كنتم تأمروننا بأشياء عملناها فدخلنا الجنة. قالوا: كنا نأمركم بها، ونخالف إلى غيرها[186]. وقد وردت عدة أحاديث في هذا الشأن توضح الترهيب من العلم بدون عمل، ومنها: قول الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب[187] بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه.[188]

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ليلة أسري بي مررت على ناس تُقْرَضُ شفاهُهُم بمقاريض من نار، فقلت يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا، "يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون". ثم قال الإمام القرطبي رحمه الله عند هذه الآية: دل الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالما بالمعروف

---

[184] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج:2، ص: 624.

[185] البقرة، 2/ 44.

[186] ابن حيان الأندلسي، ***البحر المحيط***، ج:1، ص: 297-298.

[187] فتندلق: فتخرج بسرعة، والأقتاب: الأمعاء واحدها قتب.

188 مسلم، ***المسند الصحيح المختصر***، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله، رقم الحديث: 51 -2989.

وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشد ممن لم يعلمه، وإنما ذلك لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى سبحانه وتعالى، وكالمستخف بأحكامه، وهو ممن لا ينتفع بعلمه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم "أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه" أخرجه ابن ماجه في سننه. ولقد كان بعض العلماء والصالحين -على ما هم عليه من العلم والعمل والتقوى والورع -يخافون من هذه الآية وما شابهها من آيات التحذير من طلب العلم وترك العمل، ومن أولئك لعلماء أبو عثمان الحيري رحمه الله تعالى[189] عندما خرج وقعد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته، فناداه رجل من الحاضرين: ألا تقول شيئا؟ فأنشأ يقول: وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي والطبيب مريض. قال: فارتفعت أصوات الناس بالبكاء في المجلس. وقال إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى[190]: إني لأكره القصص لثلاث آيات، قوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر... الآية﴾[191]، وقوله تعالى: ﴿لم تقولون ما لا تفعلون...الآية﴾[192]، وقوله تعالى: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه...الآية﴾[193].

ومن الابتلاءات المتعلقة بالعلم أن الله تعالى يبتلي الناس بعلماء السوء، الذين همهم الدنيا، والسعي إلى ملذاتها، ومعاداة أهل الحق من العلماء المخلصين، ولو كلفهم ذلك التخلي عن علومهم ، ولو مقابل شيء بخس دنيٍّ، فينسلخون عن حقيقة العلم، ويفتنون الناس بما عندهم من علوم لا تنفع، فمثله كما قال الله تعالى: ﴿وَاتلُ عَلَيهِم نَبأَ الَّذي آتَينَاهُ آيَاتِنا فَانسَلَخَ مِنهَا فَأَتبَعَهُ الشَّيطَانُ فَكَانَ منَ الغَاوِينَ (175) وَلَو شِئنَا لَرَفَعنَاهُ بهَا وَلكِنَّهُ أَخْلدَ إِلَى الْأَرضِ واتَّبعَ هَواهُ فَمثَلُهُ كَمثَلِ الكَلبِ إِن تَحمِلْ عَلَيهِ يَلهَث أَوْ تَترُكهُ يَلهَث ذَّلكَ مَثلُ الْقَومِ الَّذينَ كَذَّبوا بِآيَاتنَا فَاقصُصِ القَصَصَ لَعلَّهُم يَتَفكَّرونَ (176) ساءَ مثَلًا القَومُ الَّذينَ كذَّبُوا بآيَاتنَا وَأَنفُسَهُم كَانُوا يَظلمُونَ (177) مَن يَهدِ اللَّهُ فَهوَ المُهتَدِي وَمنْ يُضلِلْ فَأُولَئكَ همُ

---

[189] الشيخ الإمام المحدث الواعظ القدوة، شيخ الإسلام، الأستاذ، أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور النيسابوري، الحيري، الصوفي. مولده سنة ثلاثين ومائتين بالري، كان مجاب الدعوة، توفي لعشر بقين من ربيع الآخر، سنة ثمان وتسعين ومائتين. (ينظر: الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (المتوفى:748هـ)، ***سير أعلام النبلاء***، دار الحديث-القاهرة، الطبعة: 1427هـ-2006م ج 11، ص:41-43، رقم الترجمة: 2552).

[190] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج: 1، ص: 365-367.

[191] البقرة، 2/ 44.

[192] الصف، 61/ 2.

[193] هود، 11/ 88.

الخَاسِرونَ (178)﴾[194]. تتحدث هذه الآيات عن عالم من علماء بني إسرائيل، اسمه بلعم بن باعوراء، آتاه الله تعالى علم بعض الكتب السماوية، فكفر بآيات الله وكتبه، وانسلخ منها ونبذها وراء ظهره. وقد توجه موسى عليه الصلاة والسلام إليه وقصد بلده الذي هو فيه، وغزاهم، فطلب أهل البلد من بلعم أن يدعو على موسى عليه الصلاة والسلام، وكان بلعم مجاب الدعوة، وعنده اسم الله تعالى الأعظم، فامتنع بداية الأمر، فما زالوا به حتى دعا عليه، فاستجاب الله تعالى دعوته، ووقع موسى عليه الصلاة والسلام وبنو إسرائيل في التِّيْه، وكان أول انسلاخه عندما بعثه موسى عليه الصلاة والسلام إلى ملك مدين، يدعوه إلى الله تعالى، فأعطاه ملك مدين عطايا وهدايا، فكفر بلعم وترك دين موسى عليه الصلاة السلام. ولو شاء الله لجعل له منزلة عظيمة، كمنزلة العلماء الصالحين الأبرار، بالعمل بالآيات وتوفيقه للهداية، إلا أنه اتبع هواه فركن إلى الدنيا، ورغب فيها وآثرها على الآخرة، فلم يهتد بآيات الله تعالى، ولم ترتق نفسه إلى الكمال الروحي، ولم يعظِّم نعمة الله عليه، ولم يستعملها في مرضاته. فأصبح مثله في الحقارة والذلة، والدناءة والخسة، كمثل الكلب فهو يلهث بشكل دائم، سواء طُرِد، أو لم يُطْرد. وهذه الحالة هي أقبح حالات الكلب، وقد شبّه بها حال ذلك الذي انسلخ وتجرد من معرفة آيات الله سبحانه وتعالى. ذلك المثل العجيب هو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله تعالى، واستكبروا عنها، ولم تنفعهم الموعظة، وهم اليهود بعد ما قرأوا وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة، وبشروا الناس بدنو مبعثه، وكانوا يستنصرون به، ثم جاء القرآن الكريم المعجز ليكشف هذه الحقيقة التي جحدها اليهود بعد بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليقص خبر هذا الذي انسلخ من آيات الله تعالى على قومه ليحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله أعلمهم بصفة النبي محمد صلّى الله عليه وآله وسلم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته. فساءت صفة المعرضين وقبحت أشد القبح أنْ شُبهوا بالكلاب، وكانوا ظالمين لأنفسهم. وفي الآية تحذير للناس عن اتباع أهوائهم وشهواتهم، وركونهم إلى الدنيا وملذاتها، واتباع الأغراض الخسيسة، وترك آيات الله تعالى وما ترشد إليه من الإيمان بالله تعالى والإيمان برسوله صلى الله عليه وآله وسلم والإيمان بالآخرة. وهذه الآية -كما قال الرازي رحمه الله تعالى-من أشد الآيات على العلماء، فإن العالم إذا لم يعمل بعلمه، حرم بركة العلم، وكان بعده عن

[194] الأعراف،7/ 175-178.

الله تعالى أشد وأعظم، كما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من ازداد علما ولم يزدد زهداً، لم يزدد من الله إلا بعداً»[195].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: " إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار[196].

فالذي يعمل بعلمه ينال البشارة بقوله تعالى: ﴿يَرفَعِ اللَّهُ الَّذينَ آمنُوا مِنكُمْ والَّذِينَ أُوتوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ واللَّهُ بمَا تَعمَلُون خَبيرٌ﴾[197]. ومن أعرض عن العمل وركن إلى الدنيا كان كبلعم بن باعوراء. لذا حذر الله تعالى وحذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من علماء السوء.

الجانب الرابع: وهو ما تمت الإشارة إليه فيما سبق وهو الابتلاء بعلماء السوء، فالله تعالى يبتلي الناس بعلماء السوء، الذين يأكلون أموال الناس، ويبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل، ويصدون عن سبيل الله تعالى بأفعالهم، ولعلَّ الحكمة من الابتلاء بعلماء السوء كي يحذرهم المؤمنون أشد الحذر. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا إنَّ كَثيرًا منَ الْأَحبَارِ وَالرُّهبَانِ لَيأْكُلُونَ أَموَالَ النَّاس بِالْباطِلِ ويَصُدُّونَ عَن سَبيلِ اللَّهِ والَّذِينَ يَكنِزُونَ الذَّهبَ والْفضَّةَ ولَا يُنفِقُونهَا في سَبيلِ اللَّهِ فبَشِّرهُم بِعذابٍ أليمٍ﴾[198]. والمقصود: تحذير الناس من علماء السوء؛ الذين قال فيهم سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: من فسد من علمائنا، كان فيه شبه من اليهود. ومن فسد من عبادنا، كان فيه شبه من النصارى. وفي الحديث النبوي الصحيح: "لتركبن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟

---

[195] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج: 9، ص:163-165.

[196] مسلم، ***المسند الصحيح المختصر***، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، رقم الحديث: 152 -1905.

[197] المجادلة، 58/ 11.

[198] التوبة، 9/ 34.

وفي رواية: فارس والروم؟ قال: ومن الناس إلا هؤلاء؟ والحاصل إذاً: تحذير العلماء من التشبه بأحبار اليهود والنصارى في أحوالهم وأقوالهم، ولذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ﴾ لأنهم يأكلون الدنيا الدنيَّة بالدِّين العظيم، وبمناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون الأموال بالباطل، وكان أحبار اليهود يعتبرون أنفسهم أشرف من أهل الجاهلية ، فكانوا يأخذون منهم الخراج والضرائب والهدايا، فلما بعث الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ استمروا على كفرهم وضلالهم وعنادهم، طمعاً في بقاء الرياسة لهم، فأطفأ الله تعالى ذلك بنور النبوة، وسلبهم رياستهم واعتزازهم، وضرب عليهم بالذلة والمسكنة، وباءوا بغضب منه سبحانه وتعالى. وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وهم مع أكل أموال الناس بالباطل يصدون عباد الله تعالى عن اتباع الحق، يلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من جهلة الناس أنهم يدعون إلى الحق والخير، وهم ليسوا كذلك، بل هم دعاة إلى نار جهنم، ويوم القيامة لا ينصرون[199]. ففي الآية تحذير للناس من الاغترار بعلماء الضلالة والسوء، أو اتباعهم في أخلاقهم ورذائلهم وأعمالهم، والواجب على الناس السير على طريق الحق بحسب ما جاء به دين الإسلام من مبادئ وتعاليم وتشريعات وأخلاق[200].

ولعلماء السوء صفات معلومة ومنها: الجهل بأحكام الدين، وإفتاء الناس بغير علم، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، فإذا لم يبق عالم؛ اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا". فقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث أن آفة العلم ذهاب العلماء، وترؤس الجهال على الناس باسم العلم، وانتحالهم صفة العلم، لذا حذر صلى الله عليه وآله وسلم الناس من الاقتداء بمن كان هذا وصفه، وأخبر أنهم ضالون مضلون[201]. وورد في السنة النبوية الشريفة أن الساعة لا تقوم حتى يقبض العلم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم،

---

[199] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج:4، ص:138.

[200] طنطاوي، محمد سيد، ***التفسير الوسيط للقرآن الكريم***، ج 6، ص: 271.

[201] الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (المتوفى: 388هـ)، ***العزلة***، المطبعة السلفية – القاهرة الطبعة: الثانية، 1399 هـ، ص: 82.

وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج -وهو القتل -حتى يكثر فيكم المال فيفيض»[202].

ومن صفا ت علماء السوء أيضاً: مداهنة السلاطين، وتغيير الأحكام الشرعية وتحريفها، رغبة في التقرب منهم، ونيل مرضاتهم، ولذا كان العلماء الصالحون يحذرون أشد الحذر من مخالطة الأمراء والحكام؛ خشية أن يكونوا كعلماء السوء. وقد قال سفيان رحمه الله تعالى: في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك. وعن الأوزاعي رحمه الله تعالى: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا[203].

فمن خلال التفسير الإجمالي للآيات الكريمة السابقة نرى أن لله تعالى حكم كثيرة في ابتلاء الناس بعلماء السوء، ومن هذه الحكم: أولاً: أن يعلم الناس القدوة الصالحة، فلا يتبعوا أهل الأهواء، وأهل الدنيا، بل الواجب الحذر منهم. ثانياً: أن يعلم الناس أن العلم ودنايا الأمور وخسائسها، والدنيا والآخرة لا يجتمعان في قلبٍ واحد. ثالثاً: أن يعلم الناس أن العلم لا فائدة منه مالم يقترن بالعمل الصالح. رابعاً: أن الهداية بيد الله تعالى فلا يغترَّ عالم بعلمه، ولو بلغ من العلم ما بلغ. خامساً: أن الثبات على الإيمان يحتاج إلى تواضع ودعاء لله تعالى، لأن القلوب بيد الله تعالى، لذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعو دائماً: "يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك"[204]. ولو قرأنا الآية التي جاءت بعد ذكر ذلك الذي انسلخ عن الآيات وأخلد إلى الأرض لرأينا التناسب العجيب بين الآية وما سبقها من قصة بلعم بن باعوراء، والآية هي قوله تعالى: ﴿مَن يَّهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهتَدِي وَمَن يُّضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرونَ﴾[205].
فقد جاءت الآية التالية متضمنة أسباب الهداية، وأسباب الضلال بعد ذكر قصة بلعم بن باعوراء الذي سلك سبيل الضلال وهو الخلود إلى الأرض واتباع الهوى والضلال، وهذا مما يبتلى به العباد. نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

---

[202] البخاري، ***الجامع المسند الصحيح المختصر***، ت ح: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى 1422هـ، كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآيات، رقم الحديث: 1036.

[203] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 2، ص: 434.

[204] الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سوْرة بن موسى بن الضحاك (المتوفى: 279هـ)، ***سنن الترمذي***، ت ح: إبراهيم عطوة عوض، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الحمن، رقم الحديث: 2140، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة: الثانية، 1395 هـ -1975 م.

[205] الأعراف،7/ 178.

الحكمة من الابتلاء بالغنى: إظهار موقف الأغنياء من نعمة الغنى والثراء. فالله تعالى يبتلى عباده بالغنى ليظهر المؤمن الصادق من المنافق الكذاب، ويظهر المؤمن الذي يؤدي حق الله تعالى في ذلك المال من الذي لا يؤديه، فكم من غني آتاه الله تعالى من فضله فقام بأداء الحق الواجب عليه في ذلك المال، وكم من غني آتاه الله تعالى من المال والغنى والفضل فتثاقل عن أداء ما فرض الله تعالى عليه من حقوق وواجبات. قال الله تعالى: ﴿وَمِنهُم مَن عاهَدَ اللَّهَ لَئِن آتَانا مِن فَضلِهِ لَنصَّدَّقَنَّ ولَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فلَمَّا آتَاهُم مِن فَضلِهِ بخِلُوا بهِ وتوَلَّوا وَهُم مُعرِضونَ (76) فأَعقَبَهُم نِفاقًا في قُلوبِهم إلى يَومِ يَلْقَونَهُ بمَا أَخلَفُوا اللَّهَ ما وَعدوهُ وَبمَا كانُوا يَكذِبونَ (77) أَلَم يَعلَموا أنَّ اللَّهَ يَعلَمُ سِرَّهمْ وَنَجوَاهُم وأنَّ اللَّهَ علَّامُ الْغُيوبِ (78) الَّذين يلْمِزُونَ الْمطَّوِّعِينَ منَ الْمؤْمنِينَ في الصَّدقَاتِ والَّذينَ لا يجِدونَ إلَّا جُهدَهُم فَيَسخَرونَ مِنهُم سَخرَ اللَّهُ مِنهُم وَلَهُم عذَابٌ أَلِيمٌ (79)﴾[206]. تحدثت هذه الآيات عن ابتلاء الله تعالى لأناس أغناهم الله تعالى من فضله، فمنهم من كان منافقاً ترك الحق الذي أوجبه الله تعالى عليه، ومنهم من كان مؤمناً صادقاً أدى الحق الذي أوجبه الله تعالى عليه، وبيان ذلك أن الله تعالى قال أولاً: ﴿وَمِنهُم مَن عَاهدَ اللَّهَ لَئن آتَانَا مِن فَضلِهِ﴾. أي: ومن المنافقين من أعطى الله تعالى عهداً؛ إن رزقنا من فضله بأن وسع علينا في الرزق ﴿لَنصَّدَّقَنّ﴾ يعني: لنتصدقن ولنخرجن من ذلك المال صدقته ﴿ولَنَكُونَنَّ منَ الصَّالِحينَ﴾ يعني: ولنعملن في ذلك المال ما يعمله أهل الصلاح بأموالهم؛ من صلة الأرحام، والإنفاق في سبيل الله تعالى، وجميع وجوه البر والخير، وإخراج الزكاة وإيصالها إلى أهلها. ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِن فَضلِهِ بَخلُوا بِهِ﴾ منعوا حق الله تعالى منه ﴿وَتَوَلَّوا﴾ عن طاعة الله تعالى ﴿وَهُم مُعرِضونَ﴾ وهم قومٌ عادتهم الإعراض عنها.﴿فَأَعقَبَهُم نفَاقًا في قُلُوبِهِمْ﴾ أي: فجعل الله تعالى عاقبة فعلهم ذلك نفاقاً وسوء اعتقاد في قلوبهم ﴿إلى يَومِ يَلقَونَهُ﴾ يلقون الله تعالى بالموت، أو يلقون عملهم، أي: جزاءه، وهو يوم القيامة ﴿بِما أَخلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدوهُ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدق والصلاح ﴿وَبما كانُوا يَكذبُونَ﴾ وبكونهم كاذبين فيه، فإن خلف الوعد متضمن للكذب مستقبح الوجهين.﴿أَلَم يَعلَمُوا﴾ أي: المنافقون، أو من عاهد الله تعالى ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعلَمُ سِرَّهمْ﴾ ما أسروه في أنفسهم من النفاق أو العزم على الإخلاف ﴿ونَجوَاهُم﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن ﴿وأَنَّ اللَّهَ علَّامُ الغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه

[206] التوبة، 9/ 75-79.

ذلك[207]. فهذه الآيات تحدثت بوضوح عن وجه الحكمة من ابتلاء هذا الصنف من الناس بالغنى والمال، وهي أن الله تعالى فضحهم وبين كذبهم وافتراءهم على ما عاهدوا الله تعالى به من التصدق وفعل الخير.

وهناك صنف آخر من الناس ابتلاهم الله تعالى بالغنى فتطوعوا لله تعالى وأنفقوا مما أعطاهم من أموال، ومنهم من كان فقيراً فلم يتصدق إلا بالقليل، ولكن المنافقين عابوا فعلهم وتصدقهم. قال الله تعالى: ﴿الَّذينَ يلْمِزونَ﴾ أي يعيبون ﴿الْمُطَّوِّعينَ﴾ المتطوعين ﴿مِنَ الْمُؤمِنينَ فِي الصَّدقَاتِ﴾ روي: أنه صلى الله عليه وآله وسلم حث على الصدقة، فجاء عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف، فأقرضت ربي أربعة وأمسكت لعيالي أربعة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت» فبارك الله له حتى صولحت إحدى امرأتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم، وتصدق عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري رضي الله عنه بصاع تمر، فقال بتُّ ليلتي أجر بالجرير على صاعين، فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينثره على الصدقات، فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات. ﴿وَالَّذينَ لَا يَجدُونَ إِلَّا جُهدَهُم﴾ إلا طاقتهم ﴿فَيَسخَرونَ مِنهُم﴾ يستهزئون بهم ﴿سخِرَ اللَّهُ منهُمْ﴾ جازاهم على سخريتهم ﴿ولَهُم عَذابٌ أَليمٌ﴾ على كفرهم[208].

ومن الذين امتحنهم الله تعالى بالغنى فقابلوا هذا الغنى بالشكر العظيم، والتصدق به في سبيل الله تعالى، أبو الدحداح رضي الله عنه، حيث استجاب لنداء الله تعالى وقوله: ﴿مَن ذا الَّذي يُقرِضُ اللَّهَ قَرضًا حسَنًا فيُضَاعِفَه لهُ أَضعَافًا كثِيرةً واللَّهُ يقْبضُ وَيَبسُطُ وإِلَيهِ تُرجعُونَ﴾[209].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾ قال أبو الدحداح رضي الله عنه: يا رسول الله أو إن الله تعالى يريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح قال: أرني يدك، فناوله، قال: فإني أقرضت الله تعالى حائطا فيه ستمائة نخلة. ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط، وأم الدحداح فيه وعياله، فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي، قد أقرضت ربي عز وجل حائطا فيه ستمائة نخلة.

---

[207] جامي، أحمد فتح الله، ***المختصر المجرد من تفسير القاضي البيضاوي***، الطبعة الأولى 1436هـ 2014م، ص: 397-398.

[208] جامي، ***المصدر نفسه***، ص:398.

[209] البقرة، 2/ 245.

وقال زيد بن أسلم: لما نزل قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ قال أبو الدحداح رضي الله عنه: فداك أبي وأمي يا رسول الله! إن الله يستقرضنا وهو غني عن القرض؟ قال: نعم يريد أن يدخلكم الجنة به. قال: فإني إن أقرضت ربي قرضاً يضمن لي به ولصبيتي الدحداحة معي الجنة؟ قال: نعم، قال: فناولني يدك، فناوله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده. فقال: إن لي حديقتين، إحداهما بالسافلة، والأخرى بالعالية، والله لا أملك غيرهما، قد جعلتهما قرضاً لله تعالى. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اجعل إحداهما لله، والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك. قال: فأشهدك يا رسول الله أني قد جعلت خيرهما لله تعالى، وهو حائط فيه ستمائة نخلة. قال: إذاً يجزيك الله به الجنة. فانطلق أبو الدحداح رضي الله عنه حتى جاء أم الدحداح وهي مع صبيانها في الحديقة تدور تحت النخل، فأنشأ يقول أبياتاً من الشعر يخبرها من خلالها أنه تصدق بحائطه، فاستقبلت زوجته هذا الخبر بكل إيمان، وأقبلت على صبيانها تخرج ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم، حتى أفضت إلى الحائط الآخر، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: كم من عذق رداح ودار فياح لأبي الدحداح[210].

وقد انقسم الخلق حين سمعوا قوله تعالى "من ذا الذي يقرض الله...الآية". أقساما وتفرقوا فرقاً ثلاثة: الفرقة الأولى: الكفرة الأراذل الذين اتهموا الله تعالى بالفقر والحاجة-تعالى الله عن ذلك -وزعموا أنهم أغنياء، وهذه حماقة وجهالة لا تخفى وقد رد الله تعالى عليهم بقوله ﴿لَقَد سمِعَ اللَّهُ قَولَ الَّذِين قَالوا إنَّ اللَّهَ فقيرٌ وَنَحنُ أَغنِياءُ سنَكتُبُ ما قالُوا...الآية﴾[211]. والفرقة الثانية: لما سمعت هذه الآية آثرت البخل والشح، والرغبة في جمع المال؛ فركنت إلى الدنيا، فما فكَّت أسيراً، ولا أنفقت في سبيل الله، ولا أغاثت أحداً، فتكاسلت عن طاعة الله وفعل الخيرات. والفرقة الثالثة: لما سمعت نداء الله تعالى بادرت إلى الامتثال والطاعة، وسارعوا إلى الإنفاق في سبيل الله تعالى، فكان أولهم أبو الدحداح رضي الله تعالى عنه، لما سمع هذا جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجعل خير بستانيه صدقة. فقال النبي صلى الله عليه: «كم عذق مذلل لأبي الدحداح في الجنة»[212].

فالله تعالى يبتلي العباد بالمال، لينظر سبحانه وتعالى إلى عباده ما هم صانعون به، وهل يؤدون الحق الواجب فيه -من زكاة وصدقة وإنفاق في وجوه الخير والبر والجهاد -أم لا، ولم يكن اختباره

---

[210] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج:3، ص:237-239.

[211] آل عمران، 3/ 181.

[212] أبو بكر بن العربي، محمد بن عبد الله الإشبيلي المالكي (المتوفى: 543هـ)، ***أحكام القرآن***، تخريج وتعليق: محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان الطبعة: الثالثة، 1424 هـ -2003 م ج:1، ص: 307-308.

تعالى لعباده للكشف عن حالهم، لأنه عز وجل علام الغيوب، وإنما يعاملهم معاملة المختبر وليقيم الحجة عليهم، فيكون الابتلاء من الله لعباده على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة.

الحكمة من الابتلاء بالأولاد: إن الله تعالى ينعم على الكثير من عباده بالأولاد ذكوراً وإناثاً، وجعلهم من تمام زينة الحياة الدنيا، وجعل هذه النعمة ابتلاء لعباده، والله تعالى يبتلي عباده بما شاء فتارةً يبتليهم بالسراء والنعم، وتارة يبتليهم بالمصائب والنقم، كما قال الله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشَّرّ والخَيْر فتنَة﴾[213]. وفي ابتلاء الله تعالى لعباده بنعمة الأولاد حكم جليلة منها:

الحكمة الأولى: ليشهد العبد فضل ربه عليه فيوحده ويعبده ويشكره: يذكِّر الله تعالى عباده في آيات كثيرة بنعمه العظيمة، ليقوم العباد لله تعالى بالتوحيد والعبادة والشكر. وكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء ليرزقهم الولد الصالح، فقد دعا إبراهيم عليه الصلاة السلام فقال: ﴿ربِّ هَب لي منَ الصَّالحِينَ﴾[214]. ودعا زكريا عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿وإنِّي خِفتُ الْموَاليَ مِن وَرائِي وكَانتِ امرَأَتِي عاقِرًا فَهب لِي مِن لَدُنكَ ولِيًّا (5) يَرثُني ويَرِثُ مِن آل يَعقُوبَ واجعَلهُ ربِّ رضِيًّا (6)﴾[215]. فنعمة الأولاد نعمة عظيمة من الله تعالى، يمتنُّ الله تعالى بها على من يشاء من عباده، ولهذا وجب على العباد أن يوحدوه ويعبدوه ويشكروه. قال الله تعالى على لسان شعيب عليه الصلاة والسلام عندما دعاهم إلى عبادة الله تعالى وتوحيده: ﴿وإلَى مَدينَ أَخاهُم شُعَيبًا قَال يا قَومِ اعبُدُوا اللَّهَ ما لَكُم مِن إلَهٍ غَيرُهُ قَد جاءَتكُم بَيّنةٌ مِن رَبّكُم فَأَوفُوا الكيلَ والْميزَانَ ولا تَبخَسُوا النَّاسَ أَشيَاءَهُم ولا تُفسِدُوا في الأَرضِ بَعدَ إصلَاحِها ذَلِكُم خَيرٌ لَكُم إن كُنْتُم مُؤمِنينَ (85) ولَا تَقعدُوا بكُلِّ صرَاطٍ توعدُونَ وتَصدُّونَ عَن سَبيلِ اللَّه مَن آمنَ بِه وَتَبغُونهَا عِوجًا وَاذكُرُوا إذ كُنتُم قَلِيلا فَكَثَّرَكم وَانظُرُوا كَيفَ كانَ عاقِبةُ المُفْسِدينَ (86)﴾[216]. فكان من جملة ما ذكَّر به شعيبٌ عليه الصلاة والسلام قومَه أن قال: ﴿واذْكُروا إذ كُنتُم قَليلًا فَكَثَّركُم وَانظُروا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ المُفسِدينَ﴾. والمقصود من الذكر المأمور به في قوله تعالى: ﴿واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم﴾ أي: توجهوا بالشكر لله عز وجل حيث كنتم قليلين في العدد فكثركم الله سبحانه وتعالى. وذلك عندما تزوج مدين بن إبراهيم ابنة لوط عليه الصلاة والسلام فولدت، فبارك الله تعالى في نسلها فكثروا، فالمقصود تذكيرُهم بأسلوب الترغيب، لأنَّهم إذا ذكروا نعم الله تعالى عليهم، انقادوا

---

[213] الأنبياء، 21/ 35.

[214] الصافات، 100/37.

[215] مريم، 19/ 5-6.

[216] الأعراف،7/ 85-86.

له وأطاعوه[217]. وقال ابن عاشور: إن معنى تكثيرهم تيسير الله تعالى أسباب الكثرة لهم، فقوى فيهم التناسل، وحفظهم من أسباب الهلاك والموت، فكثرت مواليدهم، وقلت وفياتهم، وازدادت أعدادهم كثيرا في زمن لا يعهد في مثله مصير أمة إلى عددهم، فكان صدُّ النَّاس ومنعهم من الدخول في دين الله تعالى سعياً في تقليل حزب الله، وهذا كفران لنعمة تكثير الله لعددهم ونسلهم، وليعتبروا من الذين غضب الله تعالى عليهم، عندما استأصلهم، بعد أن كانوا كثيرين[218].

وأما حقيقة الشكر لله تعالى على نعمة الأولاد، فتكون بالقيام بطاعة الله تعالى في هؤلاء الأولاد، لا أن يكون الأولاد سبباً من أسباب معصية الله تعالى، لذا قال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿وَاعلَمُوا أَنَّما أَموَالُكُم وَأَولَادُكُم فِتنَةٌ وأنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجرٌ عَظيمٌ (28)﴾[219]. ومعنى قوله تعالى فتنة أي: امتحان واختبار منه سبحانه وتعالى لكم، إذ أعطاكم هذه النعم ليعلم أتطيعونه فيها، وتشكرونه عليها، أو تشتغلون بها عنه[220].

الحكمة الثانية: اختبار العبد هل يقيم حق الله تعالى في أولاده أم لا؟ إن لله تعالى على عباد في أبنائهم حقوقاً، جعلها امتحاناً واختباراً للآباء هل يؤدونها-كما أراد الله تعالى-في أبنائهم، أم لا. وحقوق الله تعالى على عباده في أبنائهم كثيرة ونذكر منها على سبيل الإشارة لا على سبيل الحصر ما يلي:

أولاً: التربية الصالحة للأبناء أمر الله تعالى عباده بأداء الحقوق على وجهها، ومنها تربية الأبناء تربية صالحة، لأن المقصود من تكثير النسل هو تكثير الموحدين لله تعالى. وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم المنهج الواضح لتربية الأبناء تربية صالحة، ومن ذلك الآيات التي في سورة لقمان والتي ابتدأت بقوله تعالى: ﴿وإذ قالَ لقْمانُ لِابنهِ وهُوَ يَعظُهُ يا بُنيَّ لا تُشرِك باللَّهِ إنَّ الشِّركَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ﴾[221]. فقد بدأت الوصية بأهم أمر وهو النهي عن الشرك، ثم بر الوالدين، ثم التذكير بعلم الله تعالى، ثم الأمر بإقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بمكارم الأخلاق من الصبر، والتواضع، وترك الاستكبار والاختيال والتبختر، والغض من الصوت[222]. فهذا هو منهج تربية الأبناء الذي ينبغي أن يقوم به الآباء تجاه أبنائهم، وهو ما أوجبه الله تعالى على الآباء. ولهذا الأمر كان من

---

[217] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 2، ص:128. والرازي، ***التفسير الكبير***، ج: 14، ص 315.

[218] ابن عاشور التونسي، ***التحرير والتنوير***، ج: 8 ب، ص: 249.

[219] الأنفال، 8/ 28.

[220] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج:4، ص: 42.

[221] لقمان، 31/ 74.

[222] تُقْرَأُ الآيات من سورة لقمان: الآيات من 14 -19.

صفات عباد الرحمن أنهم يسألون الله تعالى الذرية الصالحة، التي تقرُّ به أعين الآباء، قال الله تعالى: ﴿والَّذينَ يقُولونَ ربَّنَا هَب لَنا مِن أَزْواجِنا وذُرِّيَّاتِنا قرَّةَ أَعيُنٍ واجْعلْنا لِلمُتَّقينَ إِمامًا﴾[223]. قال القرطبي رحمه الله: قال ابن زيد في قوله: ﴿والَّذينَ يقُولُون رَبَّنا هَب لَنا مِن أَزوَاجِنا وَذُرِيَّاتِنا قرَّةَ أَعيُنٍ﴾ قال: يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم إلى الإسلام[224]. فكان دعاؤهم مقيداً بأن يكونوا قرة أعين، لا أن يكونوا سبب شقاء بمعصيتهم. وقال الماوردي في النكت والعيون عند هذه الآية: ارزقنا من أزواجنا، ومن ذرياتنا أعواناً ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾أي أهل عبادة وطاعة تقر به أعيننا في الدارين، في الدنيا بالصلاح، وفي الآخرة بالجنة[225].

ثانياً: عدم الانشغال بهم عما أمرهم الله تعالى به من واجبات إن إنجاب الأولاد نعمة وابتلاء في آنٍ واحد؛ ليظْهر من يلتهي بهم عما أوجبه الله تعالى عليه من فرائض وواجبات؛ ممن لا يلتهي. وقد نهى الله تعالى المؤمنين عن الانشغال بالأموال والأولاد عن عبادته، وطاعته فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا لا تُلْهِكُم أَموَالُكُم وَلَا أَولَادُكُم عَن ذِكرِ اللَّهِ وَمَن يَفعَل ذَلِكَ فَأُولَئكَ همُ الخَاسرُونَ﴾[226].

والذِّكر الوارد في الآية: هو كل عبادة تذكر بالله المعبود سبحانه وتعالى. وقال بعض العلماء: ذكر الله بالقلب: الخوف من الله تعالى، وباللسان: تلاوة القرآن وسائر الأذكار من تسبيح وتهليل وتمجيد وتكبير وتعلم العلوم الدينية والشرعية وتعليمها الناس وغيرها، والذكر بالأبدان: الصلاة وسائر العبادات البدنية. والمراد من ذلك نهي العباد عن الالتهاء عن الله تعالى والغفلة عنه بالأموال والأولاد. وقد كان المنافقون يبخلون بأموالهم، ولذلك قالوا: لا تنفقوا على من عند رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلم-وكانوا متعززين بالأولاد والعشيرة، مشغولين بهم وبأموالهم عن طاعة الله تعالى والتعاون مع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فنهى الله تعالى المؤمنين عن التشبه بهم من هذا الجانب. وقال سهل رحمه الله تعالى: لا تشغلكم أموالكم، ولا أولادكم عن أداء الفرائض في أول مواقيتها، فإن من شغله عن ذكر الله وخدمته عرض من عروض الدنيا فهو من الخاسرين[227].

---

[223] الفرقان، 25/ 74.

[224] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:19، ص:319.

[225] الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (المتوفى: 450هـ)، ***النكت والعيون***، ت ح: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية -بيروت/ لبنان ج: 4، ص: 160.

[226] المنافقون، 63/ 9.

[227] أبو الفداء، إسماعيل حقي بن مصطفى، ***روح البيان***، ج: 9، ص: 540-541.

ثالثاً: أن يكون الأولاد سبباً لطاعة الله تعالى ورسوله إن الله تعالى ابتلى عباده بنعمة الأولاد، فمن العباد من تكون له هذه النعمة سبباً من أسباب البعد عن الله تعالى ومعصيته، ومنهم من تكون له هذه النعمة سبباً من أسباب القرب من الله تعالى وطاعته، وقد حذر الله تعالى عباده من الافتتان بالأموال والأولاد، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا لا تَخونُوا اللَّهَ وَالرَّسولَ وَتَخونُوا أَماناتِكُم وَأَنتُم تَعلَمُونَ (27) وَاعلَمُوا أَنَّما أَموَالُكُم وَأَولَادُكمْ فِتنَةٌ وَأنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجرٌ عظِيمٌ (28)﴾[228]. وبذكر تفسير هاتين الآيتين وسبب نزولهما تنجلي الحكمة من الابتلاء بالأولاد من هذا الجانب. فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ قال: بترك فرائضه ﴿والرَّسولَ﴾ بترك سنته وارتكاب معصيته ﴿وَتَخُونوا أَمانَاتِكُم﴾لا تنقضوها والأمانة التي ائتمن الله عليها العباد[229]. ولما كان سبب الإقدام على خيانة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم هو حب الأموال والأولاد. نبه الله سبحانه وتعالى إلى أنه من الواجب على العقلاء أن يحترزوا عن المضار المتولدة من ذلك الحب. فقال سبحانه: ﴿أَنَّما أَموَالُكُم وأَولَادُكمْ فِتنَةٌ...الآية﴾[230]. وقال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿واعلَمُوا أَنَّما أَموَالُكُم وَأَولَادُكُم فِتنَةٌ وأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجرٌ عَظيمٌ﴾. واعلموا، أيها المؤمنون، أنما أموالكم وأولادكم التي أعطاكم الله إياها وخولكموها، ووهبكم إياها، ابتلاء واختبارٌ؛ أعطاكموها ليختبركم ويبتليكم بها، لينظر سبحانه وتعالى كيف أنتم عاملون من أداء حق الله تعالى عليكم فيها، والانتهاء إلى أمره ونهيه فيها[231].

وقد نزلت هذه الآية في أبي لبابة، عندما حاصر الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلح على ما صالح عليه بني النضير، بأن يسيروا إلى أرض الشام، فأبى أن يصالحهم إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان يناصحهم، لأنَّ أولاده وعياله وأمواله كانت عندهم، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتاهم فقالوا: يا أبا لبابة ما ترى؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ-رضي الله عنه-؟ فأشار لهم أبو لبابة بيده إلى حلقه: إنه الذبح فلا تفعلوا، ثم قال أبو لبابة رضي الله عنه: والله ما زالت قدماي؛ حتى علمت أني قد خنت الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله

---

[228] الأنفال، 8/27-28.

[229] السيوطي، ***الدر المنثور***، ج: 4، ص: 49.

[230] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج: 15، ص: 475.

[231] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج: 13، ص: 486.

وسلم، فنزلت فيه هذه الآية، فلما نزلت شدَّ نفسه على سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً حتى خرَّ مغشياً عليه، ثمَّ تاب الله سبحانه وتعالى عليه، فقيل له: يا أبا لبابة إن الله تعالى تاب عليك، فقال: لا والله لا أحلُّ نفسي حتى يحلني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحلَّه بيده. ثمَّ قال أبو لبَابة: إنَّ من تمام توبتي، أنْ أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأنْ أنْخلع منْ مالي-أي أتصدق به-فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجزيك الثلث أن تتصدق به[232].

وقال الله تعالى أيضاً: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا إنَّ مِن أَزوَاجِكُم وَأَولَادِكُم عَدُوًّا لَكُم فَاحذَرُوهُم وَإِن تَعفُوا وَتَصفَحُوا وَتَغفِرُوا فإنَّ اللَّهَ غفُورٌ رحِيمٌ (14) إنَّما أَموَالُكُم وَأَولَادُكُم فِتنَةٌ واللَّهُ عِندَهُ أَجرٌ عظِيمٌ(15)﴾[233]. سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية، فقال: "هؤلاء رجال من أهل مكة، أسلموا وأرادوا أن يأتوا المدينة، فلم يدعهم أزواجهم وأولادهم" فهو قوله: عدواً لكم فاحذروهم أن تطيعوا وتدعوا الهجرة. وقال أيضاً: لا تطيعوهم في معصية الله تعالى[234].

وجاء في الصحيحين قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه: أنه كتب إلى قريش يخبرهم بقصد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إياهم عام فتح مكة، فأطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك، فبعث بعض الصحابة إثر الكتاب فاسترجعوه، ثم دعا حاطباً فاعترف بما فعل، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه، فإنَّه قد خان الله ورسوله والمؤمنين. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: دعه، فإنه قد شهد بدراً، ما يدريك لعل الله تعالى اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. والصحيح أن هذه الآية عامة، وإن وردت على سبب خاص، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند جمهور العلماء[235].

الحكمة من الابتلاء بالصحة والعافية والأمن: إن الصحة والعافية والأمن نِعم عظيمة من الله تعالى على عباده، وقد ابتلاهم الله تعالى بها اختباراً للعبد هل يؤدي شكر هذه النعمة أم لا؟ كما قال الله تعالى: ﴿واللَّهُ أَخرَجكُم مِن بُطونِ أُمَّهاتِكُم لا تَعْلَمونَ شَيئًا وَجعَلَ لَكمُ السَّمعَ والْأَبصَارَ والْأَفئِدَةَ لَعَلَّكُم

---

[232] الواحدي، أسباب نزول القرآن، ج:3، ص: 235.

[233] التغابن، 64/ 14-15.

[234] الرازي، التفسير الكبير، ج:30، ص:556.

[235] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج: 4، ص: 41.

تَشكُرونَ﴾[236]. ثم بين الله تعالى في آيات أخرى أنه سيسأل الناس يوم القيامة عن هذه النعم، فقال الله تعالى: ﴿ثمَّ لَتُسئَلُنَّ يَومئِذٍ عنِ النَّعيمِ﴾[237]. ونقل القرطبي رحمه الله في معنى النعيم الوارد في الآية أقوالاً: أحدها: الصحة والأمن، قاله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. والثاني: الصحة والفراغ، قاله سعيد بن جبير رحمه الله تعالى. وفي البخاري: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ". والثالث: الإدراك بحواس السمع والبصر، قاله عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. ويؤيده قوله تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ [الاسراء: 36]. والحديث الصحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقول له: ألم أجعل لك سمعا وبصراً، ومالاً وولداً ...) الحديث. خرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. وقال مالك رحمه الله: إنه صحة البدن، وطيب النفس. وقيل: النوم مع الأمن والعافية[238]. ويؤيد ذلك أيضاً ما روي عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[239].

وقد بين الله تعالى في العديد من الآيات أن كثيراً من العباد لا يقومون بالشكر لله تعالى على ما أنعم عليهم به من النعم، ولا يستخدمونها فيما خلقت لأجله، قال الله تعالى: ﴿قُل هُو الَّذي أَنشَأَكُم وَجَعلَ لَكُمُ السَّمعَ والْأَبصارَ وَالْأَفئِدةَ قَليلاً ما تَشكُرونَ﴾[240]. فالسمع نعمة ليسمع بها العبد المواعظ والذكر والعلم النافع، والبصر ليبصر صنعَ الله تعالى وآثار قدرته، إلا أن الله تعالى بين أن قليلاً من العباد لا يستخدمون النعم فيما خلقت له[241].

وقد تكون نعمة الصحة إكراماً من الله تعالى للعبد جزاءً على حسن عمله كما قال الله تعالى: ﴿قُل يا عِبادِ الَّذينَ آمنُوا اتَّقوا رَبَّكُم لِلَّذينَ أَحسنُوا في هَذهِ الدُّنيَا حَسنةٌ وأَرضُ اللَّهِ واسِعةٌ إِنَّما يُوفَّى

---

[236] النحل، 16/ 78.

[237] التكاثر، 102/ 8.

[238] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج:20، ص:176-177.

[239] الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سوْرة بن موسى بن الضحاك (المتوفى: 279هـ)، ***سنن الترمذي***، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في القيامة، رقم الحديث: 2417.

[240] الملك، 67/ 23.

[241] البيضاوي، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ج:5، ص: 231.

الصَّابِرُونَ أَجرَهُم بِغَيرِ حِسابٍ﴾[242]. ونقل الإمام الطبري رحمه الله أن بعض العلماء ذهب إلى أن المراد من الحسنة الصحة والعافية[243].

المطلب الثاني: الحكمة من ابتلاء المؤمنين بالضراء

إن من سنة الله تعالى أن يبتلي عباده بأنواع كثيرة من الشدائد والضر، كالابتلاء بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، والابتلاء بالأمراض والإعاقات، والابتلاء بالجوائح السماوية، والابتلاء بالهجرة ومفارقة الأوطان، والابتلاء بموت الأنبياء والعلماء، والابتلاءات المتعلقة بالزوجين، والابتلاء بعقوق الأبناء، والابتلاء بسماع الأذى من الكافرين، والابتلاء بالسجن، والابتلاء بالهم والحزن وضيق الصدر، وغيرها. وكل هذه الابتلاءات لها حكمة عظيمة، أرادها الله تعالى العليم الحكيم، وفيما يلي شرح موجز لحكمة الله تعالى من تلك الابتلاءات.

الحكمة من ابتلاء المؤمنين بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات: ذكر الله تعالى في آية واحدة ابتلاء عباده بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وقد جعل الله تعالى هذه الابتلاءات امتحاناً واختباراً للعبد، وبما أن المذكورات وردت في آية واحدة؛ سيتم ذكر بعض الحكم الربانية من هذه الابتلاءات بشكل عام، حسب ما بينته الآيات القرآنية الكريمة وما ذكره أهل التفسير في تفاسيرهم، ثم نفرد ذكر حكمٍ أخرى لبعض هذه الابتلاءات؛ كون بعض الابتلاءات لها حكم تختلف عن حكم الابتلاءات الأخرى.

الحكمة الأولى: اختبار إيمان العبد وصبره على ابتلائه بكل ما يضر به: لقد جرت سنة الله تعالى أن يبتلي عباده بأصناف الابتلاءات والمحن، ليمتحن ثباتهم على الإيمان، فيظهر الصادق من الكاذب، ويظهر الثابت من المتزعزع، ويظهر المؤمن من المنافق، قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُترَكوا أَن يَقولوا آمنَّا وهُم لَا يُفتَنُونَ (2) ولَقَد فَتنَّا الَّذينَ مِن قَبلِهِم فَلَيعلَمنَّ اللَّهُ الَّذينَ صَدقُوا ولَيَعلَمَنَّ الكَاذِبينَ (3)﴾[244]. وقال الله تعالى: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَن يَعبُدُ اللَّهَ علَى حَرفٍ فَإن أَصَابهُ خَيرٌ اطمَأَنَّ بِهِ وإِن أَصَابتهُ فِتنَةٌ انْقَلبَ على وَجههِ خسِرَ الدُّنيا وَالآخِرةَ ذَلك هُو الخُسرانُ المُبينُ﴾[245]. قال النسفي رحمه

---

[242] الزمر، 39/ 10.

[243] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج: 21، ص 269.

[244] العنكبوت، 29/1-2.

[245] الحج، 22/ 11.

الله: ﴿ومِنَ الناس مَن يَعبُدُ الله على حَرفٍ﴾ أي: على طرف من الدين، وهذا مَثَلٌ لكونهم في حالة قلق واضطراب في دينهم، فلم تكن قلوبهم مطمئنة بالإيمان ﴿فَإِن أَصابَهُ خيرٌ﴾ من صحة، وعافية، وسعة في المعيشة ﴿اطمأن﴾ استقر وسكن قلبه ﴿بِهِ﴾ أي بالخير الذي أصابه فعبد الله تعالى وأطاعه ﴿وإن أَصابَتهُ فِتنةٌ﴾ من شر وبلاء في جسده، وضيق في رزقه ومعيشته ﴿انقلب على وَجهِهِ﴾ أي: ارتد عن دينه ورجع إلى الكفر، كالذي يكون على طرف من العسكر في الحرب، فإن أحس بالظفر والغنيمة اطمأن واستقرَّ، وإلا فرَّ وانهزم. وقال العلماء: نزلت في قوم من الأعراب، هاجروا إلى المدينة، فكان أحدهم إذا صح في بدنه، وولدت امرأته غلاماً سوياً، ونتجت فرسه مهراً سوياً، وكثر ماله وماشيته، قال ما أصبت منذ دخولي هذا الدين إلا خيراً فيطمئن لذلك، وإن كان الأمر بعكس ذلك، قال ما رأيت إلا شراً، فيرتد وينقلب عن دينه. ﴿خَسِرَ الدنيا والآخرة﴾ وذلك بالقتل في الدنيا، لأنه ارتد عن دينه، ودخول النار والخلود فيها في الآخرة[246].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَنَبلُوَنَّكُم بِشيءٍ مِن الْخَوفِ والْجوعِ وَنَقْصٍ منَ الْأَموَالِ والْأَنفُسِ والثَّمرَاتِ وبَشِّرِ الصَّابرِينَ (155) الَّذينَ إذَا أَصابَتهُم مُصيبَةٌ قالُوا إنَّا لِلَّهِ وإنَّا إلَيهِ راجِعُونَ (156) أُولئِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِم وَرحْمةٌ وَأُولئِكَ همُ المُهْتدُونَ (157)﴾[247]. فقوله تعالى: ﴿ولنبلونكم﴾ قسم من الله تعالى بأنه سيبتلي الأمة المحمدية ويمتحنها ويختبرها، ليظهر بالابتلاء المطيع من العاصي، وليس المقصود ليعلم شيئا لم يكن عالماً به ﴿بشيء من الخوف﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: الخوف من العدو، و﴿الجوع﴾ القحط ﴿ونقص من الأموال﴾: إما بخسارتها أو بهلاكها، ﴿والأنفس﴾ بالقتل أو بالموت، وقيل: نقص الأنفس المرض والشيب، ﴿والثمرات﴾ أي: بالجوائح السماوية في الثمار. وحكي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: الخوف خوف الله تعالى، والجوع صيام رمضان، ونقص من الأموال أداء الزكاة والصدقات، والأنفس الأمراض، والثمرات موت الأولاد، لأن ولد الرجل ثمرة قلبه[248].

وقد جاء التعبير عن الابتلاء بلفظ "بشيء" أي: بقليل من ذلك، والنقص من الأموال بذهاب بعضها، ونقص الأنفس بموت الأصحاب، والأقرباء، وأما نقص الثمرات فيكون بنقص غلات

---

[246] النسفي، ***مدارك التنزيل وحقائق التأويل***، ج:2، ص: 430.

[247] البقرة، 2/ 155-157.

[248] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج: 1، ص: 186.

الأراضي والحدائق فلا تغل البساتين والأشجار كما كانت تنتج في سائر الأعوام. كما قال بعض السلف: كانت بعض أشجار النخيل لا تثمر غير ثمرة واحدة[249].

ثم إن من سنة الله تعالى في عباده أن يبتليهم على قدر إيمانهم، فعن سعد بن أبي وقاصﷺ قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشدُّ بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه"[250]. قال القشيري رحمه الله: ابتلاهم بالنعمة ليظهر شكرهم، وابتلاهم بالمحنة ليظهر صبرهم، وابتلاهم بالخوف وفيه تصفية لصدورهم، وبالجوع وفيه تنقية لأبدانهم، وبنقص من الأموال تزكو به نفوسهم، وبمصائب النفوس يعظم بها عند الله أجرهم، وبآفة الثمرات يتضاعف من الله خلفهم[251].

وذكر الإمام الرازي رحمه الله تعالى حكماً أخرى ومنها: أولاً: أن الكفار إذا شاهدوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأصحابه رضي الله عنهم، مقيمين على دينهم ثابتين عليه مع ما يصيبهم من المحنة والضر والجوع، فيعلمون حينذاك أن المؤمنين لم يختاروا هذا الدين إلا لقطعهم بصحته، فيدعوهم هذا الأمر إلى مزيد من تأمل دلائله، والنظر في شأنه. ثانياً: أن بعض المنافقين أظهروا المتابعة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم طمعاً في المال، والسعة في الرزق فإذا اختبره تعالى وابتلاه بالمحن فعند ذلك يتميز المنافق عن الصادق، لأن المنافق إذا سمع بأنه ريما يبتلى بذلك نفر من هذا الدين وتركه، فكان في هذا الابتلاء هذه الحكمة. ثالثاً: أن إخلاص العبد لله في حالة الاختبار والابتلاء والرجوع إلى الله تعالى، يكون أكثر من إخلاصه في حال الرفاهية والنعيم، فكانت هذه إحدى الحكم من هذا الابتلاء[252].

---

[249] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج:1، ص: 467.

[250] ابن ماجه القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد (المتوفى: 273هـ)، ***سنن ابن ماجه***، ت ح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية -فيصل عيسى البابي الحلبي، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم الحديث: 4023.

- والترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سوْرة بن موسى بن الضحاك (المتوفى: 279هـ)، ***سنن الترمذي***، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم الحديث: 2398.

- ابن حبان البُستي، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن معاذ بن مَعْبدَ (المتوفى: 354هـ)، ***الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان***، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، ت ح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1408 هـ -1988 م، ج:7، ص: 160.

- وبوب له البخاري، ***الجامع المسند الصحيح المختصر***، كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل.

[251] القشيري، ***لطائف الإشارات***، ج:1، ص: 139-140.

[252] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج:4، ص: 129.

وقد جرت عادة كثير من المفسرين كالخازن والبغوي والشربيني[253] رحمهم الله تعالى أن يذكروا بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند الحديث عن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيهِم صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِم وَرحْمةٌ وأُولَئِكَ هُمُ المُهتَدونَ﴾[254]. وسأورد بعضها، مقدماً لكل حديث حكمة من حكم الابتلاء كما يشير إليها ذلك الحديث.

الحكمة الثانية: إرادة الله تعالى الخير بالمبتلى، وتكفير ذنوبه: عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه»[255]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة، في نفسه وماله وولده، حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة»[256].

الحكمة الثالثة: الابتلاء دليل محبة الله تعالى للعبد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[257].

الحكمة الرابعة: الأجر العظيم للمبتلى: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب؛ لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض»[258]. وقد بشر الله تعالى العبد المؤمن الذي يستقبل المصيبة بالصبر

---

[253] الخازن، ***لباب التأويل في معاني التنزيل***، ج: 1، ص:95. والبغوي، أبو محمد الحسين ابن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، ج:1، ص: 187إلى 190. والشربيني الشافعي، شمس الدين محمد بن أحمد (المتوفى: 977هـ)، ***السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير***، مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة 1285 هـ ج:1، ص: 106.

[254] البقرة، 2/ 157.

[255] البخاري، ***المصدر نفسه***، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم الحديث: 5641.

256 أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، ***مسند الإمام أحمد بن حنبل***، ت ح: شعيب الأرنؤوط -عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ -2001 م، ج: 13، الصفحة: 248، رقم الحديث: 7859.

[257] ابن ماجه القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد، ***سنن ابن ماجه***، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم الحديث: 4031.

[258] الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سوْرة بن موسى بن الضحاك (المتوفى: 279هـ)، ***سنن الترمذي***، باب:(...) رقم الحديث: 2402.

الجميل، فقال تعالى: ﴿وَبشِّرِ الصَّابرِينَ﴾ وذلك لأنهم اتصفوا بأمرين: الأمر الأول: اعترافهم لله تعالى بالربوبية، وإقرارهم بالرجوع إليه. وقال الطبري رحمه الله عند قوله تعالى ﴿وبشر الصابرين﴾: وبشّر، يا محمد، عبادي الصابرين، الذين يوقنون أن جميع ما ينزل بهم من نقم فمنّي، فيوحِّدونني ويُقرون بعبوديتي، ويصدقون بيوم المعاد فيستسلمون لقضائي وقدري، ويخافون عقابي ويرجون ثَوابي، ويقولون عند امتحاني إياهم بالمحن والمصائب التي أمتحنهم بها، إننا مماليك ربنا ومعبودِنا ونحن أحياء، ونحن عبيده وإليه مصيرنا بعد مَماتنا[259]. ومعنى الاسترجاع: إقرار القلب بالرجوع إلى الله تعالى، وليس باللسان فقط.

والصبر والاسترجاع لا يكون باللسان فقط، بل الصبر يكون باللسان وبالقلب بأن يقرَّ قلبه بأنه خلق لمعرفة الله سبحانه وتعالى وتزكية نفسه، وأنه راجع وعائد إلى ربه بالبقاء الأبدي، وراحل عن الدنيا الفانية، ويتذكر نعم الله تعالى التي لاتعد ولا تحصى، ليرى أن ما أعطاه أضعاف ما سلبه، فتهون مصيبته عند ذلك ويستسلم لله تعالى، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أعطيت أمتي شيئا لم يعطه أحد من الأمم، أن تقول عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون» وعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا «من استرجع عند المصيبة، جبر الله تعالى مصيبته، وأحسن عقباه، وجعل له خلفا صالحا يرضاه»[260]. والأمر الثاني: الصبر عند الصدمة الأولى، إيماناً بقضاء الله تعالى وقدره: ففي قول الله تعالى: ﴿وَلَنبلُوَنَّكُم بِشَيءٍ مِن الْخَوفِ وَالْجوعِ وَنَقصٍ منَ الأَموَالِ والْأَنْفسِ وَالثَّمرَاتِ وبَشِّرِ الصَّابرِينَ (155) الَّذينَ إذا أَصَابَتْهم مُصِيبةٌ قالُوا إنَّا لِلَّهِ وإنَّا إلَيهِ راجعُونَ (156) أُولَئكَ علَيهِم صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهم وَرَحمَةٌ وأُولَئكَ همُ المُهتَدونَ (157)﴾[261] بشارة للصابرين الذين يؤمنون بالقضاء والقدر، ولكن لا تتحقق البشارة إلا بالصبر عند الصدمة الأولى، محتسبين الأجر عند الله تعالى قائلين: ﴿إنَّا لِلَّهِ وَإنَّا إلَيْهِ راجِعُونَ﴾ وتلك بشارة بحسن العاقبة في جميع أمورهم، فيوفي الله تعالى الصابرين أجرهم بغير حساب، ولهم من الله مغفرة لسيئاتهم، ورحمة خاصة بهم يرون أثرها عند نزول المصيبة في سكينة النفس، وبرد القلوب. وهذه الرحمة خاصة بالمؤمنين، لأن الكافرين تضيق بهم الدنيا إذا نزلت بهم المصائب، وقد ينتحر ويقتل نفسه، والمتحققون بالصبر: هم المهتدون إلى طريق الحق والصواب،

---

[259] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج:3، ص: 223-224.

[260] الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: 1270هـ)، ***روح المعاني في تفسير القرآن العظيم***، والسبع المثاني، ت ح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، 1415 هـ ج:1، ص:421.

[261] البقرة، 2/ 155-157.

وصالح الأعمال، ويشترط أن يتحقق المصاب بالصبر عند الصدمة الأولى؛ لحديث أنس رضي الله عنه «إنما الصبر عند الصدمة الأولى». وأما البكاء والحزن مع الرضا بالقضاء والقدر، والتسليم لله تعالى، فلا ينافي الصبر والإيمان، فقد جاء في الحديث الصحيح أن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بكى عندما مات ولده إبراهيم، فقيل له: أليس قد نهيتنا عن ذلك؟ فقال: إنها الرحمة، ثم قال: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليجزع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

وأما الحزن المذموم: فهو فعل المنهيات، من لطم الخدود، وشقّ الجيوب، والنواح على الأموات، والتلفظ بعبارات السخط على الله تعالى، والاعتراض على ما حكم به وقدّره. وأخرج الإمام أحمد والترمذي رضي الله عنهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا مات ولد العبد، قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسمّوه بيت الحمد». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما أصابتني مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم: الأولى: أنها لم تكن في ديني، والثانية: أنها لم تكن أعظم مما كانت، والثالثة: أن الله يجازي عليها الجزاء الكبير» ثم تلا قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُولئِكَ عَلَيهِم صَلَواتٌ مِن رَبِّهِم وَرحمَةٌ، وأُولئِكَ هُم الْمهتَدُونَ﴾. فالآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، حثت على الصبر والاسترجاع عند المصيبة، والقول بما يرضي الله تعالى، والاستسلام لقضائه وقدره، والرضا بحكمه، فإذا التزم العبد بذلك جبر الله تعالى له المصيبة، وعوض صاحبها خيراً منها، وأثاب الصابر بالقبول والفوز بالجنة[262].

وقال الطبري رحمه الله أيضاً: هؤلاء الصابرون الذين وصفهم الله عز وجل لهم مغفرة من ربهم. ولهُم مع المغفرة، رحمة من الله ورأفة. ويعطيهم مع المغفرة والرحمة على اصطبارهم على ابتلاءاته، وتسليمهم لقضائه، الهداية وإصابة طريق الحقّ، لأنهم لا يقولون إلا مَا يُرْضي عنهم، ولا يفعلون إلا ما يستوجبون به من الله جزيل الثواب. فالاهتداء: الرشد إلى صواب الأمور. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الذين إذا أصابتهم مُصيبه قالوا إنا لله وإنا إليه رَاجعون أولئكَ عليهم صَلوات من ربهم وَرحمه وأولئك هم المهتدون﴾ أخبر الله تعالى أنّ العبد المؤمن إذا سَلّم

[262] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج:2، ص: 41-42.

الأمرَ إلى الله، ورَجع إليه واسترْجع عند نزول المصيبة، كتب الله له ثلاث خصال من الخير: الصلاةُ من الله، والرحمة، وتحقيق سَبيل الهدى[263].

وبين القرطبي رحمه الله الحكمة من الصبر عند الصدمة الأولى بعدما أورد الحديث في ذلك قائلاً: قوله تعالى: ﴿وبشر الصابرين﴾ أي بالثواب على الصبر. وأصل الصبر الحبس، وثوابه غير مقدر، إلا أنه لا يكون إلا بالصبر عند الصدمة الأولى، كما روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى". أي إنما الصبر الذي يشق على النفس هو الذي يعظم ثوابه عليه، ويكون ذلك عند هجوم المصيبة في بدايتها، فالصبر عند الصدمة الأولى، يدل على قوة القلب وتمكنه من الصبر، وأما بعد برودة المصيبة، فالجميع يصبر ولذلك قيل: يجب على العاقل أن يلتزم عند نزول المصيبة، ما لا بد للأحمق منه بعد ثلاثة أيام[264].

والمقصود من الهداية الواردة في الآية: هي الاهتداء المطلق للحق والصواب، وليس المقصود من الاهتداء الاسترجاع، والاستسلام لله، لأن الاهتداء متقدم عليهما فلا بد لتأخيره، كأنه قيل أولئك الصابرون هم المختصون بالاهتداء لكل حق وصواب، ولذلك استسلموا لقضاء الله عز وجل واسترجعوا عند نزول المصيبة. وعلى القول الثاني: هو الاهتداء والفوز بجميع المطالب، ومعنى ذلك أولئك هم الفائزون بمباغيهم ومطالبهم الدينية والدنيوية، فإن من نال رحمة الله تعالى ورأفته لم يفته أي مطلب[265].

ويقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿ما أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهدِ قَلْبَهُ واللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾[266]. قال الطبري رحمه الله: قوله تعالى ذكره: لم يصب أحد بمصيبة إلا بإذن الله عز وجل، وقضائه وقدره ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ أي: ومن يصدق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله، يهد قلبه: أي: بالتسليم لأمره والرضا بقضائه وقدره[267].

---

[263] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج: 3، ص: 222-223.

[264] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج:2، ص: 174.

[265] أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ)، ***إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم***، دار إحياء التراث العربي – بيروت ج:1، ص: 181.

[266] سورة التغابن: 11.

[267] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:23، ص: 421.

وقد ورد ذكر الصبر في القرآن الكريم في أكثر من سبعين موضعا، وذلك لعظمة مكانته من الدين. قال بعض العلماء: كل الحسنات لها أجر محصور من عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلّا الصبر فإنه لا يحصر أجره، لقوله تعالى: ﴿إِنَّما يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجرَهُم بِغَيرِ حِسابٍ﴾[268]. وذكر الله سبحانه وتعالى للصابرين ثمانية أنواع من الكرامة: أوّلها: المحبة، قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصابرين﴾.[269] والثاني: النصر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَع الصَّابرين﴾[270]. والثالث: غرفات الجنة. قال تعالى: ﴿يُجزَونَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا﴾[271]. والرابع: الأجر الجزيل، قال تعالى: ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسابٍ﴾[272]. والأربعة الأخرى المذكورة في هذه الآية، ففيها البشارة، قال: ﴿وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[273]. والصلاة، والرحمة، والهداية ﴿أولئكَ عَليهِم صَلواتٌ مِن رَّبِّهِم وَرحمةٌ وَأُولئكَ هُم المُهتَدونَ﴾ والصابرون على أربعة أوجه: الصبر على البلاء، وهو منع النفس من التسخيط والهلع والجزع. والصبر على النعم وهو تقييدها بالشكر، وعدم الطغيان والتكبر بها. والصبر على الطاعة وذلك بالمحافظة والدوام عليها. والصبر عن المعاصي بكف النفس عن ارتكابها، وفوق الصبر التسليم وهو ترك الاعتراض والتسخيط ظاهراً، وترك الكراهة باطناً، وفوق التسليم: الرضا بالقضاء، وهو سرور النفس بفعل الله، وهو صادر عن المحبة، وكل ما يفعل المحبوب محبوب[274].

وأما الحكم الخاصة من الابتلاء بالجوع والخوف فهي:

الابتلاء بالجوع والخوف عقوبة لمن كفر النعم: فالله تعالى يبتلي عباده بالخوف والجوع عقوبة لهم على بطرهم، لأن النعم تدوم وتزيد بالشكر قال الله تعالى: ﴿وَإذ تَأذَّنَ ربُّكُم لَئِن شكَرتُم لأَزيدنَّكُم وَلَئِن كفَرتُم إنَّ عذَابِي لَشديدٌ﴾[275]. وتزول بالجحود والكفران، قال الله تعالى: ﴿وَضَربَ اللَّهُ مَثلًا قَريَةً كَانَت آمنَةً مُطْمئنَّةً يأْتيهَا رِزقُها رَغدًا مِّن كلِّ مَكانٍ فَكفَرتْ بِأَنعُمِ اللَّهِ فَأذاقَها اللَّهُ لِباسَ الجُوعِ والخَوفِ

---

[268] الزمر، 39/ 10.

[269] آل عمران، 3/ 146.

[270] البقرة، 2/ 153.

[271] الفرقان، 25/ 75.

[272] الفرقان، 25/ 4.

[273] الزمر، 39/ 10.

[274] ابن جزي الكلبي، ***التسهيل لعلوم التنزيل***، ج:1، ص: 103.

[275] إبراهيم، 14/ 7.

بِما كَانوا يَصْنعُونَ﴾[276]. ففي هذه الآية ذكر الله تعالى القرية للعبرة والعظة، حيث كانت آمنة من العدو، لا يزعجها خوف، يأتيها رزقها هنيئاً سهلاً واسعاً من سائر البلاد، فجحدوا بنعم الله تعالى، فعمّهم الله بعقوبة الجوع والخوف، وأبدلهم بالأمن خوفاً، وبالغنى فقراً وجوعاً، وبالسرور حزناً وألماً، فذاقوا مرارة العيش بعد هناءته، بسبب أفعالهم المنكرة[277].

ثم إن الحكمة من الابتلاء بالجوع والخوف؛ قد تكون تنبيهاً على أن هناك نعماً عظيمة أعظم من نعمة الإطعام والأمن، وتلك النعم قد جحدها العباد، فاستوجبوا العذاب الشديد، وقد أشار إلى ذلك بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿وَضربَ اللَّهُ مَثَلًا قَريةً كَانتْ آمِنةً مُطمَئنَّةً يأْتِيها رزْقُها رَغدًا مِّن كُلِّ مكَانٍ فَكفَرتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَها اللَّهُ لِباسَ الجُوعِ وَالخَوفِ بِما كانُوا يَصنَعونَ﴾[278]. أي: إن الله تعالى ذكر لهذه القرية صفات ثلاث: الأولى: كونها آمنة لا يغار عليهم، وكان الأمر في مكة كذلك، فالعرب كان يغير بعضهم على بعض، أما أهل مكة فلا يغير عليهم أحد لأنهم أهل حرم الله تعالى، والعرب كانوا يعظمونه ويخصونه بالتكريم والاحترام. والثانية: مطمئنة: معناه أنها مستقرة وساكنة، فأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال منها لضيق أو خوف. ففي الآية إشارة إلى نعم عظيمة، فقوله تعالى: ﴿آمنة﴾ إشارة إلى الأمن، وقوله: ﴿مطمئنة﴾ إشارة إلى الصحة، فهواء ذلك البلد كان ملائماً لأمزجتهم، فاطمأنوا إليه، واستقروا فيه، وقوله: ﴿يأتيها رزقها رغداً من كل مكان﴾ إشارة إلى الكفاية. ثم إنه تعالى لما وصف القرية بالصفات الثلاث-الأمن والاطمئنان والكفاية-قال: ﴿فكفرت بأنعم الله﴾ الأنعم جمع نعمة، وجاء اللفظ القرآني معبراً بجمع قلة-أنْعُم ولم يجمع بلفظ نِعَم-للتنبيه بالأدنى على الأعلى أي: عندما استوجبوا العذاب على كفران نعمٍ قليلة، فكفران النعم الكثيرة أولى بإيجاب العذاب، وهذا مثل أهل مكة لأنهم كانوا في نعمة الأمن والطمأنينة والرزق الوفير، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظمى، وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فكفروا به، وآذوه أشد الإيذاء، فسلط الله تعالى عليهم البلاء. وقال المفسرون: عذبهم الله سبحانه وتعالى بالجوع حتى أكلوا الجيف، أما ابتلاؤهم بالخوف فهو خوفهم من سرايا النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي كان يبعثها فيغيرون عليهم.

---

[276] النحل، 16/ 112.

[277] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج:14، ص: 251.

[278] النحل، 16/ 112.

وقوله تعالى ﴿بما كانوا يصنعون﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي بما فعلوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين كفروا به وكذبوه، وأخرجوه من مكة، وهموا بقتله[279]. وفي هذا إشارة لأولي الألباب إلى أن الابتلاء بالجوع يكون بسبب جحود نعمة الأرزاق والخيرات، التي لم يُشْكر الله تعالى عليها، وأن الابتلاء بالخوف بسبب جحود نعمة الأمن، وأنهم لم يغتنموا هذه النعم في طاعة الله تعالى ورضوانه، وذلك لأن من سنة الله تعالى أن النعم تزداد بالشكر، وأن الجحود والكفران يزيلها، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذ تَأَذَّنَ ربُّكُم لَئن شَكَرتُم لَأَزيدنَّكُم وَلَئِن كَفَرتُم إنَّ عَذابِي لَشدِيدٌ﴾[280]. فكان الابتلاء بالجوع والخوف، عقوبة على ترك الشكر على نعمتي الرزق والأمن.

الحكم الخاصة من الابتلاء بالفقر (نقص الأموال). تقدم الحديث فيما مضى عن حكم الابتلاء بالمصائب بشكل عام، وفي هذه الفقرة سيتم الحديث عن بعض الحكم الخاصة من الابتلاء بالفقر ونقص من الأموال.

الحكمة الأولى: الفقر سبب لرقة القلب والاستجابة لدعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام: إن الله تعالى هو الحكيم العليم، وهو الذي قدّر الفقر على الفقراء، ليكون أدعى لاستجابتهم للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وذلك لأن الغنى والترف والبطر قد يجرُّ صاحبه إلى الطغيان والاستكبار والاستغناء عن الله تعالى، والإعراض عن دعوة الأنبياء والرسل، وأما الفقير فإنه رقيق القلب سهل الطباع، لذا كان أكثر أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الفقراء والضعفاء والمساكين، فكان في إفقارهم كمال الرحمة بهم، قال تعالى: ﴿وَما أَرسَلنَا في قَريةٍ مِن نَّذِيرٍ إلَا قَالَ مُترَفوهَا إنَّا بِما أُرسِلتُم بهِ كافرُونَ (34) وقَالوا نَحنُ أكْثرُ أموَالًا وأَولَادًا وما نحنُ بمُعَذَّبينَ (35) قُل إنَّ ربِّي يبسُطُ الرِّزقَ لِمن يَّشَاءُ ويَقْدرُ ولَكِنَّ أكثَرَ النَّاس لا يَعلمُونَ (36) وما أَموَالُكُم ولَا أَولادُكُم بِالَّتي تُقرّبُكم عِندَنا زلْفَى إلَّا من آمنَ وعَمِلَ صالحًا فأُولئِكَ لَهم جَزاءُ الضِّعْفِ بما عَملُوا وهُم في الْغُرُفات آمنُونَ (37) والَّذين يَسعَونَ في آياتنا مُعاجزِينَ أُولَئك فِي العَذابِ مُحضَرونَ (38) قُل إنَّ ربِّي يبسُطُ الرِّزقَ لمَن يَشاءُ من عِباده ويَقدرُ لهُ ومَا أَنفَقتُم مِن شَيءٍ فهُو يُخْلِفُهُ وهُو خَيرُ الرَّازقينَ (39)﴾[281]. ففي هذه الآيات عبرة للفقراء، لأن المسوغ للكفر هو الاعتداد بالأموال والأولاد، لذا قال الله تعالى: ﴿وقَالوا نَحنُ أكْثرُ أَمْوالًا وأَولادًا ومَا نَحنُ بمُعَذَّبينَ﴾ أي: وقال المترفون الكافرون للرسل وأتباعهم المؤمنين: إن الله عز وجل فضلنا

---

[279] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج: 20، ص:279-280.

[280] إبراهيم، 14/ 7.

[281] سبأ، 34/ 34 -39.

عليكم بالأموال والأولاد في الحياة الدنيا، أما أنتم فجعلكم فقراء وضعفاء، وهذا دليل تفضيلنا وتميزنا، وهو دليل رضا الله عنا، محبته لنا، وما كان الله ليعطينا هذا العطاء في الدنيا ويحسن إلينا، ثم يحرمنا ويعذبنا يوم القيامة.

فالفقراء والضعفاء يعلمون أنَّ الله تعالى سلمهم من الاستدراج الذي ابتلي به أهل الكفر والنفاق، وإن الدنيا لا تعدل عند الله سبحانه تعالى جناح بعوضة، لذا فإنه تعالى يعطيها للمؤمن والكافر، والتقي والفاجر، وليس ذلك لكرهٍ من الله تعالى لمن ضيق عليه، ولا لمحبة لمن وسع عليه، وإنما له تعالى في ذلك حكمة بالغة تامة، ولأن الدنيا لا تساوي عند الله شيئاً، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة؛ ما سقى كافراً منها شربة ماء» رواه الترمذي. وقال الله تعالى-بعد أن بين أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴿ولكِنَّ أَكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمُونَ﴾ أي: إن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة السنن الإلهية في الكون، فقياس الدار الآخرة على دار الدنيا في مسألة الرزق غلط واضح، فقد يعطي الله سبحانه وتعالى الكافر والعاصي استدراجاً، ويمنع المؤمن الطائع اختباراً وامتحاناً ليصبر، فتزداد حسناته عند ربه تعالى، وبهذا يتضح أن ما يزعمه أهل الترف من أن مدار التوسعة في المال والعطاء هو الكرامة والشرف، ومدار التضييق هو الذل والهوان، كلام باطل لا حقيقة له في تقدير الله سبحانه وتعالى. وأما ميزان القرب من الله تعالى والتكريم عنده فليس بكثرة الأموال والأولاد، وإنما بالإيمان الصادق والعمل الصالح، قال تعالى : ﴿وَما أَموالكُم ولا أَولادكُم بِالّتي تُقربكُم عِندنا زلْفى إِلَّا من آمنَ وعمِلَ صالحاً، فأُولئكَ لهُم جزاءُ الضِّعفِ بما عمِلوا، وهُم في الْغُرُفاتِ آمنونَ﴾ أي: وليست كثرة أموالكم وأولادكم دليل رضائنا عنكم، ومحبتنا لكم، ولا تقربكم من فضلنا ورحمتنا، إنما هي فتنة لكم واختبار، لنعلم من يستخدمها في الطاعة، ممن يستخدمها في المعصية، أما المؤمن الذي يعمل الصالحات، الذي يؤدي الفرائض، ويستعمل أمواله في طاعة ربه سبحانه وتعالى، فإن إيمانه وعمله يقربه إلينا، ويكون مرضيا عندنا، ولهم جزاء مضاعف لحسناتهم، فنجازيهم الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مائة ضعف، ولهم مع ذلك الجزاء الأمان من كل مكروه في غرفات جنان النعيم.

ثم كرر سبحانه وتعالى بأنه وحده الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره في قوله تعالى: ﴿قُل إِنَّ ربِّي يبسُطُ الرِّزقَ لمَن يَّشَاءُ مِن عبادِهِ ويَقدِرُ لهُ وما أنفقتُم من شَيءٍ فهُو يُخْلِفُه وهُو خَيرُ الرَّازقينَ﴾ وذلك للتأكيد أنه سبحانه وتعالى هو وحده من يبسط الرزق، وهو وحده من يضيقه لمن يشاء من عباده،

على وفق ما تقتضيه حكمته البالغة[282]. فالفقر وقلة المال فيه خير للإنسان المؤمن، ولله تعالى حكم عظيمة لو أطلع الله تعالى عليها الفقراء لسجدوا لله تعالى شكراً على ما هم عليه من الفقر وضيق العيش.

الحكمة الثانية: الفقر يمنع البغي في الأرض: إن كثيراً من الفقراء يتمنون الغنى والسعة في المعاش، وأن يكونوا في حالة من الثراء والبهجة والزينة كما هو حال كثير من الأغنياء، ولكن الله تعالى العظيم في حكمته بين لعباده أنه لو بسط الرزق لهم لبغوا في الأرض، قال الله تعالى: ﴿ولَو بَسطَ اللَّهُ الرِّزقَ لِعِبادِه لَبغَوا في الأرضِ وَلكِن يُنزِّلُ بِقدرٍ مَّا يشاءُ إنَّهُ بِعبادهِ خبيرٌ بصيرٌ﴾[283].

نزلت هذه الآية في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الدنيا والغنى. قال خباب بن الأرت رضي الله عنه: فينا نزلت هذه الآية، وذلك أنا نظرنا إلى أموال قريظة والنضير فتمنيناها، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية[284].

والبغي هو الظلم، أي: لبغى الناس على بعضهم، لأن الغنى سبب للبطر، وفي حال قارون عبرة لمن أراد أن يعتبر. وقال عليه الصلاة والسلام: "أخوف ما أخاف على أمتي، زهرة الدنيا وكثرتها"[285].

وأفعال الله سبحانه وتعالى لا تخلو عن فائدة ومصلحة للعبد، فقد يعلم الله من حال العبد أنه لو بسط عليه الرزق وأغناه لقاده ذلك إلى الفساد، فلا يفتح الله عليه أبواب الغنى، لمصلحته وهذا من كمال رحمته سبحانه وتعالى بذلك العبد. فليس في ضيق الرزق دليل على الذل والهوان، ولا في سعته فضيلة وكرامة. وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: "من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، وإني لأسرع شيء إلى نصرة أوليائي، وإني لأغضب لهم كما يغضب الليث الحرِد، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره إساءته ولا بد له منه، وما تقرب إلي عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه، وما يزال عبدي المؤمن يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيداً، فإنْ سألني أعطيته، وإن دعاني أجبته، وإنَّ من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة، وإني عليم أن لو أعطيته إياه لدخله العجب فأفسده، وإن من عبادي المؤمنين من لا

---

[282] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج: 22، ص: 194-199

[283] الشورى، 42/ 27.

[284] الواحدي، ***أسباب نزول القرآن***، ج:1، ص: 375.

[285] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 4، ص: 223.

يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده الفقر، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده الغنى، وإني لأدبر عبادي لعلمي بقلوبهم فإني عليم خبير. ثم قال أنس رضي الله عنه: اللهم إني من عبادك المؤمنين الذين لا يصلحهم إلا الغنى، فلا تفقرني برحمتك[286].

الحكمة الثالثة: بالفقر يتم اختبار عفة الفقراء: قال الله تعالى: ﴿لِلفقَراءِ الَّذينَ أحصِرُوا في سبِيل اللَّه لا يستَطيعونَ ضربًا في الْأَرضِ يَحسَبُهمُ الجاهلُ أَغنِياءَ من التّعفّف تَعرفُهُم بسِيماهُم لا يَسأَلُون النَّاس إلحافًا وما تُنفِقُوا مِن خَيرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عليمٌ﴾[287]. نزلت هذه الآية في فقراء المهاجرين رضي الله عنهم، وكانوا فقراء لا يملكون مالاً وليس لهم أهل يأوون إليهم، فبنيت لهم صفة في المسجد النبوي، قال أبو ذر رضي الله عنه: كنت من أهل الصفة وكنا في المساء نحضر عند باب الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيأمر كل رجل من الصحابة فيأخذ رجلاً معه، ويبقى من أهل الصفة قرابة العشرة فنتعشى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فإذا فرغنا من عشائنا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ناموا في المسجد. وكان هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم من الفقراء وقد امتنعوا عن التصرف في المعايش خوفاً من العدو، ولهذا قال تعالى: ﴿لا يَستَطيعُونَ ضَربًا في الأَرضِ﴾ لأن البلاد كانت كلها كفراً مطبقاً.

وقد نصت الآية الكريمة على أن هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم كانوا متعففين، والتعفف المبالغة في ترك المسألة، والتنزه عن الطلب من الآخرين، وكانت لهم علامة تدل على فقرهم، من رثاثة ثوب، أو ظهور آثار الجوع، ومع ذلك فهم لا يسألون الناس شيئاً، لأن التعفف صفة ثابتة في نفوسهم[288].

فالفقراء الذين ابتلاهم الله تعالى بالفقر لابد أن يتذكروا هؤلاء الصحابة رضي الله تعالى عنهم لما ابتلاهم الله تعالى بالفقر، واجهوا هذا الابتلاء بالتعفف والاستغناء عن الناس، وبهذه العفة ينالون الشرف العظيم الذي ناله أولئك الصحابة رضي الله عنهم من عظيم التوكل على الله تعالى وحسن الصبر، وعدم الشكوى والتذلل للعباد.

هذا وقد تكلم العلماء في حكم الفقير إذا احتاج إلى المسألة، ومن ذلك ما نقله الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره حيث ذكر أن الأولى ترك المسألة، ونقل عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى

---

[286] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج: 16، ص: 28.

[287] البقرة، 2/ 273.

[288] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج: 3، ص: 340-342

عندما سئل متى تحل المسألة؟ فقال: إذا لم يكن عند السائل ما يغديه ويعشيه. وفي قول له أيضاً أنه إن اضطر إلى المسألة فهي مباحة له. وإن تعفف فهو خير له. ثم قال رحمه الله تعالى: ما أظن أحداً يموت من الجوع، الله تعالى يأتيه برزقه. وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:" من استعف أعفه الله". وحديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال له: تعفف. وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: سؤال الحاجات من الناس هي الحجاب بينك وبين الله تعالى، فأنزل حاجتك بمن يملك الضر والنفع، وليكن مفزعك إلى الله تعالى، يكفيك الله ما سواه وتعيش مسروراً.

وأما التعفف عن الشيء إذا أتاه من غير مسألة فلا بأس أن يقبله ولا يرده، فقد ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرسل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعطاء فرده، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لم رددته؟ فقال: يا رسول الله أليس أخبرتنا أن أحدنا خير له ألا يأخذ شيئا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنما ذاك عن المسألة، فأما ما كان من غير مسألة، فإنما هو رزق رزقكه الله، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: والذي نفسي بيده؛ لا أسأل أحداً شيئاً؛ ولا يأتيني بشيء من غير مسألة إلا أخذته. وخرج مسلم في صحيحه والنسائي في سننه وغيرهما، عن ابن عمر رضي الله عنهما: قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعطيني العطاء فأقول: أعطه أفقر إليه مني، حتى أعطاني مرة مالاً، فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: خذه وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك. وزاد النسائي-بعد قوله خذه-فتموله أو تصدق به. وروى مسلم عن عمر رضي الله عنه: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا أعطيت شيئاً من غير أن تسأل فكل وتصدق[289].

وحسن الظن بالله تعالى من صفات القلوب المؤمنة فالفقير القوي الإيمان بالله تعالى يثق بما عند الله تعالى بأنه سيرزقه وأنه سيوسع عليه بعد الشدة، أو أن الله تعالى سيجازيه على صبره وإيمانه ورضاه بقسمة ربه سبحانه وتعالى الأجر العظيم، والثواب الجزيل، لذا تجده عفيفاً نزيهاً لا يسأل أحداً ولا ينتظر فضل أحد. وهذا هو الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، فالمؤمن ينتظر الفرج من الله تعالى ولا ييأس ولا يقنط ولا يحزن من الفقر الذي يحل به، لأنه يقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُو الرَّزاقُ ذُو القُوةِ المتِينُ (58)[290]. ويثق بقوله تعالى: ﴿وما مِن دابَّةٍ في الْأَرضِ إِلَّا عَلى اللَّهِ رزقُها ويَعلمُ مُستَقرَّها

---

[289] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج:3، ص: 244-245.

[290] الذاريات، 51/ 58.

ومُستَودَعها كُلٌّ في كِتابٍ مُبينٍ﴾[291]. وأما الكافر فإنه لا يعرف شيئاً عن العفة لأنه لا يثق بالله تعالى، وكيف يثق بالله ولا يؤمن به أصلاً، بل إن فقره سيجره إلى الجرائم، والقتل، والسفك، والسرقة، وغيرها من الموبقات، كما كان أولئك الذين كانوا يدفنون البنات وهن على قيد الحياة، لذا فإننا نجد أن القرآن الكريم خاطب الذين يقتلون أولادهم خوفاً من الفقر- سواء كان خوفهم من افتقارهم أو من افتقار أبنائهم- فقال لمن خاف على نفسه الفقر: ﴿وَلَا تَقتُلُوا أَولَادَكُم مِن إملَاقٍ نحنُ نَرزُقُكم وإيَّاهُم وَلا تَقْربُوا الفَواحشَ ما ظَهرَ مِنها وَما بَطَن ولا تَقتُلوا النَّفسَ الَّتي حرَّم اللهُ إلَّا بِالحقِّ ذلِكُم وَصَّاكُم بهِ لَعلَّكُم تَعقلُونَ﴾[292].

وخاطب الله تعالى الذي يخاف الفقر على أبنائه فقال: ﴿ولا تَقتُلُوا أَولَادكُم خَشيةَ إملاقٍ نَحنُ نَرزُقُهم وإيَّاكُم إنَّ قتْلَهُم كانَ خِطْئًا كبِيرًا﴾[293]. ففي الآية الأولى جاء الخطاب بقوله: (نرزقكم) وفي الآية الثانية جاء الخطاب بقوله: (نرزقهم). ليشمل الخطابين جميع أسباب الخوف من الفقر.

الحكمة الرابعة: الفقر عقوبة بسبب ترك الشكر وارتكاب المعاصي: قال الله تعالى: ﴿وإذ تأَذَّنَ ربُّكُم لئِن شَكَرتُم لَأَزيدَنَّكُم ولَئِن كَفَرتُم إنَّ عذابِي لشَديدٌ﴾[294]. إن من سنة الله تعالى مع عباده في النعم أن يزيد النعمة بالشكر، وأما ستر النعمة وترك التحدث بها وجحودها يعرضها للزوال والسلب والعقوبة. ومن جحود النعمة فعل المعصية، وعدم استخدام النعم فيما خلقت له، لذا قال صلى الله عليه وآله وسلم:" إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه". وقال أيضاً كما ورد في مسند الإمام أحمد رحمه الله تعالى: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مرَّ به سائل فأعطاه تمرة، فتسخطها ولم يقبلها، ثم مر به آخر فأعطاه إياها، فقبلها وقال: تمرة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأمر له بأربعين درهما"[295].

الحكمة من الابتلاءات الجسدية (الأمراض والإعاقات): إن الله تعالى يبتلي العبد بالأمراض العارضة، كالصداع والحمى والزكام وغيرها، ما بين الحين والآخر، وقد يبتليه بالأمراض المزمنة، كالسل والسرطان وغيرها، والعاهات المستحكمة، كفقد عضو أو حاسة من الحواس، وله سبحانه وتعالى الحكمة البالغة وهو العليم الحكيم. وفي كل قدر يقدره الله تعالى على العبد خير عظيم، قد يعرفه العبد وقد يجهله، لأن العبد لا يرى إلا ظاهر الأمر، ولو اطلع على حكمة الله تعالى لحمد الله تعالى على

---

[291] هود، 11/ 6.

[292] الأنعام، 6/ 151.

[293] الإسراء، 17/ 31.

[294] إبراهيم، 14/ 7.

[295] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج: 4، ص: 479.

كل حال. وفيما يلي بعض تلك الحكم التي تجعل العبد راضٍ بما قدّر عليه في هذه الدنيا من ابتلاءات وأمراض ومصائب.

الحكمة الأولى والثانية: اختبار إيمان العبد وصبره، وتكفير ذنوبه ورفع درجاته: وقد تقدمت الآية الكريمة في بيان هذه الحكمة وهي قوله تعالى: ﴿ولَنَبلُوَنَّكُم بشَيءٍ مِن الْخَوفِ والجُوعِ وَنقصٍ مِن الأَموالِ والْأَنفُسِ والثَّمراتِ وبَشّرِ الصَّابرينَ﴾[296]. قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: نقص الأنفس: الأمراض[297]. وقال غيره المراد من نقص الأنفس: المرض والشيب[298]. وقال الله تعالى: ﴿لَيسَ البِرَّ أَن تولُّوا وُجوهَكُم قِبَلَ المَشرقِ والمَغربِ ولَكنَّ البِرَّ مَن آمنَ باللَّهِ واليوْمِ الْآخرِ والمَلَائِكةِ والكِتابِ والنَّبيِّينَ وآتَى المَالَ عَلى حُبّهِ ذَوِي الْقُربَى واليَتَامَى والمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبيلِ والسَّائِلِينَ وفِي الرِّقابِ وأَقامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكاةَ والمُوفونَ بِعَهدِهِم إذَا عاهدُوا والصَّابرِينَ في الْبأْساءِ والضَّرَّاء وحِين الْبأسِ أُولَئكَ الَّذينَ صدَقُوا وأُولئِكَ همُ المُتَّقونَ﴾[299]. فقد وصفهم الله تعالى بقوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. قال القرطبي رحمه الله: والصابرين في البأساء والضراء، أما البأساء: فهي الشدة والفقر. وأما الضراء: فهو المرض والزمانة. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:" يقول الله تعالى: أيما عبد من عبادي ابتليته ببلاء في فراشه، فلم يشك إلى عواده، أبدلته لحما خيرا من لحمه، ودما خيرا من دمه، فإن قبضته فإلى رحمتي، وإن عافيتُه عافيتُه وليس له ذنب. قيل: يا رسول الله، ما لحم خير من لحمه؟ قال: لحم لم يذنب. قيل: فما دم خير من دمه؟ قال: دم لم يذنب. فقوله تعالى: ﴿أولئكَ الذِينَ صدَقوا وأولَئِك هُمُ المتَّقُون﴾ وصفهم الله تعالى بالصدق والتقوى في أمورهم والوفاء بها، فمدحهم الله تعالى بالجد في الدين، والإخلاص به[300].

وقال الله تعالى: ﴿وما أَصابكُم مِن مُّصِيبةٍ فَبما كَسبَت أَيدِيكُم ويَعْفُو عَن كَثيرٍ﴾. [301] عن عبد الله[302] رضي الله عنه، قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يوعك، فمسسته بيدي، فقلت: يا رسول الله إنك لتوعك وعكا شديدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أجل إني أوعك

---

[296] البقرة، 2/ 155.

[297] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج: 1، ص: 186.

[298] البغوي، ***المصدر نفسه***، ج:1، ص: 185.

[299] البقرة، 2/ 177.

[300] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج: 2، ص: 243.

[301] الشورى: 30.

[302] بهذا اللفظ جاءت الرواية.

كما يوعك رجلان منكم» قال: فقلت: ذلك أن لك أجرين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أجل» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض، فما سواه إلا حطَّ الله به سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها»[303]. وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن درجة الصابر على مرض الطاعون له أجر شهيد، فعن عائشة رضي الله عنها، أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الطاعون، فأخبرها أنه كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له؛ إلا كان له مثل أجر الشهيد"[304].

وورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه خير امرأة تصاب بالصرع بين الشفاء من مرضها وبين الصبر مع دخول الجنة، فاختارت الصبر على الصرع لتنال دخول الجنة. فعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: إني أُصرع، وإني أتكشَّف، فادع الله تعالى لي قال: إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله تعالى أن يعافيك فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشَّف، فادع الله ألَّا أتكشَّف، فدعا لها"[305].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يوعك فقلت: يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً، قال: أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم، قلت: ذلك أن لك أجرين؟ قال: أجل ذلك كذلك ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها"[306].

---

[303] مسلم، ***المسند الصحيح***، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، رقم الحديث: 2571.

[304] البخاري، ***الجامع المسند الصحيح المختصر***، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم الحديث 3474.

[305] البخاري، ***المصدر نفسه***، كتاب المرضى، باب فضل من يصرع من الريح رقم الحديث/ 5652/. ومسلم، ***المسند الصحيح المختصر***، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، رقم الحديث / 2576/.

[306] البخاري، ***الجامع المسند الصحيح المختصر***، كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، رقم الحديث 5648.

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه"[307].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال" ما من مسلم يشاك شوكة، فما فوقها؛ إلا كتبت له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة"[308].

وقد بشَّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصَّابر على فقد البصر بدخول الجنة، فعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:" إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر، عوضته منهما الجنة يريد عينيه"[309].

الحكمة الثالثة: ابتلاء العبد بالأمراض والأوجاع عقوبة له على ما اقترف من الذنوب: قد يبتلي الله تعالى العبد بالأمراض عقوبة له على ما اقترفه من الذنوب والمعاصي، فيبتليه الله تعالى بذلك ليطهره من مما اقترفت يداه. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ومَا أصَابَكم مِن مُّصِيبةٍ فَبِما كَسَبتْ أَيدِيكُم ويَعفُو عَن كثِيرٍ﴾[310]. عندما نزلت هذه الآية الكريمة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:" والذي نفس محمد بيده؛ ما من خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر". وعن أبي سخيلة قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى، حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ ﴿ومَا أصَابَكم مِن مُّصِيبةٍ فَبِما كَسَبتْ أَيدِيكُم ويَعفُو عَن كثِيرٍ﴾ ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: وسأفسرها لك يا علي: "ما أصابكم من مرض، أو عقوبة، أو بلاء في الدنيا، فبما كسبت أيديكم، والله عز وجل أكرم من أن يثني عليهم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه". وقال عكرمة: ما من نكبة-مصيبة-أصابت عبداً فما فوقها، إلا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بها، أو درجة لم يكن الله ليبلغه إلا بها[311].

---

[307] البخاري، ***المصدر نفسه***، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم الحديث/ 5641/. ومسلم، ***المسند الصحيح المختصر***، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، رقم الحديث/ 2572/.

[308] مسلم، ***المسند الصحيح المختصر***، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما ي، صيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، رقم الحديث 2572.

[309] البخاري، ***الجامع المسند الصحيح المختصر***، كتاب المرضى، باب فضل من ذهب بصره، رقم الحديث: 5653.

[310] الشورى، 42/ 30.

[311] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج 4، ص 149-150

وأما من لا يتصور منه المعصية والذنب لعصمة كالأنبياء، أو لعدم تكليف كالأطفال والمجانين فإنما ذلك ليعوضهم الله تعالى ويوفيهم عما أصابهم، ولمصلحة وحكمة لا يعلمها إلا الله تعالى، والله يفعل ما يشاء.

وقال بعض العلماء: إن العبد لا يخلو من الوقوع في المخالفات والجنايات في كل وقت، فجناياته في عباداته وطاعاته أكثر من جناياته في مخالفاته ومعاصيه، وذلك لأن جناية المعصية من وجه واحد وهي الوقوع في مخالفة الشرع بوجه واحد، وأما جناية الطاعة فمن وجوه كثيرة، فقد يصيبه الكبر أو العجب أو الرياء وغيرها من الجنايات الخفية، والله سبحانه وتعالى يطهر العبد من جناياته الظاهرة والباطنة بأنواع عديدة من المصائب، رحمة ولطفاً به، ليخفف عنه أوزاره وأثقاله يوم القيامة، وإلا لهلك في أول خطوة يخطوها[312].

ومن خلال قوله تعالى: ﴿ومَا أصَابَكم مِن مُّصِيبةٍ فَبِما كَسَبتْ أَيدِيكُم ويَعفُو عَن كثِيرٍ﴾ اختلف العلماء في الأمراض والآلام؛ هل هي عقوبات على ذنوب سبقت من العبد أم لا؟ فمنهم من قال بأنها ليست عقوبات واحتجوا بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَت﴾[313]. ففي هذه الآية بين الله تعالى أن جزاء العبد يكون يحصل يوم القيامة، وقال الله تعالى أيضاً: ﴿مالِكِ يَومِ الدِّين﴾[314]. فيوم الدين هو يوم الجزاء، وأجمعوا على أنه يوم القيامة. والحجة الثانية: أن المصائب في الدنيا تصيب المؤمنين الصادقين وتصيب الكافرين الجاحدين، ولذلك امتنع أن تكون الآلام من باب العقوبة على المعاصي، وبالاستقراء يظهر أن حصول مثل تلك المصائب للمؤمنين المتقين والصالحين أكثر منه للعصاة المذنبين، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "خص البلاء بالأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل". وأما الحجة الثالثة: أن دار الدنيا دار تكليف، ولو كان الجزاء فيها لكانت دار تكليف وجزاء معاً، وهو محال.

وأما الذين قالوا بأن المصائب قد تكون جزاء على الذنوب والمعاصي الصادرة من العبد، فقد استدلوا بأمور عدة وهي: حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " لا يصيب ابن آدم خدش عود ولا غيره؛ إلا بذنب ... الحديث" بهذا المعنى. واستلوا أيضا بهذه الآية، وبقوله تعالى: ﴿فبِظُلْمٍ مِن الَّذين

---

[312] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج:4، ص:226.

[313] سورة غافر: 17.

[314] سورة الفاتحة: 4.

هادوا حرَّمنا عَلَيهِم طيِّباتٍ﴾[315]. وبقوله تعالى: ﴿أو يُوْبقْهنَّ بمَا كَسَبُوا﴾[316]. وفي هذا تصريح بأن إهلاكهم كان بسبب معاصيهم، وأجاب الفريق الأول عن قوله تعالى: ﴿ومَا أصَابَكم مِن مُّصِيبةٍ فَبِما كَسَبتْ أَيدِيكُم ويَعفُو عَن كثِيرٍ﴾[317]. بأن حصول تلك المصائب من باب الاختبار والامتحان، والتكليف، لا من باب العقوبة، وأما قوله تعالى: ﴿فَبما كَسبَت أَيدِيكُمْ﴾ على أن الأصلح للعباد عند إتيانهم ذلك الكسب؛ إنزال المصائب بهم. والله أعلم[318].

الحكمة الرابعة: ليعترف الإنسان بضعفه وعجزه، ويلجأ إلى الله تعالى بالدعاء ليكشف ضرَّه: إن الإنسان إذا عاش سليماً معافاً في بدنه لا يشكو من مرض ولا علة، قد تصيبه الغفلة ويعرض عن التضرع إلى الله تعالى، وعن ذكر نعم الله عز وجل، فكان في ابتلاء الله تعالى لبعض الناس بالأمراض والأوجاع رسالة من الله تعالى للمريض ليلجأ إلى الله تعالى بالدعاء والتذلل والانكسار، وهذه هي حقيقة العبودية لله تعالى، وقد جعل الله تعالى لنا في سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام، تذكرة وموعظة، ليصبر من بعده، ويتضرعوا إلى الله تعالى كتضرعه. قال الله تعالى: ﴿وأَيُّوبَ إذ نَادى ربَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وأَنتَ أَرحَمُ الرَّاحمِينَ (83) فاستجَبنَا لهُ فكَشفْنَا ما بهِ مِن ضرٍّ وآتَيناهُ أَهلَهُ ومِثْلَهُم مَعهُم رَحمَةً مِن عِندِنا وَذِكرى لِلعَابِدينَ (84)﴾[319]. تحدثت الآيتان الكريمتان عن النبي أيوب عليه الصلاة والسلام، عندما أصابه البلاء والكرب، ففقد أولاده وأمواله، فدعا الله تعالى بتضرع وخشوع، وقال ربِّ قد نالني الكرب والبلاء والشدة. وأنت أرحم الراحمين. ولم يصرّح عليه الصلاة والسلام بالدعاء، وإنما وصف نفسه بالضعف والعجز، ووصف ربه سبحانه وتعالى بكمال الرحمة ليرحمه، وهذا أحسن من التصريح، فاستجاب الله تضرعه ودعاءه، وأزال ما أصابه من بلاء وضر. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: مات أولاده وهم سبعة ذكور وسبعة إناث، فلما عوفي، أُحيوا له وولدت له امرأته سبعة بنين، وسبع بنات. ومعنى الآية: أعطيناه ما فقد من أهله في الدنيا، ورزقناه من زوجته مثل ما فقد من الأولاد. لرحمتنا إياه، وتذكرة لغيره من العابدين، ليصبروا على مصائبهم كما صبر، لأنهم إذا ذكروا ضر أيوب

---

[315] النساء، 4/ 160.

[316] سورة الشورى: 34.

[317] سورة الشورى: 30.

[318] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج:27، ص:600.

[319] الأنبياء، 21/ 83.

وبلاءه ومحنته وصبره على ذلك؛ صبروا على الشدائد في الدنيا مثل ما صبر أيوب عليه الصلاة والسلام وهو أشرف أهل زمانه وأفضلهم[320].

الحكمة من الابتلاء بالجوائح السماوية: الحكمة الأولى: اختبار إيمان العبد بقضاء الله تعالى وقدره إن مما يُبتَلى به العباد أيضاً؛ الزلازل، والفيضانات، والصواعق، والقحط، والجدب، وما شابه ذلك من الجوائح السماوية، وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أن المصائب والجوائح وغيرها مقدرة على العبد منذ الأزل، وبين الله تعالى أن الحكمة من ذلك كي لا يحزن الإنسان ويأسف على ما يفوته، ولا يفرح فرح بطر بما يُعطاه. قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبلُوَنَّكم بِشيءٍ مِن الْخَوفِ وَالجُوعِ ونَقصٍ مِن الأَموَالِ... الآية[321]﴾. وذهب بعضهم إلى أن المراد من نقص الأموال: الجوائح المتلفة[322].

وقال الله تعالى أيضاً: ﴿ما أَصابَ مِن مُّصِيبةٍ في الأَرضِ ولا فِي أنفُسِكُم إِلَّا في كِتابٍ مِن قَبلِ أَن نَّبرَأَها إِنَّ ذلِكَ علَى اللَّهِ يسِيرٌ (22) لِكَيلَا تَأْسَوا عَلى ما فَاتَكُم وَلَا تَفرَحُوا بِما آتَاكُم وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مخْتَالٍ فَخورٍ (23)﴾[323]. قال ابن عطية رحمه الله: مصائب الأرض هي القحط والزلازل. ومصائب الأنفس: الموت والأمراض[324].

وفي تفسير القرطبي رحمه الله أن مصيبة الأرض هي القحط وقلة الثمار والنبات. وقيل: الجوائح في الزروع. ومصيبة النفوس بالأسقام والأوصاب. وقيل: الضيق في المعاش، وقيل غير ذلك[325].

وقال الزمخشري رحمه الله: المصيبة في الأرض: الجدب ونحوه من آفات الزروع والثمار. وفي الأنفس: الأمراض، والموت ونحوهما. وكل ذلك، مقدر ومدون في اللوح، قبل أن يخلق الله تعالى الأنفس و المصائب، وإثبات ذلك وتقديره في كتاب يسير على الله تعالى، وإن كان عسيرا على العباد، ثم بين سبحانه وتعالى الحكمة من ذلك فقال: لكيلا تأسوا، ولا تفرحوا، يعنى إذا علمتم أن كل شيء مقدر ومكتوب عند الله عز وجل قلَّ أساكم وحزنكم على ما فاتكم، وقلَّ فرحكم على ما آتاكم من نِعَم،

---

[320] الصابوني، محمد علي، ***صفوة التفاسير***، دار الصابوني، للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة الطبعة: الأولى، 1417 هـ -1997 م ج: 2، ص: 249.

[321] البقرة، 2/ 155.

[322] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج: 2، ص: 174.

[323] الحديد، 57/ 22.

[324] ابن عطية الأندلسي، ***المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز***، ج:5، ص: 268.

[325] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج: 17، ص: 257.

لأن من علم أن ما عنده مقدر لا محالة: لم يعظم حزنه وجزعه عند فقده، لأنه هيأ نفسه ووطنها على ذلك، وكذلك من علم أن الخير المقدر له، واصل إليه، ولا يفوته بحال من الأحوال: لم يعظم فرحه عند حصوله[326].

وقال البيضاوي رحمه الله: المصيبة في الأرض: الجدب والعاهة. وفي الأنفس: الأمراض والآفات. فجميع تلك المصائب مقدرة ومكتوبة في اللوح، مثبتة في علم الله سبحانه وتعالى. من قبل أن تُخلق المصيبة أو الأرض أو الأنفس. إن ذلك الإثبات على الله تعالى يسير فهو الغني سبحانه وتعالى عن كل شيء. لكيلا تأسوا أي لا تحزنوا على ما فاتكم من النعم الدنيوية ولا تفرحوا بما أعطاكم منها، فإن من علم أن كل ذلك مقدر هان عليه كل شيء، والمراد: نفي الأسى الذي يمنع عن تسليم الأمر الله، والفرح الذي يوجب الاختيال والبطر، ولذلك عقبه بقوله: ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ لأن القليل من الناس من يثبّت نفسه في السراء والضراء[327].

الحكمة الثانية: ليرجع العباد إلى الله تعالى عما اقترفوه من ذنوب: قال الله تعالى: ﴿ظَهرَ الْفَسادُ في الْبرّ والبَحرِ بِما كَسبَتْ أَيْدي النَّاسِ لِيُذِيقَهمْ بَعضَ الَّذي عَمِلوا لَعلَّهُم يَرجِعونَ﴾[328]. فالمصائب كالجدب والحرق والغرق، وكثرة الموتان، وإخفاق الغاصة، وكثرة المضار، ومحق البركات، وانتشار الضلالة والظلم. وكل هذه المصائب والبلايا بسبب اقتراف الناس المعاصي، وكسبهم إياها، وقيل ظهر الفساد في البر بقتل قابيل أخاه هابيل، وأما في البحر بما كان يفعله ملك عمان بأخذ السفن غصباً. ليجازيهم بعض الجزاء على أعمالهم في الدنيا، وأما تمامه ففي الآخرة. لعلهم يرجعون عما هم عليه من المعاصي والذنوب[329].

وقال الزمخشري رحمه الله: الفساد في البر والبحر نحو: الجدب، والقحط، وقلة نتاج الأرض في الزرع والربح في التجارة، وكثرة الموتان في الناس ودوابهم، وكثرة الغرق والحرق، وإخفاق الغاصة والصيادين، ومحق البركة من كل شيء، وكثرة المضار وقلة المنافع.

---

[326] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 4، ص:479.

[327] البيضاوي، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ج: 5، ص: 189.

[328] الروم، 30/ 41.

[329] البيضاوي، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ج: 4، ص: 208. وأبو السعود العمادي، ***إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم***، ج:7، ص: 62.

﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ أي: بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، كقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ظهر الفساد في البر بقتل ابن آدم أخاه. وفي البحر بأن جلندى-ملك عمان-كان يأخذ كل سفينة غصبا. وقوله تعالى: ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى قد أفسد عليهم أسباب دنياهم ومحق بركتها، ليذيقهم وبال بعض ما عملوا في الدنيا، قبل أن يعاقبهم على جميع أعمالهم في الآخرة، ليرجعوا عما هم عليه.[330]

فقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعضَ الَّذي عَمِلوا﴾ أي: ليبتليهم بالمصائب عقوبة على بعض أعمالهم، ومعاصيهم ﴿لَعَلَّهم يَرجِعون﴾ أي: لكي يرجعوا إلى الله تعالى بالتوبة والندم والاستغفار، وينيبوا إلى الحق، ويتركوا معصية الله ومخالفة أوامره[331].

ومعنى الآية بشكل إجمالي: عمّ الخلل والانحراف في العالم، وذلك بكثرة المضار، ونقص الزروع والأنفس والثمار، وقلة المنافع والأمطار، وكثرة القحط والجدب، بسبب شؤم المعاصي والذنوب، التي كثرت من الناس، كالكفر والظلم، وانتهاك حرمات الله تعالى، ومعاداة دينه، وعدم مراقبته عز وجل في السر والعلانية. والاعتداء على حقوق الآخرين وأكل أموالهم بغير حق، ليذيقهم الله جزاء بعض أعمالهم، وسوء صنائعهم من الآثام والمعاصي، وحينذاك ربما يرجعون عن غيهم وظلمهم ومعاصيهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وبَلَوناهُم بِالحَسناتِ والسَّيئاتِ، لَعلَّهُم يَرجعُونَ﴾. (الأعراف: 7/ 168)[332].

الحكمة من الابتلاء بموت الأقارب والأحبة: إن من سنة الله تعالى في عباده في هذه الدنيا الفراق، فكل إنسان سيفارق أحبابه وأقرباءه، من أب أو أم أو ولد أو زوج أو قريب أو حبيب، لأن الله تعالى خلق الإنسان في هذه الدنيا ليعبر فيها إلى الآخرة، لا ليخلد فيها. وجعل الله تعالى هذه الدنيا دار ابتلاء واختبار، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذي بِيدِهِ المُلكُ وَهو علَى كلِّ شَيءٍ قَديرٌ (1) الَّذي خَلقَ المَوتَ والحَياةَ لِيَبلُوَكم أيُّكُم أحسنُ عَملًا وهُو العَزِيزُ الغَفورُ (2)﴾[333]. وكل نفس ستذوق الموت، قال الله تعالى: ﴿كلُّ نَفسٍ ذائقَةُ المَوتِ ثُمّ إلَينَا تُرجَعونَ﴾[334].

---

[330] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج:3، ص:482.

[331] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج: 20، ص: 109.

[332] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج: 21، ص: 98.

[333] سورة الملك: 1-2.

[334] العنكبوت، 57/29.

وقال الله تعالى: ﴿ولَنَبلُونَّكُم بِشَيءٍ مِن الخَوفِ والجُوعِ ونَقصٍ منَ الأَموالِ ... الآية﴾[335]. وفسر ابن كثير رحمه الله نقص الأنفس بموت الأصحاب، والأقارب، والأحباب[336]. وما هذا الفراق إلا ابتلاء من الله تعالى لعباده، لحكمة بالغة منه تعالى، وهو الحكيم القدير، فما هي هذه الحكمة؟

الحكمة الأولى: ليتميز العبد الصابر المعترف بالعبودية لله تعالى، من غيره.

الحكمة الثانية: المغفرة، والرحمة الإلهية، والهداية، للصابرين على المصيبة.

وقد تقدم الحديث عن الحكمتين في الفقرات السابقة.

الحكمة الثالثة: تذكير الإنسان بحقيقته، وتنبيهه من غفلته: عندما يفقد المؤمن قريباً له، أو حبيباً يحبه، فإنه يزداد يقيناً بأنه ضعيف غاية الضعف، حيث أنه لا يجد ما يدفع به الموت الذي يداهم جميع الخلق ويتخطف من بين يديه أحب الناس إليه ولداً كان أو زوجاً، أو أباً، أو أماً، بل وجميع العلماء والأطباء لم ولن يجدوا ما يصرف الموت عن الإنسان أو يؤخره لحظة واحدة، لأنهم عباد ضعفاء مقهورون بقدرة العلي الجبار سبحانه وتعالى كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ وهُوَ الْحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾[337]. والآيات كثيرة جداً في هذا الجانب. وبهذا يتذكر الإنسان أن الله تعالى سيُمِيْتُ جميع الخلائق كما قال الله تعالى: ﴿كلُّ نَفسٍ ذَائقةُ الْمَوتِ وإِنَّما تُوَفَّونَ أُجورَكم يَوم الْقيَامةِ فَمن زُحزِحَ عنِ النَّارِ وأُدْخلَ الْجنَّةَ فَقَد فَاز وَما الحَيَاةُ الدُّنيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ﴾[338]. وهذا الإخبار من الله عز وجل عام لجميع الخلائق، وهو أن كل نفس ذائقة الموت، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿كلُّ مَن عَلَيها فانٍ. وَيبقى وَجهُ ربِّكَ ذُو الجَلال والإكرامِ﴾[339]. فكل المخلوقات من إنس وجن وملائكة حتى حملة العرش سيموتون، والله تعالى وحده الحي القيوم، الذي لا يموت، وهو سبحانه المتفرد بالبقاء والديمومة، هو الآخر كما كان هو الأول سبحانه وتعالى. وفي الآية تعزية للناس جميعهم، فإنه لا يبقى أحد منهم على وجه الأرض، بل وحتى من في السماء فالكل سيموت، ويذوق طعم مفارقة الروح البدن[340].

---

[335] البقرة، 2/ 155.

[336] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، الجزء: 1، ص: 467.

[337] الأنعام، 6/ 18.

[338] آل عمران، 3/ 185.

[339] الرحمن، 55/ 26-27.

[340] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج:4، ص:193.

وقال الله تعالى أيضاً: ﴿إِنَّك ميِّتٌ وإِنَّهم ميِّتونَ﴾[341]. قال ثابت البناني رحمه الله تعالى: نعى رجل إلى صلة بن أشيم أخا له، وعندما جاءه وجده يأكل، فقال صلة: ادنُ فَكُلْ، فقد نُعِيَ إليَّ أخي منذُ حين. قال الرجل: وكيف وأنا أول من أتاك بالخبر؟ قال: إن الله تعالى نعاه إليَّ فقال: ﴿إنكَ مَيِّتٌ وإنَّهم مَّيتُون﴾[342].

ويقول الله تعالى أيضاً: ﴿منهَا خَلَقناكُم وَفِيها نُعيدُكم وَمِنها نُخرِجُكم تَارةً أُخرَى﴾[343]. وبموت الأقرباء واحداً تلو الآخر يتذكر العبد أن الكل فانٍ، قال الله تعالى: ﴿كلُّ مَن عَليهَا فَانٍ (26) وَيبقَى وجْهُ ربِّكَ ذو الجَلالِ والْإكْرامِ (27)﴾[344]. فموت الأقارب والأحبة والأصحاب ما هو إلا نذير من الله تعالى بأنه سيقبض أرواح الجميع، قال الله تعالى: ﴿وَهُم يَصطَرِخونَ فِيها رَبَّنا أَخرِجْنا نَعمَلْ صَالحًا غيرَ الَّذِي كنَّا نَعمَلُ أوَلَم نُعمِّرْكُم ما يَتَذكَّرُ فيهِ من تَذكَّر وَجاءكمُ النَّذِيرُ فذوقُوا فَما للظَّالِمينَ مِن نَّصيرٍ﴾[345]. فقوله عز وجل: ﴿وَجَآءكمُ النَّذيرُ﴾ ففي معني النذير أقوال ومنها: أنه موت الأهل والأقرباء[346]. وهذه الآية وإن كانت في وصف أهل النار إلا أن النذير-الموت-حاصل لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم.

فالمؤمن لا يعترض على قدر الله تعالى بل يقول كما أوصى النبيﷺ إن لله ما أخذ، وله ما أعطى. فعن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما، قال: "أرسلت بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن ابني قد احتضر فاشهدنا، فأرسل يقرئ السلام ويقول: إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينَّها. فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال رضي الله عنهم، فرفع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصبي، فأقعده في حجره ونفسه تقعقع-تتحرك وتضطرب-ففاضت عيناه، فقال سعد بن

---

[341] الزمر، 39/ 30.

[342] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج:15، ص: 254.

[343] طه، 20/ 55.

[344] الرحمن، 55/ 26-27.

[345] فاطر، 35/ 37.

[346] الماوردي، علي بن محمد، ***النكت والعيون***، ت ح: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، ج: 4، ص:476.

عبادة رضي الله عنه: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: هذه رحمة، جعلها الله تعالى في قلوب عباده" وفي رواية: " في قلوب من شاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء"[347].

الحكمة من الابتلاء بجور الحكام والسلاطين: إن مما يبتلي الله تعالى به عباده، الظلم والجور من بعض الحكام، والسلاطين، ومن في حكمهم، أو من ينوب عنهم في وظيفة أو مكان. وأما الحكمة من الابتلاء بجور الحكام والظلمة فهي كثيرة، ولعل الإنسان لا يدرك جميع تلك الحكم وسأذكر بعض تلك الحكم مما يزيد المؤمن إيماناً وتمسكاً بدينه وعقيدته.

الحكمة الأولى: تبتلى الرعية بالحاكم الظالم عقوبة لها على ظلمها: قد يبتلى العباد بالظلم من ولاة الأمور من أمراء وحكام، ومن في حكمهم، كمن له سلطة في جانب من جوانب الحياة، فيؤدي ذلك الظلم إلى إفساد عيش الناس واضطرابهم، وضياع حقوقهم.

ثم إن المظلومين يبحثون عن السبب، وعن الدواء والحكمة لمثل هذه الحالة، ويتساءلون لماذا نبتلى بمثل هذا الابتلاء؟ ويجيبنا عن هذا التساؤل آيات من القرآن الكريم، كقول الله تعالى ﴿وكذَلكَ نُولِّي بَعضَ الظَّالِمينَ بَعضًا بِما كانُوا يَكسِبونَ﴾[348]. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الله تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولى أمرهم خيارهم، وإذا أراد بقوم شراً ولى أمرهم شرارهم[349]. فالآية تدل على تسلط الظالمين على الرعية الظالمة، فإن أرادوا التخلص من ذلك الأمير فعليهم أن يتركوا الظلم. وتدل الآية أيضا: على أنه لا بد للخلق من حاكم، فكما أنه سبحانه وتعالى لا يخلي أهل الظلم من أمير ظالم، فمن الأولى ألَّا يخلي أهل الصلاح من أمير صالح، يحملهم على زيادة الصلاح. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا يصلح للناس إلا أمير عادل أو جائر، فأنكروا قوله: أو جائر، فقال: نعم يؤمِّن السبيل-الطريق-ويمكِّن من إقامة الصلوات، وحج البيت. وعن مالك بن دينار رحمه الله تعالى أنه قال: جاء في بعض كتب الله تعالى-أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك ونواصيها بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، لا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك، لكن توبوا إليَّ أعطِّفهم عليكم.

---

[347] البخاري، **الجامع المسند الصحيح المختصر**، كتاب الجنائز، باب باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» إذا كان النوح من سنته رقم الحديث: 1284. ومسلم، ***المسند الصحيح المختصر***، كتاب الكسوف، باب البكاء على الميت رقم الحديث: 11/ 923.

[348] الأنعام، 6/ 129.

[349] البغوي، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، ج: 2، ص:160.

وأما قوله تعالى: ﴿بما كانوا يكسبون﴾ فالمعنى نولي بعض الظالمين بعضا، بسبب كون ذلك البعض مكتسبا للظلم ومتلبساً به[350].

فبالنظر إلى الآية الكريمة، وتفسيرها يتضح أنَّ الحكمة من الابتلاء بالحاكم الجائر، أن يتذكر العباد ظلمهم لأنفسهم، وظلمهم لغيرهم، كالابتعاد عن منهج الاستقامة، أو التظالم في الأسواق، والمحاكم، والبيوت، والوظائف والأعمال، ليتوبوا إلى الله تعالى، ويرجعوا عن معاصيهم وظلمهم إلى ربهم سبحانه وتعالى، ويتوبوا إليه. لذا يدخل في الآية كل من يظلم نفسه، أو يظلم الرعية، أو التاجر يظلم الناس في تجارته، أو السارق يسرق مال غيره. وقال فضيل بن عياض رحمه الله تعالى: إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم فقف، وانظر فيه متعجبا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا رضي الله عن قوم، ولى أمرهم خيارهم، وإذا سخط الله على قوم، ولى أمرهم شرارهم[351].

فالرعية متى كانوا ظالمين فإن الله سبحانه وتعالى سيسلط عليهم ظالماً مثلهم. كما جاء في الحديث النبوي الشريف: "كما تكونوا يولىّ عليكم"[352]. ومن خلال التأمل في هذه الحكمة ينبغي للعباد أن يتوبوا إلى الله تعالى، ويرجع كل ظالم عن ظلمه؛ ليرفع الله تعالى الظلم عن عباده.

الحكمة الثانية: لينال أهل العزيمة الأجر العظيم على صبرهم وثباتهم على الظلم والجور: إن الله تعالى يبتلي المؤمن بجور الحكام وظلمهم، وقد يتسلط أولئك الظلمة عليهم فيسومونهم بأنواع العذاب، وما هذا إلا نوع من أنواع الابتلاء والامتحان، لينال المؤمنون الصابرون الأجر العظيم والدرجات العليا في الجنة، وقد ابتلى الله تعالى المؤمنين على مر العصور بحكام جبابرة وعتاة حتى لقي المسلمون منهم ألواناً من الأذى والعذاب، اختباراً من الله تعالى للمؤمنين هل يثبتون على دينهم، أم لا يثبتون. ومن الآيات القرآنية التي ذكرت ظلم الحكام وبطشهم بالمؤمنين، وكيف أن المؤمنين استقبلوا هذا البلاء بالصبر العظيم والثبات على دين الله تعالى قصة أصحاب الأخدود التي أنزلها الله تعالى ليصبر الصحابة على ما ينالهم من أذى وتعذيب، وسأورد هذه الآيات أولاً، ثم أذكر بعض أقوال المفسرين فيها، لتنجلي الحكمة من هذا الابتلاء، ويأخذ منها المظلومون حكمة وعبرة.

---

[350] الرازي، **التفسير الكبير**، ج:13، ص: 150.

[351] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج: 7، ص: 85.

[352] الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: 1270هـ)، ***روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، والسبع المثاني***، ج:4، ص: 272.

قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخدُودِ (4) النارِ ذاتِ الوَقودِ (5) إِذ هُم عَلَيها قُعودٌ (6) وهُم على ما يَفْعلُونَ بِالمُؤمِنينَ شُهودٌ (7) وَما نَقَموا مِنهُم إِلَّا أَن يُؤمِنوا بِاللَّهِ العَزِيزِ الحَميدِ (8) الَّذي لهُ مُلكُ السَّماواتِ وَالْأَرضِ واللَّهُ عَلى كلِّ شَيءٍ شهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذينَ فتَنُوا المُؤْمِنِينَ والْمُؤمِناتِ ثمَّ لَم يَتوبُوا فَلَهُم عَذابُ جَهنَّم وَلهُم عَذابُ الحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمنُوا وَعملُوا الصَّالحاتِ لهُم جَنَّاتٌ تَجرِي مِن تَحتِهَا الأَنْهَارُ ذلكَ الفَوزُ الكَبيرُ (11)﴾[353].

وقد ورد في السنة النبوية، أنه كان لأحد الملوك ساحر، فلما كبر الساحر ضم إليه غلاماً ليعلمه السحر، وكان في طريق الغلام راهب: فسمع منه، وذات يوم رأى في طريقه دابة قد حبست الناس. فأخذ حجراً ثم قال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها، فرماها فقتلها، وبعد هذا الأمر كان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويشفي المرضى، وأصيب جليس الملك بالعمى فأبرأه، فسأله الملك: من رد عليك بصرك؟ فقال: ربى، فغضب الملك، فعذبه. فدل على الغلام فعذبه، فدل على الراهب، فلم يرجع الراهب عن دينه، فقُدَّ-أي قطع-بالمنشار وأبى الغلام، فذهبوا به إلى جبل ليطرحوه من ذروته، فدعا الغلام فاهتز الجبل بالقوم، فطاحوا ونجا، فذهبوا به البحر ليغرقوه، فدعا فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا ونجا، فقال للملك: لن تستطيع قتلي حتى تجمع الناس في مكان وتصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي، وتقول: باسم الله رب الغلام، ثم ترميني به. فرماه فوقع في صدغه ومات، فآمن الناس برب الغلام، فعلم الملك. فأمر بأخاديد-شقوق وخنادق في الأرض-وأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم عن دينه طرحه فيها، حتى جاءت امرأة ومعها صبي فتقاعست أن تقع فيها، فقال الصبي: يا أماه اصبري، فإنك على الحق، فاقتحمت. وعن على رضى الله عنه: أن بعض الملوك تناول الخمر فسكر، فوقع على أخته، فلما صحا من سكره ندم، وطلب المخرج، فقالت له: المخرج أن تخطب في الناس أن الله أحل نكاح الأخوات، ثم تخطبهم فتقول: إن الله حرمه، فخطب فلم يقبل الناس منه ذلك، فقالت له: اجلدهم بالسوط، فلم يقبلوا، فقالت له: ابسط فيهم السيف أي قتِّلهم، فلم يقبلوا، فأمرته بالأخاديد وإيقاد النيران، وطرح كل من أبى فيها. فهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذكر أصحاب الأخدود، تعوذ بالله من جهد البلاء[354].

---

[353] البروج، 85/ 4 -11.

[354] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 4، ص: 730-731.

ففي قصة الغلام ومن معه من المؤمنين الذين تسلط عليهم ذلك الملك وأعوانه، موعظة وتذكير لكل مؤمن مظلوم بالصبر على الأذى والطغيان من الحكام الظلمة، وليصبر كما صبر أولئك المؤمنون[355].

ولا بد من الإشارة هنا إلى مسألة الأخذ بالرخصة أو العزيمة في مواجهة الظالمين: أما الأخذ بالعزيمة: فيكون بالصبر على الأذى والعذاب لمن قويت نفسه، وصلب دينه، وهذا ما سلكه المؤمنون في قصة أصحاب الأخدود، وقال الله تعالى أيضاً مبيناً أن الصبر على المكاره من عزم الأمور: ﴿يا بنَيَّ أَقمِ الصَّلاةَ وأْمُر بِالمَعروفِ وانهَ عنِ الْمُنكرِ، واصبِرْ على ما أَصابَكَ، إنَّ ذلكَ مِن عَزمِ الأُمور﴾[356]. وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"[357]. ولقد ابتلي الكثير من الصحابة رضي الله عنهم بالصّلب والقتل والتعذيب، فصبروا ولم يرجعوا عن دينهم، أو يتظاهروا بشيء يرضي أعداءهم، ومن أولئك عاصم وخبيب وأصحابهما رضي الله عنهم، وما لقوا في الحروب من قتل وأسر، وحرق، ومالقوا من أعدائهم من صنوف العذاب والبلاء[358]. خلاصة هذه قصة عاصم وأصحابه: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث بعض الصحابة ومن بينهم: عاصم بن ثابت، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدَّثِنة رضي الله عنهم، ليعلِّموا قبائل عضل والقارة الإسلام، فاعترض لهم بنو لحيان، فقتلوا منهم وأسروا آخرين[359]. فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم سلكوا طريق العزيمة في الصبر والثبات في مواجهة عذاب الظالمين.

وأما الأخذ بالرخصة: فإن الله تعالى رخَّص لمن سلك هذا الطريق لينجو من عذاب الظلمة والمتجبرين، فأباح الله تعالى للمتعرض للظلم والعذاب أن يقول ما يكف به الأذى عن نفسه. قال الله تعالى: ﴿مَن كَفرَ باللَّهِ مِن بَعدِ إيمانِهِ إلَّا من أُكْرِهَ وقَلبُهُ مُطْمئنٌّ بالإيمانِ وَلكِن مَّن شَرحَ بِالكُفرِ صَدرًا

---

[355] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج:30، ص: 160.

[356] لقمان، 31/ 17.

[357] الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سوْرة بن موسى بن الضحاك (المتوفى: 279هـ)، ***سنن الترمذي***، أبواب الفتن، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، رقم الحديث: 2174.

[358] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج:30، ص: 160-161.

[359] محّمد سَعيد رَمضان، ***فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة***، دار الفكر – دمشق الطبعة: الخامسة والعشرون -1426 هـ، ص:185-186.

فَعلَيهِم غَضبٌ مِن اللَّهِ ولَهُم عَذابٌ عظيمٌ﴾[360]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر رضي الله عنهما، عندما أخذه المشركون هو وأباه ياسرا وأمه سمية، وسالماً وبلالاً وصهيباً، وخباباً رضي الله عنهم فعذبوهم، أما سمية فطعنوها برمح فاستشهدت، وأما زوجها فقتلوه أيضاً، وهما أول قتيلين في الإسلام رضي الله عنهما. وأما عمار رضي الله عنه؛ فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها، فوصل الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عماراً كفر، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: كلا، إن عماراً مُلئ إيماناً، من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبكي، فجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يمسح عينيه، ويقول: إنْ عادوا لك فعُدْ لهم بما قلت. فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية[361]. فعمار بن ياسر رضي الله عنه سلك طريق الرخصة في مواجهة الظالمين، ليسلم من شرهم وعذابهم.

الحكمة الثالثة: تمييز من يعين الظالم على ظلمه، ممن لا يعينه: إن الله تعالى يبتلي الناس بجور الحكام، وظلم ولاة الأمور ابتلاء للناس واختباراً لهم لينقسم الناس إلى فريقين، فريق يعين الظالمين على ظلمهم، وفريق يتبرأ من الظلم وأهله.

فمن رغب بالحياة الدنيا وزينتها أعان على الظلم، ووقف مع الظالمين، وركن إليهم، ولم يستجب لقول الله تعالى: ﴿ولا تَركَنُوا إِلى الَّذينَ ظلمُوا فَتَمسَّكُمُ النارُ ومَا لَكم مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَولِياءَ ثُمَّ لا تُنصَرونَ﴾[362]. ومن أراد الآخرة ورضا الله تعالى، اعتزل الظلم وأهله، بل وجاهد الظلم بما أوتي من وسائل، لأنه علم أنَّ الله تعالى نهى عن الركون إلى الظلمة، والنهي يتناول موافقتهم في هواهم، ومداهنتهم ومصاحبتهم وزيارتهم ومجالستهم، والرضا بأفعالهم، والتزيي بزيهم والتشبه بهم، وتمني ما عندهم من الدنيا. وذكرهم بالتعظيم. ومعنى الركون: الميل اليسير. وقيل: صلى الموفق خلف إمام، فقرأ ﴿ولا تَركَنُوا إِلى الَّذينَ ظلمُوا فَتَمسَّكُمُ النارُ...﴾ الآية. فخر مغشياً عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم، فكيف بالظالم[363].

الحكمة من الابتلاء بالهجرة: للهجرة نوعان اثنان، هجرة مشروعة، وهجرة غير مشروعة، وأما الحديث هنا فهو عن الحكمة من الابتلاء بالهجرة المشروعة.

---

[360] النحل، 16/ 106.

[361] الواحدي، ***أسباب نزول القرآن***، ج:1، ص: 281.

[362] هود، 11/ 113.

[363] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 2، ص: 433.

إن الله تعالى يبتلي عباده بالهجرة من أوطانهم، لضرٍّ أصابهم في دينهم أو في أنفسهم أو في أموالهم، أو في معاشهم. وفي الابتلاء بالهجرة حكمة عظيمة من الله تعالى، قد يُطْلِعُ الله تعالى عبده عليها، وقد لا يطلعه، وإذا ما علم الإنسان الحكمة المترتبة على الهجرة التي قدرها الله تعالى على بعض عباده، أيقن بأن الله تعالى حكيم فيما قدر، عليم بما يصلحهم في دنياهم وآخرتهم.

وذكر العلماء أقساماً للهجرة وهي: الأول: الهجرة المفروضة، وهي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، للتمكن من إقامة الشعائر الدينية، وهذه الهجرة باقية إلى يوم القيامة، ويعتبر البقاء في دار الحرب معصية.

الثاني: الهجرة من أرض البدع، ومن البدع سب السلف، والعلماء. قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: لا يحل لأحد أن يقيم ببلد يُسَبُّ فيها السلف. وقال ابن العربي رحمه الله: وهذا صحيح، فإن من لم يقْدر على تغيير المنكر فلْيَتَحَوَّلْ عنه. قال الله تعالى: ﴿وإذا رَأيتَ الَّذينَ يخُوضونَ في آياتِنا، فأَعرضْ عَنهُم، حتَّى يَخوضوا في حديثٍ غَيرِهِ، وإمَّا يُنسينَّكَ الشَّيطانُ فلا تَقعُد بعدَ الذِّكرى معَ القَومِ الظَّالمينَ﴾[364].

الثالث: الهجرة من الأرض التي غلب عليها الحرام، وهذه مشروعة لأن طلب الحلال واجب على المسلم.

الرابع: الفرار من الأذى في البدن: فمن خاف على نفسه الأذى في مكان أو بلد، فقد أباح الله تعالى له الخروج عنه، والفرار بنفسه تخلصاً من الأذى.

الخامس: مفارقة البلاد الوخمة التي يخشى فيها على نفسه من المرض، والخروج إلى الأرض النزهة.

وقد أذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للرعاء عندما استوخموا المدينة، أن يخرجوا إلى المسرح، فيكونوا فيه حتى يصحوا. ويستثنى من ذلك الخروج بسبب الطاعون، فقد منع الله سبحانه وتعالى من ذلك بالحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وذهب بعض العلماء إلى كراهة ذلك فقط.

السادس: الفرار خوفاً على المال، فحرمة مال المسلم كحرمة دمه، وحرمة أهله مثل ذلك أو آكد[365].

---

[364] الأنعام، 6/ 68.

[365] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج:5، ص: 232-233.

ثم إن الله تعالى وبَّخ الذي لا يهاجر من بلده إذا واجه تضييقاً عليه في دينه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ تَوَفَّاهمُ المَلائِكةُ ظالِمي أنفُسِهِم قالوا فِيم كُنتُم قالُوا كُنَّا مُستَضْعَفينَ في الْأَرضِ قالُوا أَلَمْ تَكُن أَرضُ اللَّهِ وَاسِعةً فَتُهاجِروا فِيها فأُولَئكَ مَأْواهمْ جَهنَّمُ وَساءَتْ مَصيرًا﴾[366]. واستثنى أهل العذر فقال: ﴿إِلَّا المُسْتَضعَفينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والْوِلْدانِ لَا يَسْتَطيعُونَ حِيلةً وَلا يَهتدُونَ سبيلًا﴾[367].

وهذه بعض حكم الابتلاء بالهجرة، من خلال النظر في الآيات القرآنية الكريمة، وأقوال المفسرين.

الحكمة الأولى: اختبار صبر العبد، في إيثار دينه على ما سواه (من مال ووطن وأهل): إن من سنة الله تعالى في عباده أن يمتحنهم ليظهر من يصبر على البلاء والشدائد، وتمكن من الإيمان في قلبه، كما قال الله تعالى: ﴿أَحسِبَ الناسُ أَن يُتْرَكوا أَن يَقُولوا آمنَّا وهُم لا يُفتنُونَ (2) ولَقَد فتَنَّا الَّذينَ مِن قَبلِهِم فَلَيعلَمَنَّ اللَّهُ الَّذينَ صدَقُوا ولَيَعْلَمنَّ الْكَاذبينَ (3)﴾[368].

وكان من أصناف الابتلاءات التي يبتلي الله تعالى بها عباده: الهجرة وترك الأوطان، وقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في طليعة المهاجرين، الذين ضحوا بأموالهم وأوطانهم وأرضهم، في سبيل الله تعالى، مؤْثِرين دينهم على ما سواه، وقص القرآن الكريم هجرة إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما هاجر من وطنه، قال الله تعالى: ﴿وَقالَ إِنّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهدينِ﴾[369]. فقد دلت الآية على أن البلد الذي يكثر فيه العدو تجب الهجرة منه، وذلك لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام -مع أن الله تعالى خصه بالنصرة والتأييد-لما أحس بالعداوة الشديدة من أعدائه هاجر من تلك الديار وتركهم، وغير الأنبياء أولى بالهجرة في مثل تلك الحالة. والمراد من الذهاب: إما الهجرة من الديار، أو الهجرة إلى الله سبحانه تعالى بالطاعة والعبادة[370].

وهاجر الصحابة رضي الله عنهم إلى الحبشة، صابرين على مفارقة الوطن والأهل والأقارب. قال الله تعالى: ﴿قُل يا عِبادِ الَّذينَ آمنُوا اتَّقوا رَبَّكم لِلَّذينَ أَحسَنُوا في هَذهِ الدُّنيا حَسنةٌ وأَرضُ اللَّهِ واسِعةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابرُونَ أَجرَهُم بِغيرِ حِسابٍ﴾[371]. والمراد: الإيماء إلى الهجرة إلى الحبشة. قال ابن عباس

---

[366] النساء، 4/ 97.

[367] النساء، 4/ 98.

[368] العنكبوت، 2/29.

[369] الصافات، 99/37.

[370] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج:26، ص: 344.

[371] الزمر، 39/ 10.

رضي الله عنهما: المشار إليهم في الآية جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه والذين خرجوا معه إلى الحبشة.

وقد أشار الله تعالى بالهجرة دون التصريح بها مؤانسة لقلوبهم، لأن مفارقة الوطن تسبب غم النفس. لذا ختمت الآية بذكر بالصبر، فمفارقة الوطن والسفر والتغرب كلها مشاق لا يقدر عليها إلا من تحلى بالصبر، فذيلت الآية به لتعظيم أجر الصابرين، والصابرون يوفون أجرهم بغير حساب[372].

وهاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة، وكانت أحب البلاد إليه، ولكنها سنة التضحية بكل شيء في سبيل الله تعالى وهاجر الصحابة رضي الله تعالى عنهم وضحوا بأوطانهم وأرضهم وأموالهم في سبيل الله تعالى، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه من أشهر الصحابة الذين ضحوا بكل شيء في سبيل الله تعالى، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخرج معه أبو بكر، احتمل أبو بكر ماله كله معه، وكان خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم، قالت: وانطلق بها معه. قالت أسماء بنت أبي بكر: فدخل علينا جدي أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه قال: لا بأس، إذا ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم، ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكني أردت أن أسكت الشيخ بذلك[373].

وضحى الصحابة رضي الله عنهم بكل ما يملكون في سبيل الله تعالى للحفاظ على دينهم. وممن ضحى بماله وهاجر في سبيل الله تعالى، صهيب رضي الله عنه، فقد أخذه المشركون وعذبوه، فقال لهم صهيب: إني شيخ كبير ولا يضركم أمِنْكُمْ كنت أم من غيركم، ولكم أن تأخذوا مالي وتتركوني وديني؟ فأخذوا ماله وتركوه، واشترط عليهم أن يبقوا له راحلة ونفقة، فهاجر إلى المدينة، فتلقاه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وبعض الصحابة، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ربح بيعك يا أبا يحيى. فقال له صهيب رضي الله عنه: وبيعك فلا يخسر، فما الخبر؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: أنزل

---

[372] ابن عاشور التونسي، ***التحرير والتنوير***، ج: 23، ص: 355.

[373] البوطي، ***فقه السيرة النبوية***، ص:133.

الله تعالى فيك كذا، وقرأ عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَاسِ مَن يَّشْرِي نَفسَهُ ابتِغاءَ مَرضَاتِ اللَّهِ واللَّهُ رءُوفٌ بِالعِبادِ﴾[374].

وقد وصف الله تعالى المؤمنين المهاجرين بالصدق فقال: ﴿لِلْفُقَراءِ المُهاجِرِينَ الَّذينَ أُخْرِجوا مِن دِيارِهم وَأموَالِهم يَبتَغُونَ فَضلا مِّنَ اللَّهِ ورِضوَانًا ويَنصُرونَ اللَّهَ ورَسولهُ أولَئكَ همُ الصَّادقُونَ﴾[375]. لذا كان من فوائد التضحية بالأموال والأوطان والأرض في سبيل الله تعالى؛ السلامة من الفتن التي تذهب الدين، وتضعف الاستقامة، وقد حثَّ الله تعالى على الهجرة في سبيله للحفاظ على الدين فقال تعالى: ﴿يا عِبادِيَ الَّذينَ آمنوا إنَّ أَرضِي واسِعةٌ فَإيَّاي فَاعبُدونِ﴾[376]. أي أن المؤمن إذا لم تتيسر له العبادة في البلد الذي هو فيه، ولم يتمكن من الاستقامة على أمر دينه، فليهاجر إلى بلد يتمكن فيه من عبادة ربه، والثبات على دينه، والمحافظة على صفاء قلبه. وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " من فرَّ بدينه من أرضٍ إلى أرضٍ، وإن كان شبراً من الأرض؛ استوجب الجنة"[377].
وجاء في السيرة النبوية، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء والعذاب، وأنه لا يستطيع حمايتهم من أعدائهم، أو الدفاع عنهم، عرض عليهم الهجرة وقال لهم: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنّ بها ملكاً لا يُظلَم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه". فهاجر المسلمون إلى الحبشة مخافة أن يفتنوا، وفروا إلى الله تعالى بدينهم، فكانت هذه الهجرة أول هجرة في الإسلام[378].

الحكمة الثانية: اختبار المهاجَرِ إليهم في دينهم وأخلاقهم: ليس الابتلاء بالهجرة ابتلاء للمهاجرين فقط، وإنما هو ابتلاء وامتحان للمهاجَر إليهم في إيمانهم وأخلاقهم، لأن المهاجرين تركوا وطنهم وأرضهم وأموالهم وممتلكاتهم، وهم بحاجةٍ إلى من يخفف عنهم ألم الفراق، ويواسيهم في أحزانهم، فمن استقبل هذا الابتلاء بعظيم الصبر والإحسان والمعونة لإخوانه المهاجرين فإنه برهن على صحة إيمانه بالله تعالى، ومن تذمَّر من مهاجَرَةِ إخوانه إليه فإنه ضعيف الإيمان.

---

[374] البقرة، 2/ 207.

[375] الحشر، 59/ 8.

[376] العنكبوت، 56/29.

[377] النسفي، ***مدارك التنزيل وحقائق التأويل***، ج: 2، ص:683.

[378] البوطي، ***فقه السيرة النبوية***، ص: 91.

عندما هاجر المسلمون إلى مكة المكرمة، قال الأنصار: يا رسول الله، اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين، قال: لا. ولكن تكفونهم المؤنة، وتقاسمونهم الثمرة، والأرض أرضكم، قالوا: رضينا، فأنزل الله: ﴿والَّذينَ تبَوَّءوا الدَّارَ والإيمانَ مِن قَبلِهِم يُحبُّونَ مَن هاجرَ إلَيهِم ولا يجِدونَ في صُدورِهِم حاجَةً مِمَّا أُوتوا ويُؤثِرونَ عَلى أَنفُسِهم وَلو كانَ بِهم خَصاصةٌ وَمن يُّوقَ شُحَّ نَفسهِ فَأولئكَ همُ المُفلِحونَ﴾[379].

وأخرج الإمام البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد -الجوع والفاقة- فأرسل إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئاً، فقال: ألا رجل يضيفه هذه الليلة يرحمه الله، فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: ضيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لا تدخريه شيئاً، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: لقد عجب الله، أو ضحك من فلان وفلانة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤثرونَ على أَنفُسِهِم، وَلَو كانَ بِهم خَصاصةٌ﴾[380].

وامتدح الله تعالى أهل المدينة – الأنصار-الذين استقبلوا المهاجرين أروع استقبال فاستحقوا من الله تعالى أن مدحهم وبشرهم بالفلاح فقال: ﴿والَّذينَ تبَوَّءوا الدَّارَ والإيمانَ مِن قَبلِهِم يُحبُّونَ مَن هاجرَ إلَيهِم ولا يجِدونَ في صُدورِهِم حاجَةً مِمَّا أُوتوا ويُؤثِرونَ عَلى أَنفُسِهم وَلو كانَ بِهم خَصاصةٌ وَمن يُّوقَ شُحَّ نَفسهِ فَأولئكَ همُ المُفلِحونَ﴾[381]. فهذه الآية تمدح سكان المدينة، الذين تمكّن ايمانهم بالله تعالى وإيمانهم برسوله صلى الله عليه وآله وسلم، واستملك مجامع قلوبهم، قبل أن يهاجر إليهم المسلمون من مكة، وهؤلاء هم الأنصار رضي الله عنهم، الذين استقبلوا المهاجرين، بكامل الحب والإخاء، ويساعدونهم والمساعدة والمواساة، ولم يجدوا في نفوسهم غيظاً أو حسداً أو حزازة للمهاجرين، على ما أوتي المهاجرون من الفيء الذي خُصُّوا به، بل طابت أنفسهم بذلك، مع أنهم كانوا جميعاً في دور الأنصار، وقدّموا المهاجرين على أنفسهم في الأموال والسكن، وسائر حظوظ الدنيا، ولو كانوا محتاجين أو فقراء، فرضي الله تعالى عن المهاجرين والأنصار[382].

---

[379] الحشر، 59/ 9.

[380] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج: 28، ص: 78.

[381] الحشر، 59/ 9.

[382] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج: 28، ص: 84.

لقد رضي الله تعالى عن المهاجرين الصابرين على فراق أوطانهم وأموالهم، الذين ضحوا بكل ما يملكون في سبيل الله تعالى، ورضي الله تعالى عن الأنصار أيضاً بما اتصفوا به من قوة الإيمان، والصبر على ما وجدوه من أحوالٍ في استقبال إخوانهم المهاجرين، ومواساتهم، وكمال أخلاقهم معهم.

الحكمة الثالثة: تحقيق فوائد دنيوية وأخروية للمهاجرين: إن الله تعالى يبتلي العبد بهجرة بلده ووطنه، ولا يعلم العبد أن في هذه الهجرة خير عظيم يريد الله تعالى أن يسوقه إليه، وقد أوضحت الآيات القرآنية الكريمة كثيراً من الفوائد الدنيوية، والأخروية:

أما الفوائد الدنيوية: الفائدة الأولى: التبوء الحسن في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذينَ هَاجرُوا في اللَّهِ مِن بَعدِ ما ظُلموا لنبَوّئنَّهُم في الدُّنيَا حَسنَةً ولَأَجرُ الآخرةِ أَكْبرُ لَو كانُوا يَعلَمُونَ (41) الَّذينَ صبَرُوا وعَلى ربِّهِم يَتوَكَّلونَ (42)﴾[383]. أي: تركوا الوطن والأهل والأقرباء في الله تعالى أو لأجل دين الله، وتركوا المعاصي والسيئات. من بعد ما أوذوا وعذبوا في الله. نزلت في بلال وصهيب وعمار وخباب رضي الله عنهم، عذبهم مشركو أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا، فلما تركوهم هاجروا إلى المدينة، قاله الكلبي رحمه الله تعالى. وقال قتادة رحمه الله تعالى: المراد أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد ظلمهم المشركون بمكة، وأخرجوهم حتى هاجر فريق منهم إلى الحبشة، ثم بوأهم الله تعالى دار الهجرة-المدينة-وجعل لهم إخواناً وأنصاراً من المؤمنين.

وفي الحسنة المذكورة في الآية أقوال ستة وهي: الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن والشعبي وقتادة رحمهم الله: نزول المدينة المنورة. والثاني: وقال مجاهد رحمه الله: الرزق الحسن. والثالث: وقال الضحاك رحمه الله: النصر على عدوهم. والرابع: حكي عن ابن جريج بأنه لسان صدق. والخامس: فتح البلاد والاستيلاء عليها. والسادس: الثناء لهم في الدنيا، والشرف لأولادهم من بعدهم[384]. فهذه الأقوال تدل على أن من هاجر في الله تعالى، سيفتح الله تعالى له البلاد، ويوسع عليه في الرزق، وينصره على عدوه الذين كانوا سبباً في هجرته، ويكرمه بالثناء الحسن والشرف لأولاده.

وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً قال له: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك ربك في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أكثر[385].

---

[383] النحل، 16/ 41-42.

[384] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج: 10، ص:107.

[385] ابن حيان الأندلسي، ***البحر المحيط***، ج: 6، ص: 532.

الفائدة الثانية: إرغام أنوف الأعداء والسعة في العيش: قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهاجِرْ في سبيلِ اللَّهِ يَجدْ في الأَرضِ مُراغَمًا كثِيرًا وسَعَةً وَمَن يَّخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهاجِرًا إلى اللَّهِ وَرسُولِهِ ثُمَّ يُدركْهُ الْموتُ فَقَد وَقعَ أَجرُهُ عَلى اللَّهِ وكانَ اللَّهُ غَفورًا رحيمًا﴾[386]. ومن معاني هذه الآية: أنَّ من يهاجر في سبيل الله من وطنه إلى بلد آخر، فإنه سيجد في ذلك البلد من النعمة والخير والسعة؛ ما يكون سبباً في إرغام أنوف أعدائه من أهل بلده الأصلي، لأن من هاجر وذهب إلى بلدة أخرى، واستقامت أحواله وأموره، فبوصول خبر استقامة أحواله وسعة عيشه إلى أهل بلده الذين أخرجوه ستُرغم أنوفهم، وسيشعرون بالانتكاس والخيبة من سوء معاملتهم معه، والله أعلم. وكأنه قيل: يا أيها الإنسان إن كنت تكره الهجرة عن وطنك، خشية الوقوع في المحنة والمشقة في السفر، فلا تخف ولا تخشى، فإن الله عز وجل سيعطيك من الخيرات والنعم الجليلة، ويجعل لك من المراتب العالية في مهاجرتك ما يسبب إرغام أنوف أعدائك، ويكون سبباً لسعة رزقك. وقدم في الآية ذكر إرغام الأعداء، على ذكر سعة العيش، لأن الإنسان الذي ترك وطنه بسبب ظلم أهل بلده يبتهج برغم أنوف أعدائه، أشد من ابتهاجه بالبلد الذي هاجر إليه وصار سببا لسعة رزقه وعيشه[387]. وقال السدي رحمه الله تعالى: المراغَم المبتغى للمعيشة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما والربيع والضحاك رحمهما الله تعالى: السعة تكون في الرزق[388]. فعلى هذين القولين يُستفاد أن المهاجر يوسع الله تعالى عليه في رزقه ومعيشته.

وأما الفوائد الأخروية: الفائدة الأولى: الأجر العظيم لمن يموت في هجرته في سبيل الله تعالى.

إن الذي يهاجر من وطنه خوفاً على نفسه أو على أولاده من الفتنة في الدين، أو خوفاً من المضارّ التي تهدد نفسه أو عرضه أو ماله، أو يهاجر ابتغاء للرزق الحلال، ثم يأتيه أجل الموت في طريق هجرته؛ فهذا يكتب له الأجر العظيم على هذه الهجرة وإن لم يبلغ دار هجرته. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهاجِرْ في سبيلِ اللَّهِ يجِدْ في الأَرْضِ مُراغمًا كثيرًا وسَعةً وَمَن يَّخْرُجْ مِن بَيتِهِ مُهاجِرًا إلى اللَّهِ ورسولِهِ ثُمَّ يُدرِكْهُ المَوتُ فَقَد وَقعَ أَجرُه على اللَّهِ وَكانَ اللَّهُ غفُورًا رَحيمًا﴾[389]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يخبر أهل مكة بما ينزل فيهم من القرآن، فكتب الآية التي نزلت: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ فلما قرأها المسلمون قال حبيب بن ضمرة رضي

---

[386] النساء، 4/ 100.

[387] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج: 11، ص: 198.

[388] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج:5، ص:348.

[389] النساء، 4/ 100.

الله عنه لأولاده وكان شيخاً كبيراً: احملوني فإني لست من المستضعفين، وإني لا أهتدي إلى الطريق- أي طريق المدينة- فحمله أولاده على سرير وتوجهوا به إلى المدينة، فلما وصل التنعيم أشرف على الموت، فصفق بيده اليمنى على يده اليسرى، وقال: اللهم هذه لك، وهذه لرسولك، أبايعك على ما بايعتْك يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم مات، فبلغ خبره إلى الصحابة رضي الله عنهم -فقالوا: لو وافى المدينة لكان أتم أجراً، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيه هذه الآية[390].

وقال العلماء: كل هجرة لغرض ديني-من طلب علم، أو جهاد، أو حج، أو فرار إلى بلد يزداد فيه إيماناً وطاعة، أو زهداً في الدنيا وقناعة، أو ابتغاء الرزق الحلال-فهي هجرة إلى الله ورسوله. وإن أدركه الموت في طريق هجرته، فأجره واقع على الله سبحانه وتعالى[391].

الفائدة الثانية: تكفير السيئات ودخول الجنة: قال الله تعالى: ﴿فَاستَجابَ لَهُم رَبُّهم أَنِّي لَا أُضِيعُ عَملَ عَاملٍ مِنكُم مِن ذَكرٍ أَو أُنْثى بَعضُكم مِن بَعضٍ فَالَّذينَ هاجرُوا وَأُخْرِجوا مِن دِيَارِهمْ وَأُوذُوا فِي سَبيلي وقَاتلُوا وَقُتِلوا لَأُكَفِّرنَّ عَنهُم سيِّئَاتِهمْ ولَأدْخِلنَّهُم جَنَّاتٍ تَجْري مِن تَحتِها الْأَنْهارُ ثَوابًا مِن عِنْدِ اللَّهِ واللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوابِ﴾[392]. فالآية تدل على أن كل من أوذي في الله تعالى، وهاجر في سبيله، فإن الله تعالى سيكفر عنه سيئاته ويدخله الجنة، وإن كانت الهجرة قد انقطعت بعد الفتح، إلا أن معناها باق إلى يوم القيامة[393]. فالهجرة باقية بمعناها العام إلى آخر الزمان، كما كانت في صدر الإسلام[394].

ثم إن الجزاء المذكور هل هو مشروط بالقيام بجميع الأعمال المذكورة في الآية، أم هو لكل من قام ببعض تلك الأعمال؟ والجواب: بأن الله تعالى ذكر العمل الصالح بلفظٍ مجمل، ثم فصل ذلك بذكر أفراد هذا اللفظ، على سبيل التعظيم والمدح، وأول هذه الأعمال الهجرة، وهو المذكور في قوله تعالى:﴿ فَالَّذينَ هاجرُوا﴾ أي: هجرة الشرك، أو هجرة الأوطان والعشيرة في سبيل الله والمحافظة على الدين، والعمل الثاني الهجرة القسرية، الاضطرارية ومذكور في قوله تعالى: ﴿وَأُخْرِجوا مِن دِيَارِهمْ﴾ فالأول عبارةٌ عن نفس الهجرةِ، والثاني عن الكيفية. وأما العمل الثالث فهو الإيذاء من المشركين والأعداء في الله تعالى، بسبب التمسك بدين الله تعالى وشرعه، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَأُوذواْ

---

[390] الواحدي، ***أسباب نزول القرآن***، ص: 178.

[391] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج:1، ص:557.

[392] آل عمران: 195.

[393] ابن عطية الأندلسي، ***المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز***، ج: 1، ص: 557.

[394] النسفي، ***مدارك التنزيل وحقائق التأويل***، ج:1، ص: 323.

في سبيلي﴾. وأما العمل الرابع فهو الجهاد في سبيل الله تعالى وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وقاتلُواْ﴾. والعمل الخامس الشهادة في سبيل الله تعالى وهو المصرَّح به في قوله تعالى: ﴿وَقُتِلُواْ﴾. وليس المراد أن يتصف المرء بكل هذه الصفات، وإنما المراد اتصاف المسلمين بها على الإجمال بحيث تتأتى هذه الصفات من الجميع، سواءً اتصف كلِّ فردٍ بواحدٍ من هذه الأوصاف، أو باثنين منها، أو بأكثرَ، ولو اشترط ثبوت الأجر لمن يأتي بجميع الأعمال المذكورة، لضاع عمل من يأتي ببعضها، كيف والله تعالى قال: ﴿لَا أُضِيعُ عَملَ عَاملٍ مِنكُم﴾ لذا تقرر أن من هاجر هجرةً مشروعة يكفر الله تعالى عنه سيئاته ويدخله الجنة[395] والله أعلم.

الفائدة الثالثة: نشر الدعوة إلى الله تعالى وإعلاء كلمته، فالمقصود من الهجرة إعداد المؤمنين الكاملين، المتصفين بالإخلاص، الذين يضحون بأنفسهم وأموالهم وأوطانهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى[396].

وهجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهجرة الصحابة رضي الله عنهم مشهورة في كتب السيرة، حيث هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف، وهاجر إلى المدينة المنورة، وهاجر الصحابة رضي الله عنهم إلى الحبشة مرتين، وعرض جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه على النجاشي مبادئ الإسلام[397].

وبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصحابة إلى مختلف البلدان، يدعون إلى الله تعالى وينشرون دينه، فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في إحدى البعثات جمعاً من الصحابة إلى أهل بئر معونة في السنة الرابعة من الهجرة، ليعلموا الناس كتاب الله تعالى، والعلم والإيمان، وكان أميرهم المنذر بن عمرو، فقتلهم عامر بن الطفيل، فوجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك الحدث وجداً شديداً، وقنت شهراً في الصلوات الخمس، يدعو على جماعة من تلك القبائل باللعن والسنين، فنزل قوله تعالى: ﴿لَيسَ لكَ منَ الأَمرِ شيءٌ أَو يتُوبَ عَلَيْهِم أَو يُعذِّبَهُم فإِنَّهم ظالمونَ﴾ [398].

الحكمة من الابتلاء بموت الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام: إن الله تعالى اختار للبشر رسلاً من أنفسهم، يدعونهم إلى الله تعالى، ويبلغونهم أحكام دينه، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصطَفِي منَ

---

[395] أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى، ***إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم***، ج: 2، ص: 134.

[396] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج: 21، ص: 24.

[397] البوطي، ***فقه السيرة النبوية***، يُنظر الصفحات التالية: 91-100-132.

[398] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج:1، ص: 504.

الْملائِكةِ رُسلًا ومِن النَّاسِ إنَّ اللَّهَ سَميعٌ بَصيرٌ﴾[399]. وختم الأنبياء والرسل بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال الله تعالى ﴿لَقد مَنَّ اللَّهُ على المُؤمِنينَ إذ بَعثَ فيهِم رَسولًا مِّن أنفُسِهِمْ يَتلُو عَلَيهِم آياتهِ ويُزَكِّيهم ويُعَلِّمُهمُ الكِتابَ والحِكمَةَ وإن كَانوا مِن قَبلُ لفِي ضلَالٍ مُّبِينٍ﴾[400].

فالرسل عليهم الصلاة والسلام بشر يأكلون ويشربون وينامون ويتزوجون ويموتون، ومع ذلك تميزوا عن سائر البشر بالوحي والرسالة قال الله تعالى: ﴿قُل إنَّما أنَا بَشرٌ مِّثْلُكُم يُوحى إليَّ أَنَّما إلَهكُم إلهٌ واحِدٌ فاستَقيمُوا إلَيهِ واستَغْفِروهُ وَويلٌ لِّلمُشرِكينَ﴾[401].

ولذا نبه الله تعالى المؤمنين في كتابه أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام سيموتون، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيموت، قال الله تعالى: ﴿وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رسُولٌ قَد خَلَت مِن قَبْلِهِ الرُّسلُ أَفَإِنْ مَّاتَ أَو قُتلَ انْقَلَبتُم عَلى أَعْقَابِكُم وَمَنْ يَّنقَلِبْ عَلى عَقِبَيْه فَلَنْ يَّضُرَّ اللَّهَ شَيئًا وسَيجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرينَ﴾[402]. وأما الحكمة من موت الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهي أن يعلم الناس أنه بموت الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يموت الدين، ولا تزول التعاليم الربانية، ولا تتعطل التشريعات الحكيمة، بل إن الدين يبقى، والشريعة قائمة ومستمرة.

وقد أعَلَمَ الله تعالى عباده في الآية السابقة أنَّ الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يبقون في أقوامهم إلى الأبد، والواجب عليهم إن فقدوا الرسول بموت أو قتل؛ أن يتمسكوا بما جاءهم به من دين وعلم وأخلاق. ففي هذه الآية عتاب للمنهزمين[403]، أي لم يكن لهم أن ينهزموا حتى ولو قتل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فالنبوة لا تدفع الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[404].

فإن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم سيذهب ويموت، كما مات من قبله من الرسل، وكما أنَّ أتباعهم لم ينقلبوا عن دينهم بعد موتهم، فعليكم أيها المسلمون أن تتمسكوا بدينكم بعد موته وخلوه، لأن المقصود من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام إلزام الحجة، وتبليغ الرسالة، لا وجوده بين أظهر قومه[405].

---

[399] الحج، 22/ 75.

[400] آل عمران، 3/ 144.

[401] فصلت، 41/ 6.

[402] آل عمران، 3/ 144.

[403] أي: في غزوة أحد عندما شاع خبر مقتل النبي صلى الله عليه وسلم.

[404] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج: 4، ص: 222.

[405] النسفي، ***مدارك التنزيل وحقائق التأويل***، ج:1، ص: 297.

فالحكمة الربانية من موت الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أن يتعلق الناس بدين الله تعالى وأن لا ينقلبوا بعدهم مرتدين، لذا ختم الله تعالى الآية السابقة بقوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾. أي الثابتين على دين الله تعالى. والنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يحث الصحابة رضي الله تعالى عنهم على التمسك بدين الله تعالى ويحذر من الرجوع عن الدين بعده ومنه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بهما: كتاب الله وسنة نبيه»[406].

الحكمة من الابتلاء بموت العلماء: التنبيه على أن بركة الأرض بالعلم وأهله، وإذا قبض العلماء والصالحون رفعت البركة، وآذنت الأرض بالخراب.

قال الله تعالى: ﴿أَولَم يَرَوا أَنَّا نَأْتي الأَرضَ نَنقُصُها مِن أَطْرافِها واللَّهُ يَحكُمُ لا مُعقِّبَ لِحكْمِهِ وهُو سَريعُ الحِسابِ﴾[407]. وقد ذكر المفسرون أقوالاً عدة في المراد من قوله تعالى:(ننقصُها من أطرافها) ومنها: أن المراد الفتوحات بلاد الكفار التي يجريها الله تعالى على أيدي المسلمين[408]. وقال البغوي رحمه الله: قال عطاء وجماعة: نقصان الأرض بموت العلماء، وذهاب الفقهاء. ويؤيد ذلك ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: " إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسُئِلوا فأفتوا بغير علم، فَضَلُّوا وأضَلُّوا". وقال الحسن رحمه الله: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: موت العالم ثلمة في الإسلام، لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله. وقال علي رضي الله عنه: إنما مثل الفقهاء كمثل الأكف، إذا قطعت كف لم تَعُدْ. وقال سليمان: لا يزال الناس بخير، ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر، فإذا هلك الأول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس. وقيل لسعيد بن جبير رحمه الله: ما علامة هلاك الناس؟ قال: هلاك علمائهم[409].

وعن عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى في قول الله تعالى: ﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ قال: ذهاب فقهائها، وخيار أهلها. قال أبو عمر بن عبد البر: تأويل عطاء للآية

---

[406] مالك بن أنس بن عامر، الأصبحي المدني، (المتوفى: 179هـ)، ***الموطأ***، ت ح: محمد مصطفى الأعظمي، زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية -أبو ظبي – الإمارات، الطبعة: الأولى، 1425 هـ -2004 م، ج:5، ص: 1323.

[407] الرعد، 13/ 41.

[408] البيضاوي، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ج:3، ص: 190.

[409] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج:3، ص:28.

حسن جداً، تلقاه أهل العلم بالقبول. وحكي عن مجاهد وابن عمر، وعن مجاهد رحمه الله: ﴿ننقصها من أطرافها﴾ قال: موت الفقهاء والعلماء. والطرف في اللغة: الكريم من كل شيء[410]. وقال العز بن عبد السلام رحمه الله: ﴿نَنقُصُهَا﴾ بالفتوح على المسلمين من بلاد المشركين، أو بنقصان بركتها وبمحيق ثمرتها، أو بخرابها بعد عمارتها، أو بموت فقهائها وخيارها[411].

الحكمة من ابتلاء أحد الزوجين بالآخر: لقد تنوعت أشكال ابتلاءات الزوجين ببعضها، كابتلاء أحدهما بالبعد عن دين الله تعالى بكفر أو فسقٍ أو فجور، وابتلاء الزوج بزوجةٍ ناشزة عاصية، وابتلاء الزوجة بزوج ظالم، وفي تلك الابتلاءات حكم لا يحيط بها إلا العليم القدير سبحانه وتعالى، وسنشير إلى شيء منها حسب ما لاح من الآيات القرآنية الكريمة:

الحكمة الأولى: مسؤولية كل زوج عن نفسه في حال اختلافهما في العقيدة والمنهج. إن الحكمة من ابتلاء أحد الزوجين بالفسق، أو الكفر، أو البعد عن منهج الاستقامة، هي الحكمة التي توحي إليها الآيات القرآنية الكريمة في ابتلاء كلٍّ من نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام بزوجتيهما، وهي الحكمة من ابتلاء آسية امرأة فرعون بفرعون، قال الله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذينَ كفَروا امرَأَتَ نوحٍ وامرَأتَ لُوطٍ كَانتا تَحتَ عَبدَينِ مِن عِبادِنا صالِحَينِ فَخانَتاهُما فَلم يُغْنِيا عَنهُما مِن اللَّهِ شَيئًا وَقيلَ ادخُلا النَّار مَع الدَّاخِلِينَ (10) وَضرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذينَ آمنُوا امرَأتَ فِرعَونَ إذ قَالتْ ربِّ ابنِ لي عِندَكَ بَيتًا في الجَنَّة وَنجِّني مِن فِرعَونَ وَعَملِهِ ونَجِّني مِن الْقَومِ الظَّالمينَ (11)﴾[412]. فالحكمة الأولى من هذا الجانب: أن يعلم الإنسان أنه لا ينفعه صلاح أقرب الناس إليه إذا لم يلتزم بدين الله تعالى حتى ولو كان نبياً، فامرأة نوح وامرأة لوط كانتا زوجتين لنبيين، ولكنهما خانتا زوجيهما بالبعد عن دين الله تعالى، ومحاولة إيذائهما، فاستحقا العذاب الأليم من الله تعالى[413].

ومن جانب آخر: أن الإنسان إذا المعتصم بربه سبحانه وتعالى لا تضره معصية غيره، ولو كانت المعصية صادرة من زوج، كما قال الله تعالى: ﴿قُل أَغَيرَ اللَّهِ أَبْغي ربًّا وهُوَ ربُّ كلِّ شَيءٍ ولا تَكسِبُ كلُّ نَفسٍ إلَّا علَيها وَلا تَزرُ وازِرةٌ وزْرَ أُخرَى ثمَّ إلى ربِّكُم مَرجِعُكم فيُنَبئُكم بِما كُنتُم فِيه

---

[410] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج:9، ص:334.

[411] عز الدين السلمي، عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: 660هـ)، ***تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي)***، ت ح: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم – بيروت، الطبعة: الأولى، 1416هـ/ 1996م ج:2، ص: 157.

[412] التحريم، 66/10-11.

[413] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج:5، ص:123.

تَختَلفونَ﴾[414]. عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ضَربَ اللَّهُ مثَلا لِلَّذينَ كفَروا امرَأَتَ نوحٍ وامرَأَتَ لوطٍ﴾ أما امرأة نوح، فكانت تخبر أنه مجنون؛ وأما خيانة امرأة لوط، فكانت تَدُلّ على لوط. وعنه أيضاً: أنه قال: خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، فامرأة نوح كانت تطلع على أسراره، وكانت تخبر الجبابرة إذا آمن أحد مع نوح عليه الصلاة والسلام، وأما امرأة لوط فكانت تخبر أهل السوء من أهل المدينة عن أضيافه ﴿فَلَم يُغنيَا عَنهُمَا مِن اللَّهِ شَيئًا﴾. قال قتادة رحمه الله تعالى: يقول الله: لم يغن صلاح هذين عن هاتين شيئًا، وامرأة فرعون، لم يضرّها كفر فرعون[415]. وقال الزمخشري رحمه الله: مثل حال المؤمنين في ثباتهم كحال امرأة فرعون، فكما أن امرأة فرعون كانت لها منزلة عظمى عند ربها سبحانه وتعالى، ولم يضرها كفر زوجها الذي كان أعتى أهل زمانه، كذلك المؤمنون لا يضرهم صلة الكافرين، ولا تُنقص من ثوابهم وأجرهم ومنزلتهم عند الله تعالى شيئاً، إذا استمسكوا بدين الله تعالى[416]. وقال الرازي رحمه الله: اشتمل ضرب المثل بامرأة نوح، وامرأة لوط، على فوائد كثيرة لا يحيط بها إلا الله تعالى، ومنها العلم بأن صلاح الغير لا ينفع المفسد، وفساد الغير لا يضر المصلح، ومنها تنبيه الرجل ألَّا يأمن المرأة، ولا يأمن نفسه، حتى لو كان في غاية الصلاح، كالصادر من امرأتي نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام[417].

الحكمة الثانية: اختبار إيمان الزوجة وصبرها إذا ابتليت بزوجٍ ظالمٍ: قد تبتلى الزوجة بزوجٍ ظالم، يمارس عليها أشكالا كثيرة من الظلم، كالضرب والسب والشتم واللعن والتضييق عليها، وقد يأمرها بأمر محرم.

وقد ابتليت امرأة بفرعون الذي كان أعتى أهل الأرض، فعذب زوجته أشد العذاب، فصبرت وثبتت على إيمانها، فنالت من الله تعالى بإيمانها وصبرها النجاة في الدنيا، والكرامة في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَضَربَ اللَّهُ مَثلًا لِلَّذينَ آمَنوا امْرأتَ فِرعَونَ إذْ قَالَت رَبِّ ابنِ لِي عِندَكَ بَيتًا فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرعَونَ وَعَملِهِ وَنجِّني مِن القَوْمِ الظَّالِمينَ﴾[418]. قال الزمخشري رحمه الله: عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: أن فرعون وَتَدَ امرأته بأربعة أوتاد، واستقبلَ بها الشمس، وأضجعها على ظهرها، ووضع

---

[414] الأنعام، 6/ 164.

[415] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:23، ص:497-498.

[416] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج:4، ص:571.

[417] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج: 30، ص: 576.

[418] التحريم، 11/66.

رحى على صدرها. وقيل: أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة، فدعت ربها سبحانه وتعالى فخرجت روحها قبل وقوع الصخرة عليها، فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه. وعن الحسن رحمه الله: نجاها الله تعالى أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة، فهي تأكل وتشرب وتتنعم فيها. وقيل: لما قالت ﴿رب ابن لي عندك بيتا في الجنة﴾: أراها الله تعالى بيتها في الجنة وهو يُبْنَى. وقيل: إن بيتها من دُرَّة. وقيل: كانت تُعذَّب في الشمس، فتظلها الملائكة[419].

وذكر الطبري رحمه الله بسنده عن القاسم بن أبي بَزَّة قال: كانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام. فتقول: آمنت بربّ موسى وهارون؛ فأرسل إليها فرعون، فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأته؛ فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرت بيتها في السماء، فمضت على قولها، فانتزع الله روحها، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح[420]. وفي الآية دليل على أن المظلوم-زوجة كانت أو غيرها-ينبغي أن يتوجه إلى الله تعالى بالتضرع والإنابة والدعاء بتذلل، ويعتصم به ليكشف الله تعالى عنه ذلك الظلم، وينجو من فتنته. وقال الزمخشري رحمه الله عند تفسير الآية السابقة: فيه دليل على أنّ الالتجاء إلى الله تعالى، التوجه إليه، والاستعاذة به، عند نزول الابتلاءات والمحن: من شأن الصالحين، وسنن الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام[421].

الحكمة الثالثة: اختبار الزوج اختبار تكليفٍ في قوامته، واختبار الزوجة في طاعتها لزوجها. قال الله تعالى:﴿ الرِّجالُ قوَّامونَ عَلى النِّساءِ بِما فضَّلَ اللَّهُ بعضَهُم عَلى بَعضٍ وبِما أَنفَقوا من أَموالِهِم فَالصَّالحاتُ قانِتاتٌ حافظاتٌ لِّلْغيبِ بما حَفظَ اللَّهُ واللَّاتي تخافونَ نُشوزَهنَّ فَعظُوهنَّ واهجُروهنَّ في الْمضاجِعِ واضرِبوهنَّ فَإِن أَطَعنَكُمْ فلا تَبغُوا عَليهِنَّ سبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كانَ عليًّا كبيرًا﴾[422].

وسأتحدث عن جانب ابتلاء تكليف الزوج بزوجته، ومن ثَمَّ ابتلاء الزوجة بحسن تبعُّلها لزوجها.

أولاً: ابتلاء الزوج بالقوامة وحسن معاشرة زوجته: إن الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء، والقوامة هي ولاية رعاية وعناية، ولولاية الرجال على نسائهم سببين: سبب وهبي، وآخر كسبي، أما الوهبي: فقوله تعالى ﴿بِما فضَّلَ اللَّهُ بعْضهُم على بَعضٍ﴾ أي: بسبب تفضيل الله تعالى الرجال

---

[419] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج:4، ص: 572.

[420] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:23، ص:500.

[421] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 4، ص: 572-573.

[422] النساء، 4/ 34.

على النساء، بكمال عقولهم وحسن تدبيرهم، ومزيد قوتهم في الطاعات والأعمال، ولهذا السبب خصهم الله تعالى بالنبوة والرسالة، والخلافة، والإمامة، وإقامة الشعائر، والشهادة في القضايا، والجهاد والجمع والجماعات ونحوها، وزيادة السهم في الميراث والتعصيب. وأما الكسبي فقوله تعالى: ﴿وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ﴾ أي بما أنفقوا من مهور ونفقات[423].

ولهذا الأمر كان الرجل مكلفاً برعاية زوجته، وتربيتها، ونصحها، وإذا نشزت وخرجت عن طاعة زوجها فله أن يردَّها إلى الصواب حفاظاً على استقرار بيت الزوجية، وقد أرسى القرآن الكريم القواعد في كيفية ردِّ الزوجة إلى الرشد والصواب إذا نشَزت، فأمر القرآن الكريم بالوعظ أولاً، فإن لم ترجع إلى صوابها فبالهجر ثانياً، وإلا فبالضرب غير المبرح ثالثاً، وبالتحكيم رابعا، فإن لم تُجدِ هذه القواعد نفعاً يُلْجَأُ إلى الطلاق، لئلا يقع أحدهما في الظلم والمعصية.

وكثير من الأزواج يبتلى بزوجته فتخرج عن طاعته ولربما تسيء الخلق معه فيغفل عن الالتزام بالقواعد القرآنية في القوامة، فيلجأ إلى ما يروق له من وسائل محرَّمة كالضرب الشديد، والسب والشتم واللعن وغير ذلك. ويجب مراعاة الترتيب الوارد في الآية، فيجب الوعظ أولاً، فإن لم يتأت المقصود إلا بالضرب فيجوز، والضرب المشروع هو القدر الذي يصلح الزوجة، ويجعلها تقوم بطاعة الزوج والوفاء بحقه، ولا يجوز الضرب الذي يوصل إلى الهلاك، لأن المقصود حصول الصلاح، والزوج يضمن في حال الهلاك[424]. وقال البيضاوي رحمه الله: والأمور الثلاثة المذكورة في الآية يجب مراعاة الترتيب والتدرج فيها[425] والفائدة من الترتيب بين الوعظ، ثم الهجر، ثم الضرب، في الآية للتنبيه على أن الغرض إن حصل بالوسيلة الأخف وجب الاكتفاء بها، ويحرم الإقدام على الوسيلة الأشد. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يعظها بلسانه، فإن انتهت فلا سبيل له عليها، فإن أبت هجر مضجعها، فإن أبت ضربها، فإن لم تتعظ بالضرب، بعث الحكمين[426].

ثم إن الله تعالى في آخر الآية التحذير من ظلم الأزواج فقال:﴿ فَإِن أَطَعنَكُمْ فلَا تَبغُوا عَلَيهنَّ سبيلًا إنَّ اللَّهَ كانَ علِيًّا كبيرًا﴾. أي إذا رجعن إلى الطاعة بعد النشوز، بهذا التأديب، فلا تسلكوا سبيل

---

[423] البيضاوي، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ج: 2، ص: 72.

[424] الكيا الهراسي، علي بن محمد بن علي أبو الحسن الطبري (المتوفى: 504هـ)، ***أحكام القرآن***، ت ح: موسى محمد علي وعزة عبد عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، 1405 هـ ج: 2، ص: 450.

[425] البيضاوي، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ج:2، ص:73.

[426] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج: 10، ص: 72.

الضرب والهجران تعنتاً وإيذاء، وذكر صفتي العلي الكبير في آخر الآية في غاية الحسن والجمال، وذلك لوجوه: الأول: تهديد الأزواج من ظلم أزواجهم، والمعنى أنَّ الزوجات إن ضعفن عن ردِّ ظلمكم، وعجزن عن أخذ حقوقهن منكم، فالله سبحانه وتعالى علي كبير قاهر، قادر على أخذ حقوقهن منكم والانتصاف لهن منكم، فلا تغتروا بقوتكم وعلوِّ أيديكم عليهن، وأنكم أكبر درجة منهن. الثاني: أن الله تعالى مع كبريائه وعلوه لا يكلفكم فوق طاقتكم، فأنتم كذلك لا تكلفوهن أن يحببنكم، فإن ذلك ليس بأيديهن. الثالث: أن الله تعالى مع كبريائه وعلوه لا يؤاخذ العبد العاصي إذا تاب إليه، بل يغفر له زلته، فكذلك المرأة إن تابت عن نشوزها، فأنتم أولى بقبول توبتها وترك معاقبتها. الرابع: أنه تعالى مع كبريائه وعلوه، لم يهتك السرائر، واكتفى بالظواهر، فأنتم من باب أولى يجب أن تكتفوا بظاهر المرأة، وأن لا تفتشوا عما يوجد في قلبها من حب وبغض[427]. فطبيعة المرأة الضعف والغفلة والنسيان، وابتلاء الزوج بطبيعة زوجته؛ امتحان لإيمانه وصبره وسعة أخلاقه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»[428].

فالمطلوب من الرجل أن يحكِّم دينه وعقله في ترك بغضها وظلمها، إذا بدر من زوجته غفلة أو سوء خلقٍ، وأن يعاشرها بالمعروف، ولا يبغضها، لأن العبد لا يعلم مكامن الخير، قال تعالى:﴿ وَعاشِروهُنَّ بِالْمعْروفِ فَإِن كَرِهْتُموهُنَّ فَعسى أَن تَكْرهُوا شيْئًا وَيجْعلَ اللَّهُ فيهِ خَيرًا كثِيرًا﴾[429]. عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الخير الكثير: أن يعطف عليها، فيُرزق الرجل منها الولد، ويجعل الله في ولدها خيرًا كثيرًا[430].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا، رضي منها آخر[431]. ويروى أنه كان للشيخ أبي محمد بن أبي زيد زوجة سيئة العشرة وكانت تقصر في حقوقه وتؤذيه بلسانها، وكان على قدر كبير من العلم والدين والمعرفة. فقيل له في أمرها شيئاً، فيقول لابد من الصبر عليها، وكان يقول: إن الله تعالى أكمل نعمتي بصحة

---

[427] الرازي، ***المصدر نفسه***، ج:10، ص: 73.

[428] البخاري، ***الجامع المسند الصحيح المختصر***، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم عليه الصلاة والسلام رقم الحديث:3331.

[429] النساء، 4/ 19.

[430] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:8، ص:123.

[431] مسلم، ***المسند الصحيح المختصر***، كتاب الحج، باب الوصية بالنساء، رقم الحديث: 1469.

بدني، والعلم والمعرفة، وما ملكت يميني، فلعل الله تعالى بعثها عقوبة لي، على ذنب أذنبته، فأخاف إن فارقتها أن يُنْزل الله تعالى بي عقوبة هي أشد منها[432].

ثانياً: ابتلاء الزوجة بحسن التبعُّل لزوجها وطاعته وحفظه في نفسها وماله: تقدم الحديث في الفقرة السابقة عن ابتلاء الرجل بالقوامة، وبالمقابل فإن الزوجة أيضاً ابتلاها الله تعالى بحسن التبعُّل لزوجها والطاعة والحفظ له في نفسها وماله. قال الله تعالى:﴿ الرِّجَالُ قَوَّامونَ على النِّساءِ بِما فضَّلَ اللَّهُ بَعضَهُم عَلى بَعضٍ وَبِما أَنفَقوا مِن أَموَالِهِم فالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلغَيبِ بِما حَفظَ اللَّهُ وَاللَّاتي تَخافونَ نُشوزَهنَّ فَعِظوهُنَّ واهْجرُوهُنَّ في الْمَضاجِعِ واضْرِبوهُنَّ فَإنْ أَطعْنَكُمْ فَلا تَبغُوا عَلَيهِنَّ سَبِيلا إنَّ اللَّهَ كانَ عليًّا كَبيرًا ﴾ [433]. أوضحت هذه الآية أن المرأة لا تكون صالحة إلا إذا اتصفت بالطاعة لزوجها، لأن الله عز وجل قال: فالصالحات قانتات والألف واللام في لفظ الجمع يفيد الاستغراق، وهذا يفيد بأن كل امرأة صالحة، لا بد أن تكون قانتة أي مطيعة. ولفظ القنوت الوارد في الآية يفيد الطاعة، وهو عام في طاعة الله تعالى، وطاعة الزوج، ثم وصف الله تعالى المرأة في حال غياب زوجها عنها فقال: ﴿حافظات للغيب﴾ والغيب خلاف الشهادة، والمعنى: أنها تحفظ نفسها عن الوقوع في الزنا، لئلا يلحق زوجها العار، ولئلا ينتسب إليه ولد ليس من صلبه، هذا جانب. ومن جانب آخر: حفظ ماله من الضياع، وحفظ منزله، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " خير النساء إن نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها" ثم تلا هذه الآية[434].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟ الودود، الولود، العؤود على زوجها، التي إذا آذت أو أوذيت، جاءت حتى تأخذ بيد زوجها، ثم تقول والله لا أذوق غمضاً حتى ترضى"[435]. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: " أتى رجل بابنته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إن ابنتي هذه أبت أن تتزوج، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:" أطيعي أباك. قالت: والذي بعثك بالحق لا أتزوج حتى تخبرني ما حق الزوج على زوجته. قال: حق الزوج على زوجته لو كانت به قرحة فلحستها، أو انتثر

---

[432] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج: 5، ص: 98.

[433] النساء، 4/ 34.

[434] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج:10، ص: 71.

[435] النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (المتوفى: 303هـ)، ***السنن الكبرى***، ت ح: حسن عبد المنعم شلبي، ج: 8، ص: 251. كتاب عشرة النساء، باب شكر المرأة لزوجها، رقم الحديث: 9094، مؤسسة الرسالة -بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ -2001 م.

منخراه صديدا أو دما، ثم ابتلعته ما أدت حقه، قالت: والذي بعثك بالحق لا أتزوج أبدا. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا تُنكِحوْهُنَّ إلا بإذنهن"[436].

الحكمة من الابتلاء بالعقم (عدم إنجاب الأولاد): وقد يبتلي الله تعالى الزجين أو أحدهما بالعقم، والحكمة من ذلك: اختبار إيمان العبد بالله تعالى وصفاته، واختبار إيمانه بالقضاء والقدر. وبيان نفاذ قدرة الله تعالى ومشيئته في عباده، فالزواج سبب لإنجاب الأولاد، والمسبِّب هو الله سبحانه وتعالى، وقد لا تتوافر الأسباب ويحصل المسبَّب كما خلق الله تعالى سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام من غير أبوين، وخلق حواء كذلك، وكما خلق الله تعالى سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام من غير أب، فالمسألة إذاً متعلقة بقدرة الله العليم القدير.

فإذا ما وجدت الأسباب لا يعني حصول المسبَّبات، وفي هذا اختبار لإيمان الإنسان بربه سبحانه وتعالى، واختبار له في رضاه بقضاء الله تعالى وقدره، واختبار للعبد في الإقرار بقدرة الله تعالى ومشيئته وإرادته، والذي يتأمل الآية الكريمة الآتية يلاحظ الحكمة من هذا الابتلاء بشكل واضح، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ والْأَرضِ يَخلُقُ ما يَشاءُ يَهبُ لِمَن يَّشاءُ إناثًا وَيهَبُ لِمن يَّشاءُ الذُّكورَ (49) أَو يُزوِّجُهم ذُكْرانًا وَإناثًا وَيجْعلُ مَن يَّشاءُ عَقيمًا إنَّهُ عَليمٌ قَديرٌ (50)﴾[437].قال الشيخ الطنطاوي: وقوله تعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرضِ يَخلقُ ما يَشاءُ﴾ بيان لكمال قدرة الله سبحانه وتعالى ونفاذ مشيئته. والمُلك الاستيلاء على الشيء، والتمكن من التصرف فيه. أي: لله سبحانه وتعالى وحده ملك جميع ما في السماوات والأرض، ولا يشاركه أحد في ملكه عز وجل، وهو تعالى يخلق ما يشاء أن يخلقه. ثم فصل سبحانه بعض مظاهر قدرته التامة، وإرادته النافذة، فقال سبحانه: ﴿يَهبُ لِمَن يَّشاءُ إناثاً وَيَهبُ لِمن يَّشاءُ الذُّكورَ، أَو يُزَوّجُهم ذُكْراناً وإناثاً وَيجْعلُ مَن يَّشاءُ عَقيماً﴾ فأحوال الناس بالنسبة للنسل والذرية أربعة أقسام: إما أن يهب الله تعالى لمن يشاء من عباده إناثا فقط، وإما أن يهب لبعضهم ذكورا فقط، وإما أن يهب لبعضهم إناثاً وذكوراً معاً، لأن معنى التزويج الجمع بين البنات والبنين، وإما أن يجعل البعض عقيما، لا ذرية له ولا ولداً، ذكرا كان العقيم أو أنثى. ويقال رجل عقيم، وامرأة عقيم، إذا كانا لا ذرية لهما. وهذه الأحوال كلها مشاهدة في حياة الناس، فمنهم من رُزق إناثاً فقط، ومنهم من رُزق ذكوراً فقط، ومنهم من رُزق ذكوراً وإناثاً، ومنهم من لم يرزقْه الله تعالى بشيء من ذلك، وهذا

---

[436] الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: 807هـ)، ***مجمع الزوائد ومنبع الفوائد***، ت ح: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1414 هـ، 1994 م ج:4، ص: 307.

[437] الشورى، 42/ 49-50.

يدل على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى، ونفاذ مشيئته وإرادته، وحكمته، إذا أعطى فبفضله، وإذا منع فلحكمة يعلمها، فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه. فالآية الكريمة مسوقة لبيان أن العطاء والمنع بيد الله تعالى وحده، وأن أحوال البشر بالنسبة للذرية خاضعة لمشيئته وحده، وهو سبحانه وتعالى يقدرها وفق علمه، وإرادته، وحكمته، لا يمكن لأحد تحديد نوع ذريته ونسله، وإذا منع الله تعالى عبداً من نعمة الإنجاب فليس لأحد القدرة على إعطائه. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ تأكيد لقدرته سبحانه وتعالى وحكمته. أي: إن الله تعالى واسع العلم، بأحوال العباد وما يصلح شؤونهم، قدير على كل شيء، فهو يفعل ما يفعله عن قدرة واختيار، لا مكره له ولا معقب لحكمه[438].

فالمراد من الآية الكريمة إذاً: بيان نفاذ قدرته تعالى في الكائنات، ولهذا قال ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي مبالغ في العلم والقدرة، يفعل ما فيه المصلحة والحكمة[439].

الحكمة من الابتلاء بعقوق الأبناء: إن الله تعالى ابتلى كثيراً من العباد بنعمة الأولاد، وقد يكون الابتلاء بالأبناء من وجه آخر، وهو أن يكون هؤلاء الأبناء بلاء ومصيبة، وذلك بما يقومون به من عقوق لآبائهم، فيعادونهم ويفتنونهم، وينغصون عليهم عيشهم، قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا إنَّ مِن أَزوَاجِكُم وَأَولَادِكُم عدُوًّا لكُم فَاحذرُوهُم وإن تَعفُوا وتَصْفحُوا وَتغفِرُوا فإنَّ اللَّهَ غفورٌ رحِيمٌ﴾[440].

يبين الله تعالى في هذه الآية أنَّ من الأزواج مَنْ يعادين أزواجهم ويخاصمنْهم، ومن الأولاد مَن يعادون آباءهم، ويجرعونهم الغصص والأذى، ويعقونهم، لذا حذر الله تعالى من عداوتهم، والضمير في الآية إما للعدوّ، أو للأزواج والأولاد. فالمعنى إذاً: لما علمتم أيها المؤمنون أنَّ هؤلاء لا يخلون من عدوّ، فكونوا على حذر ممن علمتم منهم العداوة من الأزواج والأولاد، فلا تأمنوا شرورهم، وإن تعفوا عنهم ولم تقابلوهم بعداوة مماثلة، فإن الله تعالى يغفر لكم ذنوبكم ويمحو عنكم سيئاتكم[441].

ووجه عداوة الأزواج والأولاد أنهم يشغلون عن طاعة الله، ويخاصمونهم في شؤون الدين أو الدنيا، فاحذروا عداوتهم، ولا تأمنوهم. وإن تعفوا عن أخطائهم وتتركوا معاقبتهم. وتصفحوا عنهم

---

[438] طنطاوي، محمد سيد، ***التفسير الوسيط للقرآن الكريم***، ج: 13، ص: 49-50.

[439] الصابوني، محمد علي، ***صفوة التفاسير***، ص: 135

[440] التغابن، 64/ 14.

[441] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 4، ص: 550.

بالإعراض والتغافل. وتغفروا لهم بإخفائها تمهيداً لتقديم معذرتهم فيها. فإن الله غفور رحيم يعاملكم بمثل ما عاملتم به، ويتفضل عليكم كما تفضلتم عليهم[442].

ومن معاني الصفح عنهم ترك التوبيخ، وكثرة اللوم؛ عما يبدر منهم من أخطاء[443]. وقال ابن جزي رحمه الله تعالى: والتحذير من عداوة الأزواج والأولاد عام، سواء كانت العداوة بسبب الدين أو الدنيا[444].

من خلال الآية الكريمة وتفسيرها نستنتج أن من حكم الابتلاء بعقوق الأبناء ما يلي: الحكمة الأولى: أن يأخذ الإنسان الحيطة والحذر من ابنه الذي هو أقرب الناس إليه، خشية أن يؤذيه في بدنه أو دينه أو دنياه. والحكمة الثانية: اختبار الرجل في عفوه عن زوجته وأبنائه، وترك الانتقام منهم. والحكمة الثالثة: المغفرة والرحمة من الله تعالى للوالد إذا عفا عن ولده، والمغفرة والرحمة للزوج إذا عفا عن زوجته، لأن الجزاء من جنس العمل.

الحكمة من ابتلاء المؤمنين الأبرياء بالقذف وشائعات السوء: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لحقهم الأذى والابتلاء بشتى أصنافه، ومن تلك الابتلاءات: الابتلاء بالاتهامات السيئة في أعراضهم. فقد ابتلي بذلك يوسف عليه الصلاة والسلام، واتُّهِمَ بأنه راود امرأة العزيز عن نفسها، قال الله تعالى: ﴿واسْتَبَقَا البَابَ وقَدَّت قَميصَهُ مِن دُبرٍ وأَلفَيا سَيِّدهَا لَدى البَابِ قالَت مَا جَزاءُ مَن أَرادَ بِأَهلِكَ سوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَو عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[445]. إلا أن الله تعالى برأه من تلك التهمة، واشتهرتْ براءته بين الناس، فقرروا سجْنه إيهاماً أنه هو الذي راودها، قال الله تعالى:﴿ ثمَّ بَدا لَهُم مِن بَعدِ ما رَأوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتى حِينٍ﴾[446]. وابتلي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم والسيدة عائشة وآل أبي بكر، وصفوان ابن المعطل رضي الله عنهم في حادثة الإفك المشهورة، وابتليت به الصديقة مريم ابنت عمران عليها السلام، فقالوا لها كما وصف الله تعالى ذلك فقال: ﴿يا أُختَ هارونَ ما كانَ أَبوكِ امْرَأَ سَوءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[447]. فبرأها الله تعالى بنطق عيسى عليه الصلاة والسلام، وفيما يأتي بيان لشيء من ذلك.

---

[442] البيضاوي، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ج:5، ص:2018-219.

[443] النسفي، ***مدارك التنزيل وحقائق التأويل***، ج: 3، ص: 493.

[444] ابن جزي الكلبي، ***التسهيل لعلوم التنزيل***، ج:2، ص: 381.

[445] يوسف، 12/ 25.

[446] يوسف، 12/ 35.

[447] مريم، 19/ 28.

وبما أن هذا الابتلاء قد لحق أشرف الناس وسادة الخلق من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنه قد يبتلى به بعض المؤمنين العفيفين، وبعض المؤمنات العفيفات. ولله تعالى في هذا الابتلاء حكم عظيمة ولعل من تلك الحكم:

الحكمة الأولى: امتحان صبر المؤمنين إيمانهم: يكفي المؤمن الذي يبتلى بمثل هذا الابتلاء أن يذكر صبر السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، عندما خرجت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة من الغزوات، وعندما رجع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غزوته وقد تخلفت السيدة عائشة رضي الله عنها عن الجيش بسبب فقد عقد لها، ورحلوا وهم يظنون أنها في الهودج، وكان صفوان بن المعطل رضي الله عنه أيضاً وراء الجيش[448]، فلحق بالجيش وفي طريقه رأى سواد إنسان نائم، فعرف أنها السيدة عائشة رضي الله عنها، ولم يتكلم معها بكلمة غير أنه كان يسترجع- يقول إنا لله وإنا إليه راجعون- فركبت راحلته ولحقوا بالجيش، فأشاع رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول خبر الإفك، ولما وصلوا المدينة مرضت السيدة عائشة رضي الله عنها شهراً كاملا، وفقدت ما كانت تجد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من اللطف عندما كانت تمرض، فأحزنها ذلك، وكانت لا تدري بحديث الناس في الإفك، فخرجت بعد أن شفيت مع أم مسطح رضي الله عنها، فأخبرتْها الخبر، فمرضتْ فوق مرضها، ثم استأذنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالذهاب إلى أبويها فأذن لها، فذهبت تسألهم، فقالت لأمها: يا أماه ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما توجد امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر، إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت سبحان الله، وهل تحدث الناس بهذا وبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قالت: نعم؟. قالت: فبكيت ذلك الليل حتى أصبحت، لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع، ثم أصبحت أبكي، حتى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم استشار بعض الصحابة في طلاقها وفراقها، فأشار بعضهم بذلك، وأشار البعض بعدم فراقها، وخطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الصحابة فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول، فقال وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً-يقصد صفوان- وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فقال سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه: إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فاختلفوا في ذلك، وتنازعوا الحديث حتى كادوا يقتتلون فيما بينهم، فخفضهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى سكتوا. وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها بعد ذلك: وبكيت يومي ذلك لا

[448] وكانت مهمته أن يتتبع أمتعة الناس المفقودة فيحملها إلى المنزل الآخر.

يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء سيفلق كبدي، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليَّ وقال: فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألَمَمْتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه، قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما قال. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله. فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيرا من القرآن: والله لقد عرفت أنكم سمعتم هذا، وقد استقر في نفوسكم فصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني، والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا ما قال أبو يوسف: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ فنزلت براءتها رضي الله عنها من الله تعالى قبل أن يبرح النبي صلى الله عليه وآله وسلم البيت. وكان أول كلمة تكلم بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن قال: أبشري يا عائشة، أما والله لقد برأك الله، فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله سبحانه وتعالى هو الذي برأني، قالت: فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ العشر الآيات[449].

ويلاحظ من خلال ما تقدم من حديث الإفك كيف أن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والسيدة عائشة رضي الله عنها وآل أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، وصفوان بن المعطل رضي الله عنه، قد استقبلوا هذا البلاء بالإيمان والصبر والحكمة والتأني، منتظرين فرج الله تعالى عليهم، فما زادهم هذا الابتلاء إلا إيماناً بالله تعالى ويقينا به وتوكلا عليه، وهذا ما ينبغي أن يسلكه كل من يبتلي بمثل ذلك.

ثم إن حادثة الإفك كانت امتحاناً للمؤمنين أيضاً فمنهم من سلم من شرر من تلك الفتنة، ومنهم من لم يسلم من شررها، أما من أصابه شيء من شرر تلك الفتنة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فإنهم تابوا إلى الله تعالى وقَبِل الله تعالى توبتهم.

فالواجب على المؤمن أن يحذر من الإشاعات في أعراض المسلمين لأن الله تعالى نهى عن ذلك، وتوعد من يفعل ذلك بالعذاب الأليم. فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[450]. دلت هذه الآية على وجوب محبة الخير والصلاح للمؤمنين والمؤمنات،

---

[449] الواحدي، ***أسباب نزول القرآن***، ص: 322.

[450] النور، 24/ 19.

وحسن الاعتقاد فيهم، وفيها زجر عن إشاعة الفاحشة، وتخمينها بالظن والحسبان، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه"[451].

الحكمة الثانية: الثواب العظيم للمقذوف، والإثم للقاذف: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ.... الآية﴾[452]. ومعنى كون خبر الإفك خيرا لهم؛ أنهم قد اكتسبوا به الثواب العظيم من الله على قدر البلاء العظيم، وأنه نزلت فيه آيات فيها تعظيم للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وتسلية له، وتنزيه السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وتطهير لأهل البيت مما أشيع، ونذير للطاعنين فيهم[453].

وما حصل للمؤمنين من الضرر في الإفك من ألم وهم وغم ومرض فلا ينافي كونه خيراً لهم، لأن حقيقة الخير: ما زاد نفعه على ضرره، وحقيقة الشرّ: ما زاد ضرره على نفعه، فلا يوجد خير محض إلا في الجنة، ولا يوجد شر محض إلا في النار، أما البلاء الذي ينزل على الأولياء والصالحين فهو خير، لأن ألمه قليل في الدنيا، وخيره -وهو الثواب العظيم-في الآخرة. لذلك كان خبر الإفك خيراً على السيدة عائشة وأهلها آل أبي بكر، وعلى صفوان بن المعطّل رضي الله عنهم جميعاً، لما نالوه من الأجر والثواب العظيم، وأما الذين خاضوا في الإفك وأصروا على التهمة فلهم عقاب في الدنيا وعذاب أليم في الآخرة، وأما الذين تابوا إلى الله وندموا-وهم حسان ومسطح وحمنة رضي الله عنهم-فقد تابوا فغفر الله تعالى لهم[454]. وعن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿لا تحسبوه شرا لكم﴾ يقول لعائشة وصفوان رضي الله عنهما: لا تحسبوا ما قيل لكم من الكذب شر لكم، قوله: ﴿بل هو خير لكم﴾ لكنكم تجزون على ذلك[455].

---

[451] الكيا الهراسي، أحكام القرآن، ج:4، ص: 309.

[452] النور، 24/ 11.

[453] النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمّي النيسابوري (المتوفى: 850هـ)، ***غرائب القرآن ورغائب الفرقان***، ت ح: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى -1416 هـ ج:5، ص: 167.

[454] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج:18، ص:186.

[455] ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي (المتوفى: (327هـ)، ***تفسير القرآن العظيم***، ت ح: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز-المملكة العربية السعودية الطبعة: الثالثة -1419هـ ج:8، ص:2544

الحكمة الثالثة: إظهار حقيقة المنافقين وما يخفونه من عداء تجاه المؤمنين الصادقين: قال الله تعالى: ﴿والَّذي تَولَّى كِبْرَهُ منْهُم لهُ عذابٌ عَظيمٌ﴾[456]. تحدثت هذه الآية الذي تحمل معظم الإثم منهم، عبد الله بن أبي، فإن له عذاباً عظيماً في الدنيا والآخرة، فهو أول من اختلق وافترى هذا الخبر، أو أنه كان يجمعه ويذيعه وينشره، وأما عذابه الدنيوي: فبإظهار نفاقه، ونبذ المجتمع له، وأما عذابه الأخروي: ففي أسفل دركات جهنم[457]. كما قال تعالى: ﴿إنَّ الْمُنافِقينَ في الدَّركِ الأَسفَلِ منَ النَّارِ ولَن تجِدَ لَهُم نَصيرًا﴾[458]. والذي سعى في نشر الخبر وترويجه وإشاعته، عبد الله بن أبي بن سلول، لإمعانه في عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وانتهازه الفرص، وطلبه سبيلا إلى الغميزة، فتوعده الله بالعذاب العظيم، لأن معظم الشر كان منه. وعندما أتت السيدة عائشة رضي الله عنها مع صفوان رضي الله عنه، قيل: من هذه؟ فقالوا: عائشة رضى الله عنها، فقال ابن أبي: والله ما نجت منه ولا نجا منها، ثم قال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها[459].

فقد كان ا بن أبي-عليه لعنة الله-يتربص الفرص في عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فله الذل والصغار والهوان في الدنيا، وله في الآخرة بعد جعله في الدرك الأسفل من النار عذاب لا يعلمه إلا الله عز وجل[460].

وقد وصف الله تعالى المنافقين بأنهم يحبون إشاعة الفواحش في المؤمنين فقال: ﴿إنَّ الَّذينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشيعَ الفَاحِشةُ في الَذينَ آمنُوا لَهم عَذابٌ أَليمٌ في الدُّنْيا والآخِرةِ واللَّهُ يَعلَم وأَنْتُم لا تَعْلَمونَ﴾[461]. وقوله: ﴿إن الذين يحبون﴾ يفيد العموم حيث يتناول كل من اتصف بهذه الصفة، ولا شك أنها نزلت في قذف السيدة عائشة رضي الله عنها، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالوجب إجراء الآية على ظاهرها في العموم، والدليل على أنه لا يجوز تخصيصها بمن قذف السيدة عائشة رضي الله عنها قوله تعالى: ﴿في الذين آمنوا﴾ فهي صيغة جمع[462].

---

[456] النور، 24/ 11.

[457] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج:18، ص:178.

[458] النساء، 145/4.

[459] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 3. ص: 217.

[460] الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: 1270هـ)، ***روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، والسبع المثاني***، ج:9، ص: 312.

[461] النور، 24/ 19.

[462] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج:23، ص: 345.

فمن خلال الآيات وتفسيرها يُعلم أنَّ المنافقين كانوا ينتهزون الفرص لإيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإيذاء الصحابة رضي الله عنهم، وبث الفتن التي من شأنها تفريق المؤمنين وزعزعة صفهم، وهذا العدو لا يخلو منه زمان، ففي كل زمان يوجد منافقون يحاولون إعادة تاريخ أسلافهم، من إشاعة الفتن وحب نشر الفاحشة في المؤمنين، فما على المؤمنين إلا أن يكونوا كما كان النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة من كمال إيمانهم وصبرهم وثباتهم.

الحكمة من ابتلاء المؤمنين بسماع الأذى من الكافرين: لازال الكافرون يضمرون الكيد والعداء للمؤمنين، وتنوعت أساليب العداء منهم منذ القديم، فمرة يظهرون العداء في محاربتهم، ومرة يظهرون العداء بكلامهم وإشاعاتهم، ومرة يظهرون عداءهم وكديهم بتوجيه عبارات السوء وكلمات الأذى، وما ذاك إلا امتحاناً لصبر المؤمنين على هذا النوع من الابتلاءات، لينالوا الأجر العظيم من الله تعالى على صبرهم، وليتمكن الإيمان في قلوبهم، ويزدادوا صبراً وجلادةً مهما واجههم من عداء، سواء كان ذلك عداء بالقول، أم بالفعل.

والقدوة العظمى في تحمل أذى الأعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد سمع الكثير من الأذى كاتهام المشركين له بالسحر، والجنون والكذب-حاشاه صلى الله عليه وآله وسلم –وسمع السخرية والاستهزاء وغير ذلك، وما ذاك إلا لأنَّ طريقَ الأنبياء والرسُلِ عليهم الصلاة والسلام شاقَّة، وقد سمعوا هم أيضاً الأذى من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الله تعالى مخاطباً النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَذَكِّر فَما أَنتَ بِنِعْمتِ ربِّكَ بِكاهِنٍ ولا مَجنونٍ (29) أَم يَقولونَ شاعِرٌ نَتَربَّصُ بِهِ رَيبَ المَنونِ (30) قُل تَربَّصُوا فإنِّي مَعَكم مِن المُتَرَبِّصينَ (31)﴾[463]. والمعنى: اثبت يا محمد-صلى الله عليه وآله وسلم-على وعظ الناس وتذكيرهم، ودعوتهم إلى طريق الحق والهداية، ولا تلتفت إلى ما يقوله أعداؤك، كقولهم: كاهن ومجنون، وساحر، فأقاويلهم باطلة متناقضة، فالكاهن يحتاج إلى المراوغة والخداع، والمجنون لاعقل له. وأما أنت يا محمد فإن الله أنعم عليك بنور النبوة، ورجاحة العقل[464].

وقد أوذي الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كثيراً، ومن ذلك ما أوذي به موسى عليه الصلاة والسلام حيث أشاعوا بأن في جسده عيباً – برص أو غيره – فصبر على ذلك الأذى، وبرأه الله تعالى، فقال: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَكونُوا كالَّذينَ آذَوْا موسَى فَبرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالوا وَكانَ عِنْدَ اللَّهِ

---

[463] الطور، 52/ 29-31.

[464] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 4، ص: 412.

وجيهًا﴾[465]. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:" إنَّ موسى كان رجلا حَيِيًّاً سِتِّيْراً، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر، إلا من عيب بجلده: إما برص وإما أدرة[466]: وإما آفة، وإن الله تعالى أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه، ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَكونُوا كالذِينَ آذَوْا مُوسى فبَرَّأهُ الله ممَّا قَالُوا وكَان عنْد الله وجيها﴾[467].

وقال الله تعالى: ﴿لَتُبلَونَّ في أَمْوالِكمْ وَأَنفُسِكمْ وَلَتَسمَعُنَّ مِنَ الذِينَ أُوتوا الكِتَابَ مِن قَبلِكم وَمِنَ الَذينَ أَشْركُوا أَذًى كَثيرًا وَإِن تَصْبِروا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلكَ مِن عَزْمِ الْأُمور﴾[468]. عن كعب بن مالك رضي الله عنه، أنَّ كعب بن الأشرف الشاعر اليهودي، كان يهجو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويحرّض عليه كفار قريش في شعره، وكان أهل المدينة أخلاط، ففيها المسلمون والمشركون واليهود، فأراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يستصلحهم كلهم، وكان اليهود والمشركون يؤذونه صلى الله عليه وآله وسلم، ويؤذون أصحابه رضي الله عنهم، أشد الأذى، فأمر الله عز وجل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر على ذلك، وأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ولتسمعُنَّ منَ الذينَ أوتُوْا الكتاب... الآية﴾.

وقد ذهب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرة، ليعود سعد بن عبادة رضي الله عنه في مرضه، حتى مرَّ بمجلس فيه عبد الله بن أبيّ-قبل إظهار إسلامه-وكان في المجلس جماعة من المسلمين والمشركين، واليهود، وكان من بين المسلمين عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، فلما غشيت مجلسَهم عجاجةُ دابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، غطى ابن أبيّ أنفه بثوبه، وقال: لا تغبروا علينا، فسلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونزل عن دابته ودعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن. فقال عبد الله بن

---

[465] الأحزاب، 33/ 69.

[466] أدَرَة: انتفاخ في الخصية.

[467] البخاري، ***الجامع المسند الصحيح المختصر***، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى، رقم الحديث: 3404.

[468] آل عمران، 3/ 186.

أبيّ: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجالسنا؟ ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك، فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود فيما بينهم حتى كادوا يقتتلون، فلم يزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخفضهم حتى هدأوا، ثم سار حتى دخل على سعد بن عبادة رضي الله عنه، فقال له: يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب؟ -عبد الله بن أبيّ-قال: كذا وكذا، فقال سعد بن عبادة رضي الله عنه: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فو الذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاءك الله بالحق، وقد اصطلح أهل هذه البحيرة على تتويجه، فطمس الله ذلك بما آتاك من النبوة، فعفا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنه، فأنزل الله تعالى: ﴿ولتسْمعُنَّ منَ الذينَ أوْتُوْا الْكِتَابَ مِنْ قبْلِكُم ومِنَ الذيْنَ أشْرَكُوا أذىً كَثِيْرا...﴾ الآية[469].

فالأعداء يبتغون بافتراءاتهم وإيذاءاتهم القولية زعزعة المسلمين، وتفريق صفوفهم، وتشكيكهم بدينهم، والله تعالى أمرهم بالصبر، وهذا امتحان من الله تعالى ليظهر المؤمن الصادق الثابت من المنافق المتذبذب. فالمؤمن الصادق لا يزيده إيذاء الأعداء وأقاويلهم الكاذبة والساخرة إلا صلابة في دينه، والمنافق والضعيف يتزعزع ويتراجع، ويزداد شكوكاً.

وقيل: نزلت هذه الآية في أبي بكر رضي الله عنه وسيد بني قينقاع، وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث أبا بكر إلى سيد بني قينقاع-فنحاص-ليستمده، وكتب إليه كتاباً، وأصى أبا بكر فقال له: لا تفتاتنَّ علي بشيءٍ حتى ترجع. فجاء أبو بكر رضي الله عنه متوشحاً بالسيف، فأعطاه الكتاب، فلما قرأه قال: قد احتاج ربك إلى أن نُمده، فهَمَّ أبو بكر رضي الله عنه أن يضربه بسيفه، لولا وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَتُبلَونَّ في أَموالِكمْ وَأَنفُسِكمْ وَلَتَسمَعُنَّ مِنَ الذِينَ أُوتوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكم وَمِنَ الَذينَ أَشركُوا أَذًى كَثيرًا ...الآية﴾[470].

فمنْ خلال الآية وسبب نزولها نستنتج أن الحكمة من ابتلاء المؤمنين بسماع الأذى من الكافرين والمنافقين أن يتدرب المؤمن على سماع الأذى من الأعداء، فيزداد جَلَداً وصبراً أمام تيارات الألفاظ المؤذية، كالذي نسمعه اليوم من أعداء الإسلام، من سخرية وهزء بالإسلام والنبي صلى الله عليه وآله وسلم ونشر الرسومات الساخرة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الساخرة من الإسلام.

---

[469] الواحدي، ***أسباب نزول القرآن***، ص: 135-136.

[470] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج: 1، ص: 550.

ونستنتج أيضاً من وصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر رضي الله عنه عندما قال له: لا تفتاتنَّ علي بشيء حتى ترجع. أن الدرس الأعظم الذي رجع به أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو تحمل سماع الأذى، هذا شيء، والشيء الآخر هو التأني والتروي وعدم العجلة، كي لا يندم الإنسان على ما يبدر منه قول أو فعل، عند ذهاب فورة الغضب، ولهذا ذُيِّلَتْ الآية بتوجيه المؤمن إلى الصبر، وكان الصبر في مواجهة الأذى من عزائم الأمور.

الحكمة من الابتلاء بالسجن: لقد بين القرآن الكريم أن الابتلاء بالسجن هو أحد الابتلاءات التي يتعرض لها الإنسان في حياته، ومن الذين كِيْدَ لهم بذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك حين تشاور المشركون عما يكيدون به للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما جهر بالدعوة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذ يَمكُرُ بكَ الَّذينَ كَفَروا لِيُثبِتوكَ أَو يَقتُلُوكَ أَو يُخْرِجُوكَ ويَمكُرُونَ وَيَمكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خَيرُ المَاكِرينَ﴾[471]. ومعنى ليثبتوك: أي ليمنعوك من التصرف بالحبس في بيت يسدون عليك بابه[472]. وقال السدي: ليثبتوك: الإثبات، هو الحبس والوثاق، وقال عطاء ليثبتوك: يسجنوك[473].

ومن الذين ابتلوا بالسجن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام، وقد تحدثت سورة يوسف عن هذا الابتلاء. وفي الابتلاء بالسجن، حكمٌ كثيرة، أشار القرآن الكريم إلى بعضها، كامتحان صبر العبد وإيمانه، وامتحان رضاه بالقضاء والقدر، إلى غير ذلك من الحكم التي من أجلها يبتلي الله تعالى عباده. ومن تلك الحكم أيضاً:

الحكمة الأولى: حفظ السجين من الفتن الواقعة خارج السجن: إن الابتلاء بالسجن وما يعتري الإنسان فيه من ضيق وكرب، أفضل من التعرض للوقوع في معصية الله تعالى خارجه، وذلك لأن مصيبة الدين أشد المصائب. ويظهر ذلك جلياً في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام عندما فضَّل دخول السجن-وهو مظلوم-على التعرض للفتن خارجه، قال الله تعالى على لسان يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿قالَ ربِّ السِّجنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ممَّا يَدعونَني إِلَيهِ وإِلَّا تَصرِفْ عَنِّي كيْدهُنَّ أَصْبُ إِلَيهِنَّ وأَكُنْ مِّنَ الجَاهِلِينَ (33) فاسْتَجابَ لهُ ربُّهُ فَصَرفَ عَنهُ كَيدَهُنَّ إِنَّهُ هُو السَّميعُ العَليمُ(34)﴾[474]. أي إن يوسف عليه الصلاة

---

[471] الأنفال، 8/ 30.

[472] البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط (المتوفى: 885هـ)، ***نظم الدرر في تناسب الآيات والسور***، ج: 8، ص: 267.

[473] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج: 13، ص:492.

[474] يوسف، 12/ 33-34.

والسلام فضَّل دخول السجن وتحمُّل آلامه وشدائده، وما يحصل للنفس ضيقٍ وكرب على ما دعوْن إليه أولئك النِّسوة. فلمَّا أيقن دخول السِّجن، صار السجن محبوباً إليه، لأنَّه يخلِّصه من ارتكاب الحرام، وعبر عما عرضته المرأة بما الموصولية لما في الصلة من الإيماء إلى أن المطلوب مظنة الطواعية، فأظهر أن تمالؤ النسوة لم يفُل من عزمه على الامتناع، ثم سأل الله تعالى بعد ذلك العصمة ممَّا دعونه إليه، بعد إظهار رضاه بما توعدته به من السجن، وأسند الفعل "يدعونني" إلى مجموع النِّساء، لأنَّه من رغبات النِّساء، أو لأنَّ النِّساء اللواتي جمعتْهُنَّ امرأة العزيز أقبَلْنَ على لومه وتحريضه على إجابة دعوة امرأة العزيز، وتحذيره من وعيدها بالسجن[475].

الحكمة الثانية: اختبار أخلاق الرجال، ومعاملتهم، داخل السجن: إنَّ المؤمن قدْ يبتلى بالسِّجن امتحاناً لأخلاقه ومعاملته، وفي سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام قدوة- بأخلاقه ومعاملته الحسنة- للسجناء من بعده، فقد وصفه الفتيان الذَين سُجِنَا معه بالإحسان، قال تعالى: ﴿وَدخَلَ مَعهُ السِّجنَ فَتيَانِ قالَ أَحَدُهمَا إنّي أَرانِي أَعصِرُ خَمرًا وقَالَ الآخَرُ إنّي أَرانِي أَحمِلُ فَوقَ رأْسِي خُبزًا تَأْكلُ الطَّيْرُ مِنهُ نَبِّئنَا بتَأْوِيلِهِ إنَا نَراكَ مِنَ المُحْسِنينَ﴾[476]. قال البغوي رحمه الله تعالى: وروي أن الضحاك بن مزاحم رحمه الله تعالى سئل عن قوله تعالى: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ ما كان إحسانه؟ فقال: يعود المرضى في السجن، ويتعهدهم بالرعاية والخدمة، ويوسع لغيره عن ضيق المجلس، وإذا احتاج أحد شيئاً جمع له، وكان مع هذا كله يجتهد في العبادة، ويقوم الليل كله للصلاة[477]. وقيل: إنه لما دخل السجن، وجد فيه قوماً قد طال حزنهم، وانقطع رجاؤهم، واشتد بلاؤهم، فجعل يسليهم، ويقول: أبشروا، واصبروا، تؤجروا، فيقولون له: بارك الله تعالى فيك يا فتى، ما أجمل وجهك وما أحسن حديثك وخلقك، لقد بارك الله لنا في جوارك، فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف بن يعقوب. فقال له عامل السجن: والله يا فتى لو استطعت لخليت سبيلك، ولكن سأحسن جوارك، فاسكن حيث شئت من بيوت السجن[478].

الحكمة الثالثة: الصدع بالدعوة إلى الله: إنَّ مهمَّة الدعوة إلى الله تعالى لا يحدها زمان ولإمكان، وهذا منْهج الرُّسل عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، فالداعي لا تثنيه شدة، ولا تصده الابتلاءات عن

---

[475] ابن عاشور التونسي، ***التحرير والتنوير***، ج: 12، ص: 266.

[476] يوسف، 12/ 36.

[477] ولعلَّ هذه حكمة أخرى من حكم الابتلاء بالسجن؛ وهي أنْ يتفرغ العبد للعبادة والتضرع إلى الله تعالى، وصفاء القلب.

[478] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج:2، ص: 492.

إتمام مسيرته وأداء رسالته القدسية، وهو المنهج ذاته الذي سلكه سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام في السجن. قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعهُ السِّجنَ فَتيَانِ قَالَ أَحَدُهمَا إنِّي أَرانِي أَعصِرُ خَمرًا وَقالَ الآخَرُ إنِّي أَرانِي أَحمِلُ فَوقَ رَأسي خُبزًا تَأكُلُ الطَّيرُ مِنهُ نبِّئنَا بِتأوِيلِهِ إنَّا نَراكَ مِنَ المُحسِنينَ (36) قالَ لا يَأتِيكُمَا طَعامٌ تُرزَقانِهِ إلَّا نَبَّأتُكُما بِتَأوِيلِهِ قبلَ أَن يَّأتِيكُما ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَني رَبِّي إنِّي تَركتُ مِلَّةَ قَومٍ لا يُؤمِنونَ بِاللَّهِ وهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إبرَاهِيمَ وَإسْحاقَ وَيَعْقوبَ ما كانَ لَنا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلى النَّاسِ ولَكنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لا يَشْكرونَ (38) يا صاحِبَيِ السِّجنِ أَأَربابٌ مُتَفَرِّقونَ خَيرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ (39) ما تَعْبُدونَ مِنْ دونِهِ إلَّا أَسْماءً سَمَّيتُموهَا أَنْتُم وَآباؤُكُم ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِن سُلْطانٍ إنِ الحُكْمُ إلَّا لِلَّهِ أَمَرَ ألَّا تَعْبدُوا إلَّا إيَّاهُ ذلِكَ الدِينُ القَيِّمُ ولَكِنَّ أَكْثرَ النَّاسِ لا يَعْلَمونَ (40) يا صَاحِبَيِ السِّجنِ أمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسقِي ربَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41)﴾[479]. قال البيضاوي رحمه الله: أراد يوسف عليه الصلاة والسلام أن يدعو صاحبيه في السجن إلى توحيد الله تعالى، ويرشدهما إلى الطريق الحق قبل أن يجيبهما على ما سألاه، وهذا منهج الأنبياء والعلماء والصالحين في الدعوة إلى الله تعالى والهداية والإرشاد، فبدأ بالإخبار بالغيب ليرشدهما إلى صدق نبوته ورسالته ودعوته، ثم بعد ذلك أول لهما الرؤيا[480].

فانتهز يوسف عليه الصلاة والسلام فرصة ثقة هذين الرجلين به، وثقتهم بعلمه وإخلاصه، فراح يدعوهما ويدعو من معهما إلى توحيد الله الخالص، وترك عبادة الأوثان، فكان في دخوله السجن حكمة عظيمة[481].

الحكمة من الابتلاء بالحزن والهم والغم وضيق الصدر: تقدم الحديث عن بعض حكم الابتلاء بالضراء والمصائب والنقم، في بداية المطلب، ومن أهمها اختبار إيمان العبد وصبره، ومحبة الله تعالى للعبد المبتلى، وإرادة الخير له، إلى ما هنالك من الحكم التي تقدم ذكرها.

ومن الحكم أيضاً: أن الهموم والأحزان توجّه العبد إلى الله تعالى، وهذا النوع من الابتلاء لا يعلمه، إلا الله تعالى لأن مكانه القلوب والصدور، ولا يعلم السر إلا الله تعالى وحده، لذا أشارت الآيات القرآنية الكريمة إلى أن الحكمة من هذا الابتلاء هي أن يتوجه العبد إلى الله تعالى وحده، ويشكو إليه ما يجده من ضيق وكرب وهم وحزن، فمفرج الكروب هو الله سبحانه وتعالى وحده.

---

[479] يوسف، 12/ 36 -41.

[480] البيضاوي، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ج:3، ص:163.

[481] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج: 12، ص: 263.

قال الله تعالى: ﴿قَد سمِعَ اللَّهُ قَولَ الَّتِي تُجادِلُكَ في زَوجِها وَتَشتَكي إِلى اللَّهِ واللَّهُ يَسْمعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَميعٌ بَصيرٌ﴾[482].عن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهؤلاء الآيات ﴿قدْ سمِعَ اللهُ قولَ التي تُجَادِلُكَ فيْ زَوْجِهَا﴾ وهو أوس بن الصامت رضي الله عنه[483].

فالشكوى إلى الله تعالى والالتجاء إليه أنجح طريق عند حصول الهمِّ والحزن والضيق، فقد أجابَ الله تعالى شكوى خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها، وقَبِلَ دعاءها واستغاثتها، وتحقق ما توقعته من ربها عز وجل، لما يوجد في قلبها من عظيم الثقة بالله، والشعور بفضله وإحسانه. والمقصود من سماع الله تعالى لقولها إجابته وقبوله[484].

فهذه الصحابية الجليلة رضي الله عنها، لمَّا اغتمَّت لما نزل بها اشتكت إلى الله تعالى وتوجهت إليه، ليفرّج عنها ما نزل بها من ضيق وكرب، فاستجاب الله تعالى دعاءها وسمع شكواها وفرج كربها.

وقال الله تعالى أيضاً: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغاضِبًا فَظنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيهِ فَنادَى في الظُّلُماتِ أَن لَّا إِلهَ إِلَّا أَنتَ سُبحَانكَ إِنّي كُنتُ مِن الظَّالِمينَ (87) فاستَجَبنا لَه ونَجَّيناهُ مِن الْغَمِّ وكَذَلِكَ نُنجِي المُؤْمِنينَ (88)﴾[485]. تحدثت الآيتان الكريمتان عن سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام، والنون هو الحوت الذي التقمه لذا نُسِبَ إليه، فذهب مغاضبا إلى قومه، الذين كفروا بدعوته، فتركهم وخرج بعد أن ضجر منهم، فوصف الله تعالى حاله فقال: فظن أن لن نضيق عليه، فلما خرج وركب السفينة، رموه في البحر فالتقمه الحوت فنادى ربه سبحانه ودعاه في ثلاث ظلمات، ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وكان نداؤه أن قال: لا إلهَ إلا أَنْتَ سبْحانك إني كُنت مِن الظالمين، فاعترف بأنه لم يصبر على قومه، بل خرج عنهم وتركهم، ﴿ونجيناه مِن الغَمّ﴾ أي: من ظلمة بطن الحوت وإخراجه إلى البرّ ﴿وكَذلِكَ نُنجِي الْمؤْمِنينَ﴾ يحتمل أن تكون النجاة لكل المؤمنين، أو لمن دعا بدعاء النبي يونس عليه الصلاة والسلام، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:" دعوة أخي يونس ذي النون، ما دعا

---

[482] المجادلة، 58/ 1.

[483] السيوطي، ***الدر المنثور***، ج:8، ص: 70.

[484] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج:28، ص: 20.

[485] الأنبياء، 21/ 87.

بها مكروب إلا استجيب له" [486]. فسيدنا يونس عليه الصلاة والسلام التجأ إلى الله تعالى عندما اغتم في بطن الحوت، فاستجاب الله تعالى له نداءه ودعاءه وتسبيحه، ونجاه من كربه.

وقال الله تعالى على لسان يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿قالَ إِنَّما أَشكُو بَثي وَحُزنِي إِلَى اللَّهِ وأَعْلَمُ منَ اللَّهِ ما لا تَعلَمونَ﴾[487]. قال طلحة بن مصرِّف: ثلاثة لا تذْكُرْهنّ واجتنب ذكرهُنّ: لا تشكُ مَرَضَك، ولا تَشكُ مصيبتك، ولا تزكِّ نفسك. وقال: أُخْبِرتُ أنّ يعقوب بن إسحاق صلى الله عليهما وسلم دخل عليه جار له، فقال له: يا يعقوب ما لي أراك قد انهشمت-ضَعُفْتَ-وفنيتَ، ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟ قال: هَشَمني-أضعفني-وأفناني ما ابتلاني الله عز وجل به، من همّ يوسف-عليه الصلاة والسلام-وذكره، فأوحى الله تعالى إليه: يا يعقوب-صلى الله عليه وآله وسلم-أتشكوني إلى خلقي؟ فقال يعقوب عليه الصلاة والسلام: يا رب خطيئة أخطأتُها، فاغفرها لي، فقال الله تعالى: قد غفرتها لك. فكان يعقوب عليه الصلاة والسلام إذا سئل عن ذلك يقول: ﴿إِنَّما أَشْكُو بثِّي وحُزْني إلى اللهِ وأعْلَم مِنَ اللهِ ما لا تعْلَمون﴾[488].

لذا كان من السنة النبوية الشريفة أن يتوجه العبد إلى الله تعالى، بالتضرع والاعتراف له بالعبودية، ليكشف عنه ما يصيبه، من همٍّ وغمٍّ، وكرْبٍ وشدة. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:" ما أصاب أحداً همٌّ ولا حزنٌ قط فقال: اللهمَّ إنّي عبدك، وابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمْتَه أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله عز وجل همه، وأبْدَلَهُ مكان حزنه فرحاً. قالوا: يا رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلم-ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟ قال: أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتَعَلَّمَهُنَّ"[489].

---

[486] ابن جزي الكلبي، ***التسهيل لعلوم التنزيل***، ج: 2، ص: 28.

[487] يوسف، 12/ 86.

[488] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج: 16، ص:228.

[489] الهيثمي، ***مجمع الزوائد ومنبع الفوائد***، ج:10، ص: 136.

المبحث الثالث: الحكمة من الابتلاء بالتكاليف الشرعية

إن الله تعالى يبتلي عباده بالتكاليف-الأوامر والنواهي-والله تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ولا معقب لحكمه، وما هذا الابتلاء إلا ليتحقق العبد بروح العبودية لله تعالى، والالتزام بما شرعه.

والأوامر التي ابتلى الله تعالى بها عباده كثيرة وسنذكر منها-على سبيل المثال لا على سبيل الحصر- ما بين القرآن الكريم الحكمة من الابتلاء به، كابتلاء الناس بالشرائع السماوية، وابتلاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالكلمات، والابتلاء بالقبلة، والابتلاء بالجهاد، وابتلاء الناس بالنفس والشيطان والهوى.

وأما النواهي فهي كثيرة أيضاً، ومن ذلك ما ابتلى الله تعالى به جنود طالوت من ترك الشرب من النهر، وما ابتلى به المحرمين من الصيد. وفيما يلي توضيح بشكل موجز للحكمة من هذه الابتلاءات.

المطلب الأول: الحكمة من الابتلاء بالشرائع السماوية

إن الله تعالى أنزل شرائعه على عباده وكلفهم بالالتزام بها اختباراً وامتحاناً، ليظهر المؤمن من الكافر، والمطيع من العاصي، والمصدق به من المكذب، والمنقاد إلى أحكامه من المعرض عنها، وآخر هذه الشرائع شريعة الإسلام التي هي خاتمة الشرائع السماوية.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنا إِلَيكَ الكِتابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْن يَدَيْهِ منَ الْكِتابِ ومُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحكُمْ بَيْنهُم بِما أَنزَلَ اللَّهُ ولَا تَتَّبِع أَهواءَهم عمَّا جاءَكَ منَ الحَقِّ لِكلٍّ جعَلْنا مِنكُم شِرْعةً ومِنْهاجاً وَلَو شاءَ اللَّهُ لَجعَلَكُم أُمةً واحِدةً ولَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فيما آتاكُم فاسْتبِقوا الخَيراتِ إِلَى اللَّهِ مَرجِعُكم جَميعاً فَينَبِّئُكم بِما كُنتُم فِيه تَختَلِفون﴾[490]. فالشرائع المذكورة في الآية مختلفة: فللتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن الكريم شريعة، وفي هذه الشرائع يحلُّ الله تعالى ما يشاء، ويحرّم ما يشاء، بلاءً واختباراً، ليعلم من يطيعه من العباد ممن يعصيه. وأما الدِّين الذي لا يَقْبل الله تعالى غيره فواحد: وهو التَّوحِيدُ والإخلاصُ لله عز وجل، وهو ما جاءت به الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام[491]. ولو شاء الله تعالى لجَعَلَ لجميع الأمم شريعةً سمَاويَّة واحِدة لا تختلف بين أمَّة وأخرى، فكان اختلاف الشرائع بين الأمم ابتلاء وامتحاناً،

---

[490] المائدة، 48/5.

[491] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:10، ص: 385.

فيعرف حينذاك المطيع من العاصي، والعاملَ بما أمره الله تعالى في الكتاب الذي أنزله على نبيِّه صلى الله عليه وآله وسلم من غير العامل[492].

وقال الله تعالى أيضاً:﴿ إِنَّا خَلَقنَا الإنسانَ مِن نُّطْفةٍ أمْشاجٍ نَّبْتَلِيْهِ فَجعلْناهُ سَميعًا بَصيرًا﴾[493]. أي إننا خلقنا الإنسان للابتلاء والامتحان، ومريدين ابتلاءه بتكليفه بالأمر والنهي، ﴿فجعلناهُ سَميعاً بصيراً﴾ أي: ذا سمع وبصر[494].

المطلب الثاني: الحكمة من ابتلاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالكلمات

قال الله تعالى: ﴿وإِذِ ابتَلَى إبرَاهيمَ ربُّهُ بِكلِماتٍ فأَتمَّهنَّ قالَ إنِّي جاعِلكَ للنَّاسِ إماماً قالَ ومِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنالُ عَهْدي الظَّالِمين﴾[495]. والمراد من الكلمات التي ابتلى الله تعالى بها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، هي مناسك الحج، وقيل هي خصال الفطرة العشرة، وهي: المضمضة، والاستنشاق، والسواك، وإعفاء اللحية، وقص الشارب، ونتف الإبطين وقص الأظافر، وحلق العانة، والاستنجاء والختان. وقيل ثلاثون خصلة: عشرة ذكرت في سورة براءة من قوله تعالى: ﴿التائبون العابدون﴾ وعشرة في سورة الأحزاب من قوله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾، وعشرة في سورة المعارج من قوله تعالى: ﴿إلّا المصلين﴾[496].

والحكمة من هذا الابتلاء: أن الله تعالى إنما ابتلي إبراهيم عليه الصَّلاة والسلام بالأوامر والنواهي ليجازيه على طاعته لربه، وموافقته لأوامره، وانتهائه عن نواهيه تبارك وتعالى، والابتلاء من الله تعالى مجاز عن تمكينه العبد عن اختيار أحد الأمرين: ما يريده الله، وما يشتهيه العبد، أما إبراهيم عليه الصلاة والسلام فامتثل لتلك الأوامر وأتم الالتزام بها[497].

---

[492] الطبري، ***المصدر نفسه***، ج: 10، ص: 389.

[493] الإنسان، 76/ 2.

[494] النسفي، ***مدارك التنزيل وحقائق التأويل***، ج: 3، ص:576.

[495] البقرة، 2/ 124.

[496] ابن جزي الكلبي، ***التسهيل لعلوم التنزيل***، ج:1، ص: 97.

[497] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج: 1، ص: 183.

والله تعالى يعلم أحوال عباده قبل الاختبار وبعده، وما هذا الاختبار إلا لإظهار ما قد علمه سبحانه وتعالى[498]. وقد بين الله تعالى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وفَّى بهذه الأوامر كما أراد الله تعالى، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه-فأتمه-إلا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ابتلاه الله بكلمات، فأتمهن. قال: فكتب الله تعالى له البراءة فقال: ﴿وإِبْراهِيمَ الَّذي وفَّى﴾. [النجم 53/ 37][499].

المطلب الثالث: الحكمة من الابتلاء بتحويل القبلة

قال الله تعالى: ﴿وكَذَلِكَ جَعلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شُهَداءَ عَلى النَّاسِ ويَكونَ الرَّسولُ عَلَيكُم شَهيدًا وَما جعَلْنا القِبْلةَ الَّتي كُنتَ عَلَيهَا إِلَّا لِنَعلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسولَ مِمَّن يَّنْقَلِبُ على عَقبَيْه وإِن كانَت لَكَبيرَةً إِلَّا على الَّذينَ هدَى اللَّهُ ومَا كانَ اللَّهُ لِيُضِيْعَ إيمانَكُم إِنَّ اللَّهَ بالنَّاسِ لرَءوفٌ رَحِيم﴾[500]. قال الطبري رحمه الله مشيراً إلى الحكمة من الابتلاء بتحويل القبلة: إنما كان تحويل القبلة تمحيص واختبار للناس في دينهم، فعند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، ارتدَّ رجالٌ من المسلمين الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأظهرَ الكثير من المنافقين خبث نفاقَهم، فقالوا: ما بَالُ محمد-صلى الله عليه وآله وسلم-يحوّلنا مرة إلى هاهنا ومرة إلى هاهنا. وأما المسلمون فقالوا: بطلت أعمالُ من مضى من إخواننا المسلمين لأنهم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، وضاعت أعمالنا التي كنا نعملها ونحن نتوجه إلى بيت المقدس. وقال المشركون: لقد تحيَّر محمد-صلى الله عليه وآله وسلم-في دينه. فكان التحول فتنةً وابتلاءً للناس، وتمحيصًا للمؤمنين. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ومَا جَعلنا القِبلةَ التي كنت عليها إلا لنعلمَ من يتَّبع الرسول ممن ينقلب على عَقبيه﴾ أي: ومَا جعلنا صَرْفك وتحويلك عن القبلة التي كنت عليها-بيت المقدس-وتحويلك إلى الكعبة، إلا لإظهار من يتبع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ممن يعصيه، وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَما جَعلْنا الرُّؤيا الَّتي أَريْناكَ إِلا فِتنَةً لِلناسِ﴾[501]. والمعنى: وما جعلنا إخبارك الناس عما أريناك في ليلة الإسراء، إلا فتنة للناس. وذلك أنه لو لم يخبر القوم بما أُرِي، لم يكن فيما أُرِيَ فتنةٌ على أحد، فالابتلاء في القبلة تحويل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصرفه عن قبلة بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة. وعن قتادة رضي الله عنه قَال: كان في القبلةُ تمحيصٌ وبلاءٌ.

---

[498] النسفي، ***مدارك التنزيل وحقائق التأويل***، ج:1، ص: 127.

[499] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج: 2، ص: 8.

[500] البقرة، 2/ 143.

[501] الإسراء، 17/ 60.

صلَّى الأنصار رضي الله تعالى عنهم-قَبل مجيء النبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة-نحو بيت المقدس حوْلين، وصلى النبي الله صلى الله عليه وآله وسلم بعدَ هجرته إلى المدينةَ نحو بيت المقدس سبعةَ عشر شهرًا، ثم وجهه الله تعالى بعد ذلك إلى الكعبة-البيتِ الحرام-فقال بعض الناس: ﴿مَا وَلاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ لقد اشتاق محمد-صلى الله عليه وآله وسلم-إلى مولده-مكة-فقال الله عز وجل: ﴿قُلْ لله المشرقُ والمغربُ يَهدي مَنْ يَشاءُ إلى صراط مُستقيم﴾. وقال بعض المسلمين -لما صُرفت القبلة نحو البيت الحرام-: كيف بأعمالنا التي كنا نعملها في قبلتنا الأولى؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ومَا كانَ الله ليُضيعَ إيمانكم﴾. فالله تعالى يَبتلي عبادَه بما شَاءَ من أمره، ليعلم سبحانه مَنْ يطيعه ممن يَعصيه، وكل ذلك مقبول، عند من يؤمن بالله، ويخلصٌ له، ويستسلم لحكمه وقضائه[502].

المطلب الرابع: الحكمة من ابتلاء المحْرِمين بصيد البَر

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا لَيَبلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشيْءٍ مِنَ الصَّيدِ تَنالُهُ أَيدِيكُم وَرمَاحُكمْ لِيَعلَمَ اللَّهُ مَن يَّخَافُهُ بالغَيبِ فَمنِ اعْتدَى بَعد ذَلِك فَلهُ عَذابٌ أَليمٌ﴾[503]. نزلت هذه الآية الكريمة عام الحديبية، فقد ابتلى الله تعالى الله المؤمنين بالصيد، وكانت وحوش البرّ تغشاهم في رحالهم وهم محرمون، وكان يسهل صيدها بالأيدي والرماح، والتقليل والتحقير في قوله تعالى ﴿بشيء﴾ للتنبيه على أن الابتلاء بالصيد ليس من عظائم الابتلاءات التي تزل الأقدام فيه، كالابتلاء بالأموال والأنفس، فمن ثبت عند ابتلاء الصيد؛ فإنه سيثبت عند الابتلاء بالأموال والأنفس، ومن لم يثبت عند ابتلاء الصيد فإنه سيزل عند ابتلائه بالمال والنفس. ونصت الآية على أن الحكمة من الابتلاء هي ﴿لِيَعلَمَ اللَّهُ مَن يَّخافُهُ بِالغَيبِ﴾ المقصود بالعلم ظهور ما علمه الله تعالى أزلاً، أي ليتميز من يخاف من عقاب الله تعالى ويؤمن بالغيب، ممن لا يخافه لضعفٍ في إيمانه وقلة مراقبته له سبحانه وتعالى ﴿فَمَنِ اعتَدى بَعدَ ذلِكَ﴾ أي: بعد الابتلاء بالصيد. ﴿فَلهُ عذابٌ أَليمٌ﴾ وهذا وعيد شديد من الله تعالى لمن تجاوز حدَّ الله تعالى ولم يملك نفسه عند صيد البر وهو محرم[504].

---

[502] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج: 3، ص: 156-157.

[503] المائدة، 5/ 94.

[504] البيضاوي، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ج: 2، ص:143.

المطلب الخامس: الحكمة من الابتلاء بالجهاد

إن الله تعالى ابتلى العباد بالجهاد ابتلاء تكليف، وفي هذا الابتلاء خير للعبد كما قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيكمُ الْقِتالُ وَهوَ كُرْهٌ لَّكُم وَعَسى أَن تَكْرهوا شَيْئًا وَهو خَيرٌ لَّكُم وَعَسى أَن تُحِبُّوا شَيئًا وهُو شَرٌّ لَكُمْ واللَّهُ يَعلَمُ وأَنْتُم لا تَعلَمونَ﴾[505]. قال البيضاوي رحمه الله: ﴿وَعَسى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وهو جميع ما كلفوا به، فإن الطبع يكرهه وهو مناط صلاحهم وسبب فلأحهم[506].

فالخير الذي يكمن في تكاليف الجهاد كثير، ولا يحيط به إلا الله تعالى، وفيما يلي إشارة إلى أهمِّ الحِكَم التي أشارت إليها الآيات القرآنية الكريمة.

الحكمة الأولى: اختبار صدق إيمان العبد وصبره وثباته. قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبلُوَنَّكُم بِشَيءٍ مِنَ الْخوفِ والْجوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَموَالِ والْأَنفُسِ والثَّمَراتِ وبَشِّرِ الصَّابِرينَ (155) الَّذينَ إِذَا أَصابَتْهم مُصيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيهِ راجِعونَ (156) أُولَئكَ عَلَيْهِم صَلَواتٌ مِن رَّبِّهِم وَرحْمةٌ وأُولَئِكَ همُ الْمُهْتَدُونَ (157)﴾[507]. قال بعض العلماء: المراد من الابتلاءات الواردة في هذه الآية مؤن الجهاد وكلفه، فالابتلاء بالخوف هو الخوف من الأعداء، والابتلاء بالجوع ما يحصل للمجاهدين من جوع في الخروج إليه، ونقص الأموال بنفقات الجهاد ومستلزماته، والابتلاء بنقص الأنفس يكون بالقتل، وأما الثمرات فبإصابة العدو لها، أو بالغفلة عنها بسبب الخروج إلى الجهاد[508].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَنَبلُوَنَّكُم حتَّى نَعلمَ الْمُجاهِدينَ مِنكُم والصَّابرينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ﴾[509]. فالاختبار يكون بتكاليف الأوامر والنواهي، والله تعالى يعامل عباده معاملة المختبر، ومن تلك التكاليف الجهاد في سبيل اللَّه تعالى، والمقصود بالعلم الوارد في الآية علم ظهور وانكشاف، فالله يعلم حقائق الأشياء كلها قبل وجودها، وإنما التكليف يكشف الممتثلين لأمره تعالى بالجهاد، المجاهدين بحق في سبيله، فبالتكليف يظهر من صبر على الدين وتحمَّل مشاقه. وأما ابتلاء الأخبار فيكون بانكشاف أخبار الناس وكشفها امتحانا لهم، ليظهر للناس من أطاع اللَّه وامتثل أمره، ومن عصاه ولم يمتثل[510].

---

[505] البقرة، 2/ 216.

[506] البيضاوي، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ج:1، ص: 136.

[507] البقرة، 2/ من 155 -157.

[508] ابن عطية الأندلسي، ***المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز***، ج: 1، ص: 228.

[509] محمد، 31/47.

[510] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج: 26، ص: 126.

ومن ابتلاءات التكليف بالجهاد الواردة في القرآن الكريم، ابتلاء جنود طالوت بالنهر، فقد كلفهم الله تعالى بالجهاد، وابتلاهم بالنَّهَر، قال الله تعالى:﴿فَلَمَّا فَصلَ طالوتُ بِالجُنودِ قَال إِنَّ اللَّهَ مُبتَلِيكُم بِنهَرٍ فَمَن شَربَ مِنهُ فَلَيسَ مِنِّي ومَن لَّمْ يَطعَمْهُ فإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا منِ اغْتَرفَ غُرفةً بِيَدِهِ فَشربوا مِنهُ إِلَّا قلِيلًا مِّنْهُم فَلَمَّا جاوَزهُ هُو والَّذينَ آمنوا مَعهُ قَالوا لا طَاقةَ لَنا الْيَومَ بِجالُوتَ وجُنودِهِ قالَ الَّذينَ يَظنُّونَ أَنَّهُم مُلاقو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَليلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثيرَةً بِإِذنِ اللَّهِ واللَّهُ معَ الصَّابرِينَ﴾[511]. توضح هذه الآية أن طالوت انفصل بجنوده عن بلده للجهاد في سبيل الله تعالى، وقيل خرج معه ثمانون ألف مقاتل من الشباب النشيطين، وكان الفصل صيفاً، والحر شديداً، فساروا معه، وسألوه أن يجري الله تعالى لهم نهراً[512]. فابتلاهم الله تعالى بنهر عذب في فلسطين، أو بين الأردن وفلسطين[513].

ومعنى الابتلاء بالنهر: الامتحان والاختبار للجنود، فمن أطاع الله تعالى وترك الشرب من الماء؛ عُلم أنه سيطيع فيما عدا ذلك من الأوامر، ومن غلبت عليه شهوته، وعصى الأمر وشرب من الماء، فهو بالعصيان في شدائد الأمور والحرب أحرى، وروي أنهم جاؤوا إلى النهر، وقد أصابهم عطش شديد، وكان النهر في غاية الحسن والعذوبة، فرخص الله تعالى للمطيعين أن يغترفوا غرفة باليد، ليرتفع عنهم شيءٌ من أذى العطش، ويكسروا منازعة النفس[514].

وقد يبتلي الله تعالى المؤمنين بعدم النصر، وفي ذلك أيضاً اختبار لإيمانهم وتربيتهم على الصبر والتقوى. قال الله تعالى: ﴿سَنُلقي في قُلوبِ الَّذينَ كفَروا الرُّعبَ بِما أَشرَكوا بِاللَّهِ ما لَم ينَزِّلْ بهِ سُلطاناً وَمأْوَاهُمُ النارُ وبِئسَ مَثوَى الظَّالِمينَ (151) ولَقَد صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحسُّونهُم بِإِذْنهِ حتَّى إِذَا فَشِلْتُم وتَنازَعْتُم فِي الأَمرِ وَعَصَيتُم مِن بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبونَ مِنكُمْ مَّن يُّرِيدُ الدُّنْيا وَمِنكُمْ مَّنْ يُّرِيدُ الآخِرةَ ثمَّ صَرَفَكم عَنْهُم لِيبتَلِيَكم وَلَقد عَفا عَنكُم واللَّهُ ذو فَضْلٍ عَلى المُؤْمِنينَ (152) إِذ تُصْعِدونَ ولا تَلْوُونَ على أَحدٍ وَالرَّسولُ يَدعُوكُم في أُخرَاكُم فَأَثَابكُم غمًّا بِغَمٍّ لِكَيلَا تَحزَنوا عَلى ما فَاتَكُم وَلا ما أَصابَكُم واللَّهُ خَبيرٌ بِما تَعْملُونَ (153)﴾[515]. تضمنت الآيات السابقة بعض الأحداث المشهورة لغزوة أحد من نصر

---

[511] البقرة، 2/ 249.

[512] البيضاوي، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ج: 1، ص: 151.

[513] البغوي، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ج: 1، ص: 336.

[514] ابن عطية الأندلسي، ***المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز***، ج:1، ص:334.

[515] آل عمران، 3/ 151 إلى 153.

المؤمنين، وهزيمة الكافرين في بادئ الأمر، ثم صرف الله تعالى المؤمنين عن النصر فقُتِل من المسلمين الكثير ووصل الأذى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى إنه كان يدعوهم للكرّ وعدم الفرار. وما كانت أحداث هذه الغزوة إلا لحكمٍ عظيمة أرادها الله تعالى وأشارت إليها الآيات القرآنية الكريمة ومنها: اختبار صبر المؤمنين، وثباتهم على الإيمان عند عدم النصر، وتربيتهم على التقوى، وتحمل المكاره والشدائد. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُم عَنهُم لِيبتَلِيكُم وَلَقَد عَفا عَنْكُم واللَّهُ ذو فَضلٍ عَلى الْمُؤمِنينَ﴾. نصت الآية الكريمة على أن حكمة صرف المؤمنين عن النصر هي الابتلاء والامتحان منه تعالى، قال سبحانه: ﴿ثمَّ صرَفكمْ عنهم ليَبتليكم﴾ أي: ليمتحن صبرَكم على المحن والمصائب، ويختبر ثباتكم على الإيمان عند نزولها، ولقد عفا الله تعالى عنكم لأنه علم ندمكم على ما صدر منكم، من عصيان أمر الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والله تعالى ذو فضل عظيم على المؤمنين، وهو يتفضل عليهم بالعفو والمغفرة، أو هو متفضل عليهم في جميع أحوالهم، سواء انتصروا، أو لم ينتصروا، لأن الابتلاء من الله تعالى رحمة؛ كما أن نصره لعباده رحمة[516].

وقال الله تعالى أيضاً: ﴿إِذْ تُصْعِدونَ ولا تَلْوونَ عَلى أَحدٍ والرَّسولُ يَدعُوكُم في أُخراكُم فَأَثابَكم غمًّا بِغمٍّ لِكَيلا تَحزنُوا علَى ما فاتكُم ولا ما أَصابَكم وَاللَّهُ خبِيرٌ بِما تَعْمَلونَ﴾.[517] قال البيضاوي رحمه الله: لتتدربوا على الصبر في شدائد الأمور، فلا تحزنوا بعد تدربكم على ما فاتكم من نفع، وما نزل بكم من ضر[518]. وقال الزحيلي في بيان حكمة الابتلاء من عدم نصر المؤمنين: وقد ابتلاكم الله تعالى بالقتل والجراح، وما أصابكم من هزيمة، لتتمرنوا على الشدائد، وتحمُّل المكاره، فإن الشدائد تصقل الأفراد والأمم، ولا تحزنوا على ما فاتكم من الغنائم والمنافع، ولا على ما أصابكم من أضرار كالقتل والجراح[519].

وقد يبتلى المسلمون بعدم النصر بسبب ما يقترفونه من المخالفات الشرعية، ليتوبوا إلى الله تعالى**:** وللمسلمين درس عظيم في ذلك، فيما حصل للمسلمين في غزوة أحد وما أصابهم من تقتيل وجروح، وذلك لمخالفة الرماة وصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عندما أوصاهم بعدم ترك الجبل، فنزلوا ظانين انتهاء الحرب. قال الله تعالى: ﴿أَوَلمَّا أَصابَتْكم مُّصِيبةٌ قَد أَصَبْتُم مِثلَيها قُلْتم أَنَّى

---

[516] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج:1، ص: 427.

[517] آل عمران، 3/ 153.

[518] البيضاوي، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، الجز:2، ص: 43.

[519] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج:4، ص: 128.

هذَا قُل هُو مِن عندِ أَنفُسِكم إنَّ اللَّهَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾[520]. والمعنى: أوَ حينما أصابتكم، أيها المؤمنون، مصيبة القتلى والجرحى يوم أحد-عندما قتل منهم في ذلك اليوم سبعون-قد أصبتم مثليها أيها المؤمنون يوم بدر، فقتل من المشركين سبعون، وأسر سبعون، فقلتم يوم أحد من أيِّ وجه ابتلينا بهذه المصيبة وهذا البلاء؟ ونحن مسلمون، وفينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ينزل عليه الوحي من السماء، وهم مشركون وأهل كفر بالله! فقل يا محمد-صلى الله عليه وآله وسلم-للمؤمنين من أصحابك إن ما أصابكم إنما هو من عند أنفسكم، وذلك بمخالفتكم أمري، وترككم وصيتي، وليس من غيركم، ولا من قِبَلِ أحد سواكم[521].

الحكمة الثانية: تمييز المؤمنين من المنافقين. قال الله تعالى: ﴿وَما أَصَابَكُم يَومَ التَقَى الجَمْعانِ فَبإذنِ اللَّهِ وَلِيَعلمَ الْمؤمِنينَ (166) ولِيَعلَمَ الّذِينَ نافَقوا وَقيلَ لهُم تَعالَوا قَاتلُوا في سَبيلِ اللَّهِ أَوِ ادفَعوا قالُوا لَو نَعلَمُ قِتالًا لَاتَّبعناكُم هُم لِلكُفرِ يَومَئذٍ أقْربُ مِنهُم لِلإيمانِ يقولونَ بِأَفواهِهِم ما لَيسَ في قُلوبِهم واللَّهُ أعْلمُ بِما يَكتُمونَ (167) الَّذينَ قالُوا لإخوانِهِم وقَعَدوا لَو أَطاعونَا ما قُتلُوا قُل فَادْرءُوا عَن أَنفُسِكُم المَوْتَ إنْ كُنتُم صادِقينَ (168)﴾[522]. فمن مظاهر الحكمة التي تتجلى لخسارة المؤمنين في غزوة أحد: أن يظهر الله تعالى علمه الأزلي بقوة إيمان المؤمنين، وصبرهم وثباتهم، فيظهر الصابرين الثابتين الذين لم يتزلزلوا، ويظهر المنافقين الذين كذبوا ورجعوا في الطريق، وتركوا جيش المسلمين، وكانوا ثلاثمائة رجل يرأسهم ابن أبي بن سلول، الذين إذا استنفروا للقتال في سبيل الله تعالى، أو الدفاع عن النفس والأهل والوطن، أجابوا: لو نعلم أنكم ستقاتلون في غزوتكم هذه لاتبعناكم وناصرناكم ولسرنا معكم، ولكننا نعلم أنكم لا تلقون قتالاً. وهذا الجواب دلالة على تأصل الكذب والنفاق في قلوبهم، وأن غايتهم الاستهزاء والتدليس وتعمية الحقائق، مع أن تجمع المشركين، وخروج المسلمين لمقاتلتهم في أُحُد لقرينة قاطعة على إرادة القتال. وروي أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبيّ بن سلول وأصحابه، الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فرجعوا من الطريق، وهم ثلاثمائة ليخذلوا المسلمين ويوقعوا فيهم الهزيمة. وبمقالتهم ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا﴾ أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان، لظهور دلائل رجوعهم وعزمهم على إلحاق الهزيمة بالمسلمين، فإنه ليس من المؤمنين من يتقاعس عن الجهاد في سبيل الله تعالى، والدفاع عن الوطن عند هجوم العدو، لقوله تعالى: ﴿إنَّما الْمُؤمِنونَ الَّذينَ آمنُوا باللَّهِ

---

[520] آل عمران، 3/ 165.

[521] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:7، ص:371.

[522] آل عمران، 3/ 166 -168.

ورَسولِه، ثمَّ لَم يَرتابوا، وَجاهدُوا بِأَموالِهم وَأنفُسِهم في سَبيلِ اللَّهِ، أولئكَ هُم الصَّادقونَ[523]﴾ فالجهاد دليل الإيمان[524].

الحكمة الثالثة: إخراج الكافرين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. قال الله تعالى: ﴿وقاتِلُوهُم حتَّى لا تَكونَ فِتنَةٌ ويكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فإنِ انتَهَوْا فَلا عُدوَانَ إلَّا على الظَّالِمينَ﴾[525]. والمعنى: وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم حتى لا يكون شركٌ بالله تعالى، وحتى لا يعبد أحدٌ غير الله تعالى، فتزول بالجهاد عبادة الأصنام، وتخلص الطاعة والعبادة لله تعالى وحده وتنمحي عبادة الأصنام والأوثان[526]. فإن ترك المشركون والكافرون قتالكم، ودَخلوا في الإسلام، وأقرُّوا بشرائعه وفرائضه، وتخلوا عما هم عليه من الشرك وعبادة الأوثان، فاتركوا قتالَهم وجهادَهم والاعتداء عليهم، لأن الاعتداء لا يكون إلا على المشركين بالله، الذين تركوا عبادة الله تعالى وعبدوا غيرَه[527].

وقال الله تعالى أيضاً: ﴿وقَاتِلُوهُم حَتَّى لا تَكُونَ فِتنَةٌ ويَكونَ الدِّينُ كلُّهُ لِلَّهِ فَإنِ انتَهَوا فَإنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بصيرٌ﴾[528]. الفتنة: هي الشرك، أي جاهدوا المشركين في سبيل الله تعالى حتى يزول الشرك. وتضمحل العقائد الباطلة. فإنْ ترك أهل الشرك شركهم وكفرهم، ودخلوا في دين الله تعالى، فإن الله تعالى سيجازيهم على ذلك انتهائهم ودخولهم الإسلام. وفي قراءة ليعقوب «تعملون» بالتاء، والمعنى ﴿فإن الله بِمَا تَعْمَلُونَ بصيرٌ﴾ أي: بصير بما تعملون من الجهاد في سبيله، والدعوة إلى دينه المستقيم، وإخراج الكفرة والمشركين من ظلمات الكفر والشرك، إلى نور الهدى والإيمان، وفي تعليق الجزاء على انتهاء المشركين عن شركهم دلالة على أنه سبحانه وتعالى سيثيب المنتهي عن الشرك، ويثيب المجاهدين المتسببين في انتهاء المشركين عن الشرك أيضاً[529].

الحكمة الرابعة: سلامة المسلمين المستضعفين من عداء المعتدين، وتخليصهم من أسرهم. إن الله تعالى ابتلى عباده بالجهاد وكلفهم به، ومن حكمة هذا الابتلاء رد عدوان الكافرين، والدفاع عن النفس وعن المستضعفين من النساء والولدان والعجزة، وتخليص الأسرى من بين الكافرين. قال الله

---

[523] الحجرات، 15/49.

[524] الزحيلي، ***التفسير المنير***، ج: 4، ص: 155-156.

[525] البقرة، 2/ 193.

[526] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:3، ص:570.

[527] الطبري، ***المصدر نفسه***، ج:3، ص: 572.

[528] الأنفال، 8/ 39.

[529] البيضاوي، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ج: 3، ص: 59.

تعالى: ﴿وَما لَكم لا تُقَاتِلونَ في سَبيلِ اللَّهِ والْمُستَضعَفينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والْوِلْدانِ الَّذينَ يَقولونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِن هَذِه القَريَةِ الظَّالمِ أَهْلُها وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَليًّا واجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصيراً﴾[530]. قال القرطبي رحمه الله: حضَّ الله تعالى على الجهاد في سبيله. ويتضمن الجهاد تخليص المسلمين المستضعفين من أيدي الكفار والمشركين؛ الذين يفتنون المسلمين عن دينهم، ويسومونهم سوء العذاب، والحكمة من وجوب الجهاد لإظهار دين الله تعالى، وإعلاء كلمته، وتخليص المؤمنين الضعفاء من أعدائهم، وإن تطلب ذلك زهوق الأرواح. ويجب على المسلمين بذل كل ما يملكون من وسائل، سواء كان ذلك بالقتال أو بالأموال[531].

المطلب السادس: الحكمة من الابتلاء بالنفس والشيطان

إن الله تعالى كلف الإنسان بامتثال أوامره، وترك نواهيه، ثم ابتلاه بعدوين خطيرين، هما النفس والشيطان، فالنفس تأمره بالمعاصي، والشيطان يوسوس له بالمحرمات، وهذا ابتلاء من الله تعالى لبني آدم، والله تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ﴿لَا يُسأَلُ عَمَّا يَفْعلُ وهُم يُسأَلُون﴾[532]. وفيما يلي ذكر بعض حكم ابتلاء الإنسان بالنفس والشيطان.

الحكمة الأولى: التحقق بكمال العبودية لله تعالى بمخالفة النفس والشيطان. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيطَانَ لكُمْ عدُوٌّ فاتَّخِذوهُ عدُوًّا إِنَّما يَدعو حِزبَهُ لِيكُونوا مِن أَصحابِ السَّعيرِ﴾[533]. وقال الله تعالى أيضاً: ﴿أَلَم أَعْهَد إِلَيكُمْ يا بَني آدمَ أَن لَّا تَعبُدوا الشَّيطانَ إِنَّهُ لَكُم عَدوٌّ مُبينٌ (60) وأَنِ اعْبُدونِي هذَا صِراطٌ مُستَقيمٌ (61)﴾[534]. ومعنى الآية: ألم أعهد إليكم يا بني آدم؛ أن اعبدوني وحدي ولا تعبدوا إلهاً غيري، وأطيعوني وأخلصوا في عبادتي، فإن الإخلاص في عبادتي، وإفرادي بالطاعة، ومعصية الشيطان، هو الدين الصحيح، وهو الطريق المستقيم[535].

---

[530] النساء، 4/ 75.

[531] القرطبي، ***الجامع لأحكام القرآن***، ج:5، ص: 279.

[532] الأنبياء، 21/ 23.

[533] فاطر، 35/ 6.

[534] يس، 36/ 60-61.

[535] الطبري، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ج:20، ص:542.

وذكر ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى حكما كثيرة من الابتلاء بالنفس والشيطان، ومنها: أن يكمل الله تعالى لأنبيائه ورسله وأوليائه مراتب العبودية، وذلك بمجاهدة عدو الله تعالى-الشيطان- وحزبه، وإغاظته وإغاظة أوليائه، ومخالفته في سبيل نيل مرضاة الله تعالى، والاستعاذة بالله منه، وإلجاء العبد إلى الله تعالى ليعيذهم من كيده وشره، فيترتب للعباد على ذلك مصالح دنيوية، وأخروية، لا تحصل بدونه[536].

ثم بين الله تعالى كيف يتحقق العبد بالعبودية عند نزغات الشيطان، فقال سبحانه: ﴿وإِمَّا يَنزَغَنَّكَ منَ الشَّيطانِ نَزغٌ فَاستَعِذ بِاللَّهِ إِنَّهُ سمِيعٌ علِيمٌ﴾[537]. ونزغ الشيطان: وساوسه ونخسه في قلب الإنسان بحيث يسول للإنسان المعاصي والمخالفات. وكيفية الاستعاذة بالله تعالى عند هذه الوسوسة أن يتذكر العبد عظيم فضل الله تعالى عليه وعظيم نعمه، ويتذكر شديد عذابه وعقابه، فكل واحد من هذين الأمرين-تذكر النعيم والعذاب-يدعوه إلى الإعراض عن معصية الله تعالى، والإقبال على طاعته والالتزام بأمر شرعه. وإن كان هذا الخطاب قد خص الله تعالى به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ إلا أنه تأديب لجميع المكلفين، لأن الاستعاذة بالله تعالى سبيل يمنع تأثير وسوسة الشيطان على العبد، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِذا قَرأْتَ الْقرْآنَ فَاسْتعِذْ بِاللَّهِ منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ إِنَّه لَيسَ لَه سُلطانٌ على الَّذينَ آمنوا وعلى ربِّهِم يَتَوكَّلونَ﴾[538]. فإذا ثبت بنص القرآن الكريم أن لهذه الاستعاذة أثر عظيم في دفع نزغات الشيطان، وجبت المواظبة عليها في سائر الأحوال. وقوله تعالى: ﴿إنه سميع عليم﴾ يدل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد، إلا إذا استحضر القلب معناها، فكأن الله تعالى يقول: استعذ بلسانك فإني سميع لاستعاذتك، واستحضر معانيها في قلبك وعقلك فإني عليم بما في قلبك وضميرك، ولذا فقول اللسان بدون معارف القلب عديم الفائدة والأثر[539].

وأما مجاهدة النفس: فإن الله تعالى جعلها سبباً للوصول إلى الهداية، وهذا من مقتضيات كمال العبودية لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينَا لَنَهدِيَنَّهم سُبُلَنا وإِنَّ اللَّهَ لَمَع المُحسِنِينَ﴾[540]. فالمجاهدة المذكورة في الآية مطلقة وغير مقيدة، لتتناول كل ما يجب على المرء مجاهدته في حق الله

---

[536] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (المتوفى: 751هـ)، ***شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل***، دار المعرفة، بيروت-لبنان الطبعة: 1398هـ/1978م، ص: 236.

[537] الأعراف،7/ 200.

[538] النحل، 16/ 97، 98.

[539] الرازي، ***التفسير الكبير***، ج:15، ص: 435.

[540] العنكبوت، 69/29.

تعالى ولوجهه الكريم، كمجاهدة النفس الأمّارة بالسوء، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة أعداء الدين من المشركين والكافرين، وقد وعد الله تعالى أولئك المجاهدين أن يزيدهم هداية إلى طرق الخير والصواب، وتوفيقاً إلى مرضاته[541]. فمن جاهد النفس والشيطان والهوى، وانقاد لأوامر الله تعالى ولم يعصه، فقد تحقق بالعبودية لله تعالى، وفاز بالنعيم الأبدي، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن خَافَ مَقامَ رِبِّهِ ونَهى النَّفسَ عنِ الهَوى (40) فإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأوى (41)﴾[542].

الحكمة الثانية: ليشهد العبد ضعفه وحاجته إلى الله تعالى، عند طاعته للنفس والشيطان. عندما يضعف الإنسان في مجاهدة النفس أو الشيطان، ويقع في المعاصي والذنوب، يعلم أنه لا عاصم له من عدوه إلا الله تعالى، فيعترف بضعفه وينكسر إلى خالقه، ليتجلى عليه بالعفو والمغفرة والتوبة، فمن حكمة ابتلاء العبد بالنفس والشيطان أنهما كانا سبباً لاعترافه لله تعالى بالضعف والعجز والحاجة.
وقد وصف الله تعالى هذه الحالة من الإنسان فقال: ﴿والَّذينَ إذا فَعلُوا فاحِشَةً أَو ظَلَموا أَنْفُسَهم ذَكرُوا اللَّهَ فاسْتَغفَروا لِذُنُوبِهم ومَن يَّغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ولَمْ يُصِرُّوا على ما فَعَلُوا وهُم يَعْلَمونَ﴾[543]. قال ابن كثير رحمه الله رحمه الله: إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار[544].

وعدَّ الإمام ابن القيم رحمه الله إحدى وثلاثين حكمة للوقوع في الذنب والمخالفة، سأذكر بعضها تجنباً للإطالة، فقال في بدايتها: أن يشهد-العبد-حكمة الله تعالى في تهيئة أسباب الذنب له، وتمكينه من الوقوع فيه، وأنه لو شاء سبحانه وتعالى لعصمه من الوقوع فيه ولحال بينه وبين معصيته، ولكنه تركه يقع في المعصية لحكم جليلة لا يعلمها بكاملها إلا الله سبحانه وتعالى، ومن تلك الحكم: أولاً: أنه-سبحانه وتعالى-يحب التَّوابين ويفرح بتوبتهم، ولأنه سبحانه وتعالى يحب رجوع عباده إليه بالتوبة والندم، قدَّر عليهم الوقوع في الذنوب، فالسعيد من أكرمه الله تعالى بالتوبة إليه، والسعيد من أيقن بأنه لا غنى له عن حفظ ربه، وأنَّه إن لم يحفظه ويعصمه سيهلك لا محالة. ثانياً: أن يعرف العبد حقيقة نفسه وأنها الجاهلة الخطاءة، وأن كل ما عنده من صلاحٍ وعلم وإيمان وعمل فمن ربه سبحانه وتعالى، وهو الذي منَّ به عليه لا من نفسه. ثالثاً: تعريف الله تعالى عبدَه سعة عفوه وحلمه وكرمه في الستر عليه، فإنه لو

---

[541] الزمخشري، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، ج:3، ص: 465.

[542] سورة النازعات: 40-41.

[543] آل عمران، 3/ 135.

[544] ابن كثير، ***تفسير القرآن العظيم***، ج:2، ص:123.

شاء سبحانه وتعالى لعجل عقوبته على الذنب، ولهتك ستره عنه وفضحه بين عباده، فلم يصفُ له معهم عيش، وتعريفه أنه لا طريق إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته.

ومن حكم ابتلاء العبد بالشياطين ووساوسها: أن يطلب العبد المعونة من الله تعالى، فيلجأ إليه بدعائه والتضرع إليه والابتهال بين يديه، فيستعيذ به من عدوه وشر نفسه، وما ذاك الابتلاء إلا إرادة الله من عبده أن يكمِّل إيمانه بمقام الذل والانكسار، لأن العبد إذا شهد صلاحه واستقامته؛ شمخ بنفسه وظن أنه كمَّل إيمانه بنفسه، فإذا ابتلاه ربه بالذنب تصاغرت عنده نفسه، وانكسر وذلّ[545].

[545] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (المتوفى: 751هـ)، ***طريق الهجرتين وباب السعادتين***، دار السلفية: القاهرة مصر، الطبعة: الثانية، 1394هـ، ص:169-170.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الله تعالى عليم بعباده، حكيم فيما قضى، لطيف فيما قدَّر، له الأمر والحكم، ولا رادَّ لقضائه وحكمه.

ونجد مما تقدَّم في البحث أن الله تعالى سنَّ سنة الابتلاء-بالسراء والضراء-على جميع عباده، وأشدهم بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، وما كان ابتلاء الله تعالى لعباده إلا عن كمال علمه وحكمته سبحانه وتعالى، فما من عبد ابتلاه الله تعالى إلا وتجد أنَّ وراء ذلك الابتلاء حكمة تلوحُ لذوي الألباب، تنادي وتقول: إن الله عليم حكيم.

أما ابتلاء الأنبياء فكان ابتلاء تكليف وتشريف، وإظهاراً لفضلهم وعِظَمِ إيمانهم، ابتلاهم بالنعمة فشكروا، فكانوا قدوةً للعباد في شكر النعم، وابتلاهم بالشدائد فصبروا، فكانوا قدوةً للعباد في الصبر على النقم.

وابتلى-سبحانه وتعالى-المؤمنين بالسراء امتحاناً لشكرهم، وتحدثهم بنعمة ربهم، حتى إذا ما قاموا له بالشكر؛ زادهم من نعيمه وفضله، وابتلاهم بالضراء امتحاناً لصبرهم، ورضاهم عن ربهم فيما قضى وقدر عليهم، حتى إذا ما استقبلوا أقداره بجميل الصبر؛ أكرمهم بعلوِّ الدرجات، ومضاعفة الحسنات، ونقَّاهم من السيئات، وأكرمهم بجميل البشارات من الصلوات، والرحمات، والهداية إلى طريق الرشد والصواب.

وابتلى-سبحانه وتعالى-الكافرين، فأنعم عليهم بصنوف النعم، ليس إكراماً ولا استحقاقاً، ولكن امتحاناً لهم وفتنة واستدراجاً، حتى إذا سَكِرُوا بنعمة الله، وجحدوا فضل الله، وأصروا على عنادهم وكفرهم، أتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، فاستأصل شأفتهم في الدنيا، وأعد لهم في الآخرة عذاباً أليماً.

وابتلى-سبحانه وتعالى-عباده بالتكاليف والأوامر والنواهي، فانقسموا -بإرادتهم واختيارهم - فريقين: فريقٌ في الجنة بما امتثلوا وأطاعوا، وفريق في السعير بما استكبروا وعاندوا.

وأخيراً: أسأله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وجميع المسلمين كمال الإيمان، لنشكره على السراء، ونصبر على الضراء، ونمتثل أوامره وننتهي عن نواهيه، إنه سميع قريب مجيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

- ***القرآن الكريم***.
- إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار، ***المعجم الوسيط***، دار الدعوة.
- ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس (المتوفى: (327هـ)، ***تفسير القرآن العظيم***، ت ح: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز-المملكة العربية السعودية الطبعة: الثالثة -1419 هـ.
- ابن الأثير الجزري، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد (المتوفى: 606هـ)، ***النهاية في غريب الحديث***، ت ح: طاهر أحمد الزاوى -محمود محمد الطناحي المكتبة العلمية -بيروت، 1399هـ -1979م.
- ابن جزي، أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد (المتوفى: 741هـ)، ***التسهيل لعلوم التنزيل***، ت ح: الدكتور عبد الله الخالدي الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى 1416 هـ.
- ابن حبان البُستي، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن معاذ بن مَعْبدَ (المتوفى: 354هـ)، ***الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان***، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، ت ح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1408 هـ -1988 م.
- ابن حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي (المتوفى: 745هـ)، ***البحر المحيط في التفسير***، ت ح: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: 1420 هـ.
- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد (المتوفى: 1393هـ)، ***التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»***، الدار التونسية للنشر-تونس، 1984هـ.
- ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب (المتوفى: 542هـ)، ***المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز***، ت ح: عبد السلام عبد الشافي محمد الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى -1422 هـ.

- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (المتوفى: 751هـ)، ***زاد المعاد في هدي خير العباد***، مؤسسة الرسالة، بيروت -مكتبة المنار الإسلامية، الكويت الطبعة: السابعة والعشرون، 1415هـ /1994م.
- .....، ***مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين***، ت ح: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة، 1416 هـ -1996م.
- .....، ***شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل***، دار المعرفة، بيروت-لبنان الطبعة: 1398هـ/1978م.
- .....، ***طريق الهجرتين وباب السعادتين***، دار السلفية: القاهرة مصر، الطبعة: الثانية، 1394هـ.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (المتوفى: 774هـ)، ***تفسير القرآن العظيم***، ت ح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة: الثانية 1420هـ -1999 م.
- ابن ماجه القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد (المتوفى: 273هـ)، ***سنن ابن ماجه***، ت ح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية -فيصل عيسى البابي الحلبي.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن على (المتوفى:711هـ)، ***لسان العرب***، دار، صادر -بيروت، الطبعة: الثالثة -1414هـ.
- أبو السعود رحمه الله العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ)، ***إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم***، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- أبو القاسم النيسابوري، محمود بن أبى الحسن (المتوفى: 550هـ)، ***إيجاز البيان عن معاني القرآن***، ت ح: الدكتور حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى -1415 هـ.
- أبو بكر بن العربي، محمد بن عبد الله (المتوفى: 543هـ)، ***أحكام القرآن***، تخريج وتعليق: محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان الطبعة: الثالثة، 1424 هـ -2003 م.
- أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أبو عبد الله (المتوفى: 241هـ)، ***مسند الإمام أحمد بن حنبل***، ت ح: شعيب الأرنؤوط -عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ -2001 م.

- الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: 1270هـ)، ***روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني***، ت ح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى،1415هـ.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، ***الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه***، ت ح: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى 1422هـ.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود (المتوفى: 510هـ)، ***معالم التنزيل في تفسير القرآن***، ت ح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ.
- البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط (المتوفى: 885هـ)، ***نظم الدرر في تناسب الآيات والسور***، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- البوطي، محّمد سَعيد رَمضان، ***فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة***، دار الفكر – دمشق الطبعة: الخامسة والعشرون -1426 هـ.
- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر (المتوفى: 685هـ)، ***أنوار التنزيل وأسرار التأويل***، ت ح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى-1418 هـ.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سوْرة (المتوفى: 279هـ)، ***سنن الترمذي***، ت ح: إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة: الثانية، 1395 هـ -1975 م.
- جامي، أحمد فتح الله، ***المختصر المجرد من تفسير القاضي البيضاوي***، الطبعة الأولى 1436هـ 2014م.
- الحجازي، محمد محمود، ***التفسير الواضح***، دار الجيل الجديد – بيروت الطبعة: العاشرة،1413هـ.
- حقي، إسماعيل بن مصطفى (المتوفى: 1127هـ)، ***روح البيان***، دار الفكر – بيروت.
- الخازن، علاء الدين علي بن محمد (المتوفى: 741هـ)، ***لباب التأويل في معاني التنزيل***، ت ح وتصحيح، محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى -1415 هـ.

- الخراط، أحمد بن محمد، ***منهج ابن الأثير الجزري في مصنفه «النهاية في غريب الحديث والأثر»***، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (المتوفى: 388هـ)، ***العزلة***، المطبعة السلفية -القاهرة الطبعة: الثانية، 1399 هـ.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (المتوفى:748هـ)، ***سير أعلام النبلاء***، دار الحديث-القاهرة، الطبعة: 1427هـ-2006م.
- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن (المتوفى: 606هـ)، ***التفسير الكبير***، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة -1420.
- الرازي، محمد بن أبي بكر (المتوفى: 666هـ)، ***مختار الصحاح***، ت ح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية -الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420هـ / 1999م.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: 502هـ)، ***المفردات في غريب القرآن***، ت ح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية -دمشق بيروت، الطبعة: الأولى -1412 هـ.
- الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني (المتوفى: 1205هـ)، ***تاج العروس من جواهر القاموس***، ت ح: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- الزحيلي، وهبة بن مصطفى، ***التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج***، دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة: الثانية، 1418 هـ.
- .....، ***التفسير الوسيط***، دار الفكر – دمشق الطبعة: الأولى-1422هـ.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (المتوفى: 538هـ)، ***الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل***، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة -1407 هـ.
- زيدان، عبد الكريم، ***السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد***، مؤسسة الرسالة بيروت: الطبعة الأولى،1413هـ -1993م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى: 911هـ)، ***الدر المنثور***، دار الفكر – بيروت.
- الشربيني، محمد بن أحمد (المتوفى: 977هـ)، ***السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير***، مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة 1285 هـ.

- الشعراوي، محمد متولي، ***تفسير الشعراوي***، مطابع أخبار اليوم (ليس على الكتاب الأصل - لمطبوع -أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام 1997 م.
- الصابوني، محمد علي، ***صفوة التفاسير***، دار الصابوني، للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة الطبعة: الأولى، 1417 هـ -1997 م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (المتوفى: 310هـ)، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، ت ح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ -2000 م.
- طنطاوي، محمد سيد، ***التفسير الوسيط للقرآن الكريم***، دار نهضة مصر– القاهرة 1997. الطبعة: الأولى.
- عز الدين السلمي، عبد العزيز بن عبد السلام (المتوفى: 660هـ)، ***تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي)***، ت ح: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم – بيروت، الطبعة: الأولى، 1416هـ/ 1996م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح (المتوفى: 671هـ)، ***الجامع لأحكام القرآن***، ت ح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ -1964 م.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (المتوفى: 465هـ)، ***لطائف الإشارات***، ت ح: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة.
- الكيا الهراسي، علي بن محمد بن علي (المتوفى: 504هـ)، ***أحكام القرآن***، ت ح: موسى محمد علي وعزة عبد عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، 1405 هـ.
- مالك بن أنس الأصبحي المدني (المتوفى: 179هـ)، ***الموطأ***، ت ح: محمد مصطفى الأعظمي، زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية -أبو ظبي -الإمارات، الطبعة: الأولى، 1425هـ -2004م.
- الماوردي، علي بن محمد (المتوفى: 450هـ)، ***النكت والعيون***، ت ح: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية -بيروت/ لبنان.

- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، ***المسند الصحيح المختصر (صحيح مسلم)***، ت ح: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (المتوفى: 303هـ)، ***السنن الكبرى***، ت ح: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ -2001 م.
- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (المتوفى: 710هـ)، ***مدارك التنزيل وحقائق التأويل***، ت ح: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1998 م.
- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، ***المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج***، دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثانية، 1392هـ.
- النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد (المتوفى: 850هـ)، ***غرائب القرآن ورغائب الفرقان***، ت ح: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى -1416 هـ.
- الهروي، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي (المتوفى: 481هـ)، ***منازل السائرين***، دار الكتب العلمية – بيروت.
- الهيثمي، علي بن أبي بكر بن سليمان (المتوفى: 807هـ)، ***مجمع الزوائد ومنبع الفوائد***، ت ح: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1414 هـ، 1994 م.
- الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد المتوفى:(468هـ)، ***أسباب نزول القرآن***، ت ح: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام الطبعة: الثانية، 1412 هـ -1992م.

ÖZGEÇMİŞ

KİŞİSEL BİLGİLER

Adı Soyadı	**ABDULRAZAK MOHAMAD**
Doğum Yeri	**ALEPPO-SURİYE**
Doğum Tarihi	**01.12.1980**

.

LİSANS EĞİTİMİ BİLGİLERİ

Üniversite	**Halep Üniversitesi-Ummu durman Üniversitesi (Sudan)**
Fakülte	**İlahiyat Fakültesi**
Bölüm	**Din Bilimleri**

İŞ DENEYİMİ

Çalıştığı Kurum	**1. Sedd Tişrin Lisesi (Halep/Suriye) 3 Yıl** **2. Cerablus eş-Şer'iyye Lisesi (Halep/Suriye) 3 Yıl** **3. er- Risaletu'l ilmiyye Ortaokulu (Şarika/Birleşik Arap Emirlikleri) 2 Yıl** **4. Koza İlköğretim Okulu (Adana/Türkiye) 2 yıl**
Görevi/Pozisyonu	**Öğretmen**
Tecrübesi	**5 sene Suriye' de iki sene Türkiye' de 2 yıl Birleşik Arap Emirlikleri**

KATILDIĞI

Kurslar	**2016 Yılı Geçici Eğitim Merkezlerinde Görev Yapan/Yapacak olan Suriyeli Öğretmen Eğitimi Çalışması (2 Kurs)**
Projeler	

İLETİŞİM

Adres	**19 MAYIS 1072 19/1 merkez-yüregır, ADANA-TÜRKİYE**
E-mail	**abdurrazzak.ahmad2728@gmail.com**

السيرة الذاتية

الاسم: عبد الرزاق محمد

الجنسية: سوريا -حلب

تاريخ الولادة: (1980/12/01) ميلادي

الدراسات العلمية: المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية في سوريا

1) الابتدائية في مدرسة البعث
2) الاعدادية والثانوية في ثانوية الأرقم الشرعية
3) حاصل على بكالوريوس في الدراسات الإسلامية من جامعة أم درمان الإسلامية "كلية أصول الدين" السودان (2003) ميلادي
4) حاصل على الشهادة الجامعية من جامعة حلب – كلية الشريعة (2013) ميلادي
5) ماجستير في التفسير، جامعة بنغول (2017) ميلادي

العمل والمهارات: تدريس مادة التربية الإسلامية والعلوم الشرعية في سوريا وغيرها

1) ثانوية سد تشرين في منبج (3 سنوات)
2) مدرسة الرسالة العلمية في الإمارات العربية المتحدة/ الشارقة (2 سنة)
3) مدرسة الثانوية الشرعية في جرابلس (2 سنة)
4) ابتدائية كوزا في أضنة / تركيا (2 سنة)

رقم الهاتف: 05316992494

الإيميل: **abdurrazzak.ahmad2728@gmail.com**